زبدة الحلب من تاريخ حلب

للصاحب كمال الدين
عمر بن أحمد بن أبي جرادة
المتوفى سنة ٦٦٠هـ

حققه وقدم له
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الأول

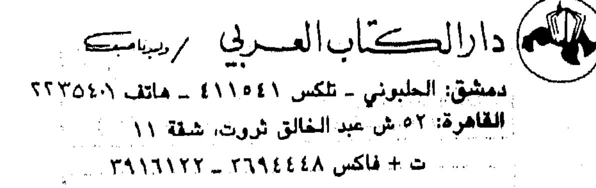





زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ/١٩٩٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعدّ مدينة حلب من أعرق مدن بلاد الشام وأكثرها أهمية ، وقد شغلت أعظم الأدوار في تاريخ هذه البلاد في الاسلام ، وعلى محورها ومحور دمشق دارت الأحداث الرئيسية لتاريخ الشام الاسلامي ، ومنها استردت الشخصية الشامية الثقافية ذاتها بعد ما لحق بها التدمير أثر سقوط الدولة الأموية .

وصحيح أن الأدوار السياسية والعسكرية لحلب عالية جداً ، لكن دورها الحضاري أكثر تميزاً وتأثيراً وشمولية ، وكان التاريخ بين أبرز الحقول الثقافية التي أسهم فيها الحلبيون ، ولا أعني سكان المدينة فقط بل سكان الشام الشمالي ، لأن حلب غدت منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد مركزاً لإمارة ، غالبا ما امتدت حدودها جنوباً حتى بلده الرستن على العاصي .

وكان أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري ، أهم مؤرخي القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م ، هذا ولم أستطع الوقوف على ترجمة منفصلة له ، ولكن ابن العديم الذي نقل أجزاء كبيرة جداً من تاريخه

في كتابه بغية الطلب ، قد ذكره بين تلاميذ أبي العلاء المعري [ت ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م] وتوحي النقول الطويلة التي قام بها ابن العديم بطبيعة كتابه ، حيث يبدو أنه كان يتألف من تاريخ حولي عام ركز على تدوين أخبار الأحداث التي وقعت في معرة النعمان وحلب ، وتعلقت المعلومات المنقولة بتأسيس الدولة المرداسية في حلب من قبل صالح بن مرداس ، ثم بحكم ثمال بن صالح بن مرداس وعلاقاته بالخلافة الفاطمية ، وببدايات استيلاء السلاجقة على بلاد الشام بعد العراق ، مع حملة السلطان ألب أرسلان ضد حلب .

وكان من معاصري ابن المهذب الطبيب المسيحي أبو الخير المبارك بن شرارة ، وكان ابن شرارة كاتباً بالاضافة إلى كونه طبيباً ، وقد عاش في مدينة حلب حتى أيام رضوان بن تتش (١٠٩٥ - ١١١٣ م)، وقد هجر مدينته وذهب أولاً إلى أنطاكية ومن هناك إلى صور بسبب سوء معاملة رضوان له وطغيانه ، وفي صور توفي حوالي سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م ، وكتب المبارك تاريخاً روى فيه بشكل أساسي الحوادث التي وقعت في أيامه ، لاسيما الوقائع التي شهدتها حلب ، وكان من شهودها . ويبدو أن هذا التاريخ لم يرج كثيراً ، ولذلك فقدت نسخه بعد وفاة مؤلفه بأمد قصير ، ذلك أن القفطي [ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م] قال إنه أخفق في الحصول على نسخة منه ، وأنه تلقى من مصر نسخة سيئة ومختصرة من هذا التاريخ ، كان قد اختصرها مصري غير معروف .

ومن معاصري ابن شرارة كان منصور بن تميم بن الزنكل ، الذي كان شاعراً من سرمين ، شهد أحداث وفود التركمان إلى الشام الشمالي ، ودوّن بعضها لكن لا نعرف وفق أي منهج ، والذي نعرفه أن ابن العديم نقل عنه بعض الأخبار في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب .

وقام في القرن السادس هـ/ الثاني عشر/م على الأقل ثلاثة من الحلبيين بكتابة تواريخ خاصة بمدينة حلب وهم : حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي [ت ١١٤٧ م] وعلي بن عبد الله بن أبي جرادة [ت ١٥٥١ م] ومحمد بن علي العظيمي المتوفى حوالي سنة ١١٦١ م ، ومن المؤسف أنه لم يتعد ما وصلنا مما كتبة هؤلاء عن حلب بعض النقول الموجودة لدى ابن العديم في كتابه بغية الطلب .

كان حمدان طبيباً وشاعراً ، وقد امتلك ذخيرة كبيرة من معارف عصره، وقد خدم في حقب متفاوته في إدارة كل من المسلمين في حلب (أيام زنكي بشكل خاص) وإدارات الصليبيين في أنطاكية والمناطق المحيطة بها ، وقد سفر لزنكي حيث بعثه إلى الصليبيين في أنطاكية وإلى مصر ودمشق ولربما إلى بغداد ، وقابل في القاهرة الخليفة الفاطمي الآمر [١١٠١ - ١١٣٠ م] ولكن بعدما برهن أنه شيعي إمامي ، وأنه لم يكن من أفراد الاسماعيلية الحشيشية ، وتمنحنا سيرة حياة حمدان بعض المعلومات المفيدة حول حياة كل من المسلمين والصليبيين في الشام الشمالي ، وحول العلاقات بينهما في النصف الأول من القرن الثاني عشر .

أرخ حمدان لقدوم الفرنجة إلى بلاد الشام ، كما وحمل واحد من كتبه عنوان المفوف ، ويرجح أنه أوقفه على تاريخ حلب ، واهتم فيه بشكل خاص بالأحداث التي وقعت بعد سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م .

وكان من معاصري حمدان علي بن عبد الله بن أبي جرادة ، وكان مثله مثل حمدان شاعراً وعالي الثقافة ، وأيضاً أمامي العقيدة ، وقد كتب بالتاريخ كتاباً دعاه «تاريخ ملوك حلب» ، وعن هذا الكتاب نقل ابن العديم بعض المعلومات المتعلقه بسقوط الامارة المرداسية ، وحول الأوضاع الداخلية في مدينة حلب آنذاك .

وكان أيضاً من معاصري حمدان وابن أبي جرادة محمد العظيمي ، الذي كان بدوره شاعراً ومعلم مدرسة ، وقد كتب العظيمي عدة كتب بالتاريخ ، أوقف واحداً منها على تاريخ حلب ، وحمل واحد منها اسم «الموصل على الأصل المؤصل» وقد كتب هذا الكتاب على شكل حوليات عامة لتاريخ الاسلام ، وقد وصلنا ما يمكن عده مختصراً له ، أو هو نفسه في نسخة خطية وحيدة (مكتبة بيازيد استانبول رقم ٣٩٨ ، ونشر محققاً مؤخراً في دمشق سنة ١٩٨٥ باسم تاريخ حلب) . وعلى الرغم من سيطرة طابع الاختصار والعموميات على هذا الكتاب ، فإنه يحتوي في أواخره على معلومات ثمينة جداً تتعلق بحلب خلال أواخر القرن الحادي عشر م ، هذا ونقل ابن العديم في كتابه بغية الطلب من كتب العظيمي الأخرى مواداً تتعلق بعصر الدولة المرداسية ثم بدايات الحكم السلجوقي لحلب .

ومع أن بعض مؤرخي القرن الثاني عشر م قد صنف كتباً تعالج تاريخ حلب فقط ، فإن العدد الأكبر منهم قد تابع السير على مذاهب الأوائل في كتابة حوليات عامة ، وكان من بين هؤلاء يحيى بن علي التنوخي ، ويعرف عادة بابن زريق ، وقد ولد عام ١٠٥١ م في معرة النعمان ، ولعله مات في العقد الأول من القرن الثاني عشر .

وكتب ابن زريق تاريخاً حوليا ، أوقف أخباره بشكل أساسي على الاحتلال السلجوقي لبلاد الشام ، ثم على الغزو الصليبي ، وعنه نقل ابن العديم في كتابه بغية الطلب ، ومن خلال ابن العديم تعرفنا عليه ، لأن كتابه بحكم المفقود .

وكانت الأسرة المنقذية قد تأسست في قلعة شيزر ، حيث انتقلت إليها من بلدة كفر طاب ، وفي شيزر أنجبت الأسرة المنقذية عدداً من الفرسان والشعراء والكتاب ، شهر منهم بشكل خاص أسامة بن مرشد [ت ١١٨٨ م] ، ومع أسامة أسهم أثنان من أخوانه بكتابة التاريخ هما : علي ومنقذ ، فقد صنف منقذ تاريخاً حوليا جعله ذيلاً لتاريخ ابن المهذب المتقدم الذكر ، وكتب أخوه علي أيضاً تاريخاً حوليا حمل اسمه ، أما أسامة صاحب كتاب الاعتبار ، فقد صنف عدداً كبيراً من الكتب وصلنا بعضها لكن لم يصلنا ما كتبه بالتاريخ العام إلا من خلال النقول التي احتفظ بها ابن العديم في كتابه بغية الطلب .

ومثلما نقل ابن العديم عن الأخوة الثلاثة من آل منقذ ، نقل عن أبي غالب عبد الواحد ابن مسعود بن الحصين ، الذي يرجح أنه كان من أهالي معرة النعمان ، وقد صنف تاريخاً حوليا ، ومثله كان من بين مؤرخي معرة النعمان عبد القاهر بن علوي ، وقد ذكره العماد الأصفهاني الكاتب ، وبيّن أنه كان شاعراً ، شغل منصب قاضي معرة النعمان ، وأنه قد لقيه في مدينة حماه في آذار ١١٧٦ م ، وكتب ابن علوي كتاباً بالتاريخ اسمه «نزهة الناظر وروضة الخاطر» ، وكان هذا الكتاب أيضاً بين مصادر بغية الطلب لابن العديم .

ونقل ابن العديم عن مؤرخ حلبي آخر اسمه أبو منصور هبة الله بن سعد الله بن الجبراني ، ولا نعرف تاريخ ميلاد أو وفاة هذا المؤرخ ، لكننا نعلم أن واحداً من أولاده واسمه أحمد قد توفي سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م .

مما تقدم عرضه بايجاز نعلم أن المؤرخين الذين أنجبتهم امارة حلب كثير عددهم خصب انتاجهم ، ولقد تأوجت أعمال التدوين التاريخي في الشام الشمالي في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد ، وأبرز الذين خلفوا لنا العديد من المؤلفات هم : ابن أبي طيء (يحيى بن حميدة ـ توفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣١ م) ، والقفطي (علي بن يوسف ـ توفي سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) ابن العديم (عمر بن أحمد ـ توفي سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ ـ ١٢٦٢ م) وابن شداد (محمد بن علي ـ توفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥ م) . ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين لأنه أمضى سنوات حياته الأخيرة في حلب .

وكان القفطي ، الذي شغل منصب الوزير بحلب ، مصنفاً لعدد من الكتب تتضمن عدة موضوعات منها واحد حمل عنوان «الاستئناس في أخبار آل مرداس» لا نعرف نسخة عنه ، وفيما عدا ما يوحيه عنوانه لا نعرف شيئاً عن محتوياته ولا الطريقة التي كتب بها .

وكتب ابن أبي طيء عدة كتب معظمها بحكم المفقود ، وقد ذكر له حاجي خليفة كتاباً اسمه «معادن الذهب» في تاريخ حلب ، كما ويرجح أنه كتب سيرة لصلاح الدين الأيوبي ، وأتى بتفاصيل حوله لانجدها عند سواه ، فقد كان والد هذا المؤرخ من زعماء الشيعة الامامية بحلب ، وقد اضطر إلى مغادرة مدينته أيام نور الدين محمود بسبب السياسة الدينية التي اتبعها ولضغطه الشديد على الشيعة ، ولذلك جاءت أخبار ابن أبي طيء مشايعة لصلاح الدين مضادة لنور الدين ، ومع ذلك هي هامة جداً اعتمدها واستفاد منها كل من ابن العديم وأبو شامة في الروضتين .

هذا وكتب ابن شداد كتاب الأعلاق الخطيرة، وجل مواده عن حلب نقلها عن ابن العديم ، وابن العديم هو أعظم مؤرخ أنجبته بلاد الشام في تاريخها الاسلامي كان غزير الانتاج موسوعي المعارف ، وهو خير ممثل للحضارة العربية والثقافة الشامية قبيل الاجتياح المغولي المدمر .

وابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله . . . ابن أبي جرادة ، ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل إلى المكتب للدراسة ، وهناك

ظهرت استعداداته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به أبوه عناية كبيرة ، فحدب على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظراً لمنزلة والده ولما تمتعت به أسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافياً من معارف عصره الدينية والدنيوية ، ويروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك أنه ـ أي الأب ـ كان رديء الخط ، فأراد أن يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحاً كبيراً جداً ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله : «واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقيد فسواد ابن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي بن هلال» ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحداً من المع النساخ في تاريخ العربية وأكثرهم ضبطا وبراعة وأمانة ويقظة ودراية .

وفي باب العناية في إنشاء ابنه وتثقيفه صحب أحمد بن هبة الله ولده عمر في رحلاته وأسفاره ، حيث زار دمشق أكثر من مرة كما زار بيت المقدس ورحل إلى العراق والحجاز .

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل أمامه كلها مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبة وثقافته وأسرته الفضل الأكبر في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلاً للتعرف إلى اسرة ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته :

يعرف الجد الأعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن أبي جرادة ، وكان

صاحبا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ينتسب إلى ربيعة من عقيل إحدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش أولاد آل أبي جرادة وأحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم أحد أفراد أسرة أبي جرادة إلى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ أن ألم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال بلاد الشام ، ومفتاح الطريق إلى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع آسيا الصغرى والأراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى أسرة نمت مع الأيام عدداً ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الأسرة الأملاك ، كما ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت أسرة آل أبي جرادة من أبرز أسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على أيدي جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ، إنما في القرن الأخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، أخذ رويداً يعم في الاستعمال أكثر من الاسم الأصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو «العديم» ، ونحن لا نملك تعليلاً لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت : «سألته أولا لم سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال : هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا» .

ودانت أسرة ابن أبي جرادة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن

الخامس/ الحادي عشر ، هذا وان كنا لا نعرف بالتحديد تاريخ أخذ هذه الأسرة بمذاهب السنة أمكننا أن نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان (وهو أمر بحثته بالتفصيل في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية) ونظراً لعلاقات أسرة آل أبي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لابد أن الحال اقتضى المسايرة والتحول إلى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي .

وفي عودة نحو سيرة الصاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الأول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الأجل بهاء الدين أبي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله ـ المعروف بالعجمي ، وكان شيخ أصحاب الشافعي ، ومن أعظم أهل حلب منزلة وقدراً وثروة ومكانة سياسية ودينية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق الصاحب كمال الدين أولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه أحمد طفلاً يدب على الأرض ، ويمكننا التعرف إلى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على أبيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر أن ابن العديم مات دون أن يقوم باعادة النظر في مؤلفه «بغية الطلب» ولم يقم بتبييضه ، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، إنما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى أن مكانة الكتاب وأهميته هي هي ، ذلك أن أهمية الكتاب نابعة مما حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفا ممتازاً

ولم يكن «مؤرخاً» حسب مصطلحات أيامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تعليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات أيامنا هذه . . .

ومنذ أن بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب أخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ـ صاحب حلب ـ فيكرمه ويقربه ويقبل عليه أكثر من أقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة ولي ابن العديم أول عمل رسمي ، لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت ، وكانت من أجل مدارس حلب وارقاها ، كل «هذا وحلب اعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، إلا أنه رئي أهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، وألقى الدرس بجنان قوي ، ولسان لوذعي ، فأبهر العالم وأعجب الناس» ويبدو أنه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت أجل مدارس حلب ، وهي مدرسة مازالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه .

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم ، فسفر عن ملوك حلب إلى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى ، وإلى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، واودع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نرى أهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية أخرى يمكننا

أن نرى المدى الذي وصلت إليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات .

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد أودع ما أخذه عن علماء عصره ، وما رآه من أحداث أو شارك به ، أودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب أشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه .

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل إلى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عدداً كبيراً من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل أشهر كتبه «كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب» و «كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري» وكتابه بغية الطلب الذي أشرنا إليه حتى الآن كثيراً ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في أجزاء ثلاثة في دمشق ، وأعدت الآن تحقيقه ، أما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الأولى بحلب ثم اعيد طبعها في القاهرة ، وأقول قطعة ذلك أن الكتاب لم يصلنا كاملاً بشكل مباشر .

وعندما قلت بشكل مباشر اردت أن أقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات أن واحداً من أحفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتاباً حول القاضي الفاضل دعاه باسم

«سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل» ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي إن في ثنايا الكتاب ورد في احدى رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم أن يعرف بالمعري ، فقال : قال جدي في كتابه الانصاف والتحري : وأثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصوراً على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ومضيت إلى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ، فتيقنت من عدم دقته وان حفيد ابن العديم نقل قليلاً من كتاب جده الانصاف والتحري .

ويعود سبب انتقال ابن العديم إلى القاهرة ، إلى تعرض مدينة حلب إلى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته إلى دمشق ، ثم منها إلى غزة فالقاهرة ، ويبدو أنه عاد بعد عين جالوت إلى دمشق ، وربما اراد التوجه إلى حلب ، أو توجه إليها فعلاً ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي أثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكنت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق ، وكنت من قبل قد تعاملت مطولاً مع كتاب «زبدة الحلب من تاريخ حلب» الذي انتزعه ابن العديم واستخلصه من مواد كتاب «بغية الطلب» ، وجاء هذا التعامل لدى اعدادي لرسالة الدكتوراه في جامعة لندن عن امارة

حلب في القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي ، وعندما بدأت بعملي باعداد اطروحتي كان المنشور من كتاب زبدة الحلب الجزء الأول [نشر في دمشق ١٩٥١] والثاني [نشر في دمشق ١٩٥٤] لذلك قمت بتصوير المتبقي من المخطوط من باريس [نشر الجزء الثالث في دمشق ١٩٦٨] .

لقد تولى المرحوم الدكتور سامي الدهان تحقيق كتاب زبدة الحلب ، ونشره في /١٠٥٤/ ص وزعها على ثلاثة أجزاء ، وقدم لنشرته بمقدمه مسهبة عن حياة ابن العديم وعن مؤلفاته ، ولاشك أنه بذل جهوداً طيبة في تحقيق الكتاب الزبدة، لكن يؤخذ على عمله الاطالة ، لا بل الاسراف بالاطالة ، فهو كان مغرما بالحواشي وباقحام العناوين ، وأقحم العناوين في نص الكتاب وكأنها منه ، ولم يضعها بين حواصر للأمانة ، وفي هذا العمل تدليس وتزييف .

أما الحواشي فأكثر من تكرارها فضلاً عن أنه اختلق بعضها بلا سبب ، حتى أنه كان يدعي وجود طمس بالمخطوط ، ومن ثم اجتهاده بالقراءة والضبط ، هذا وأخفق الدكتور الدهان في عدة أماكن في قراءة النص إلى حد أن «عين الجر» جاءت عنده «عبر الجسر» .

وكان المرحوم الدهان قد وصف المخطوطات التي اعتمدها خاصة الأساسية منها وهي مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس (رقم ١٦٦٦ ـ الرقم القديم ٧٢٨ مخطوطات عربية) وهي تقع في ٢٦٨ ورقة بحجم ٢٥ × ١٧,٥ سم ، وكتبت هذه النسخة «لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع

الآخر سنة ست وستين وستمائة» أي بعد وفاة ابن العديم بست سنوات ، وقد اعتمد ناسخها على نسخه ابن العديم التي كتبها بخط يده .

وكنت قد اشتريت منذ أكثر من عامين بعض مصورات مكتبة المرحوم الدكتور الدهان من ذلك مصورة كتاب زبدة الحلب ، وعلى هذا اعتمدت المصورة نفسها التي اعتمدها .

ومن المرجح أن ابن العديم انتزع مواد زبدة الحلب من مواد بغية الطلب لكن قبل اكماله لتصنيف كتاب البغية ، ولهذا نلاحظ وجود بعض الفوارق بين روايات الكتابين أحياناً حول الخبر نفسه ، وصنف ابن العديم الزبدة تلبية لرغبة الملك العزيز بن الظاهر الأيوبي [٦١٣ - ٦٣٤ هـ] لكنه لم يقيد نفسه بتاريخ عهده ، بل زاد عليه ، ومن المؤكد أنه لم يبيض كتابه بغية الطلب ، بل إن بعضهم يرى إنه لم يكمل تصنيفه .

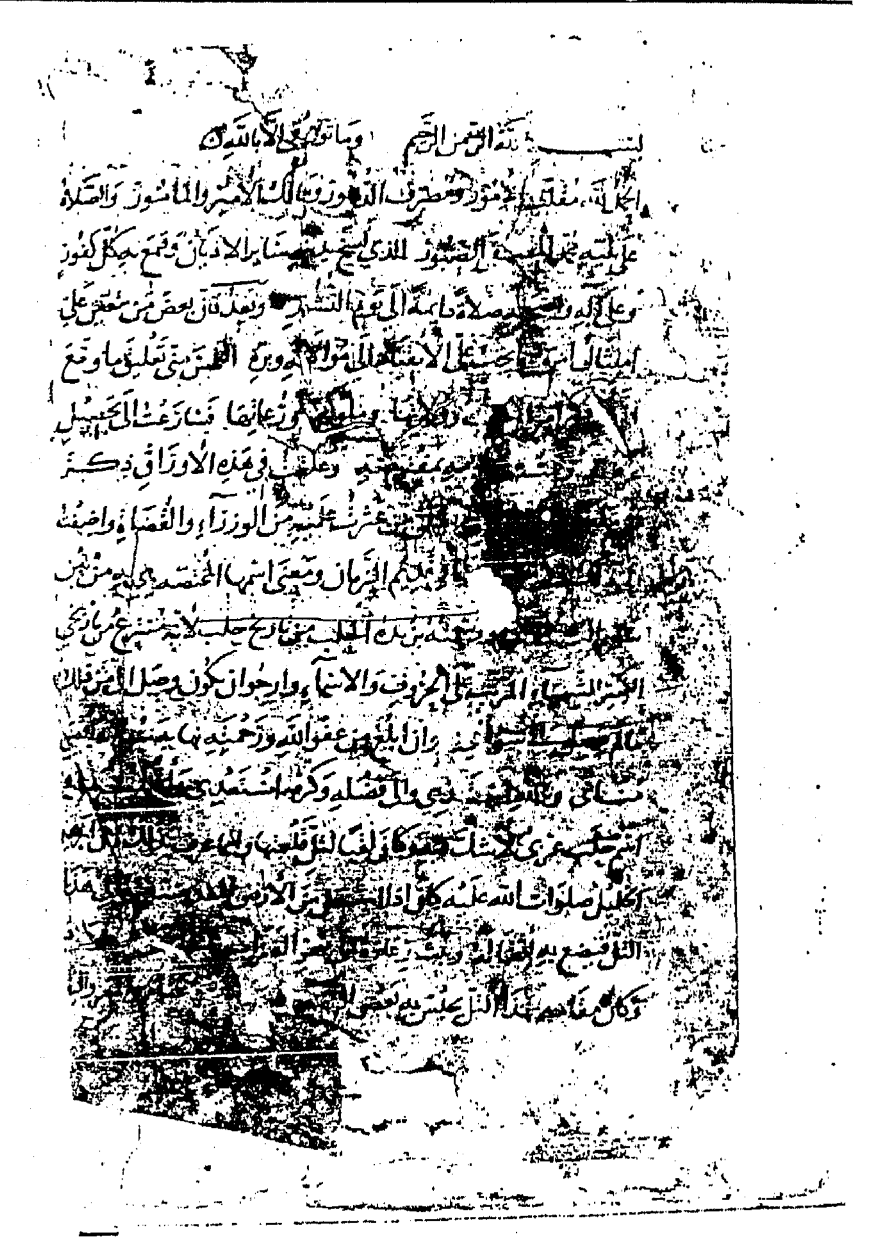
وكتاب زبدة الحلب يختلف في منهجه عن كتاب البغية ، وهو يشبه من بعض الوجوه تاريخ دمشق لابن القلانسي ، وكتب الحوليات ، ولا شك أنه أهم مصدر في بابه ، ظهر فيه ابن العديم بمظهر المؤرخ الأصيل .

وانصب اهتمامي لدى تحقيقي لهذا المصدر الهام على ضبط النص واخراج جميع الشوائب منه ، وخففت من الحواشي قدر الامكان ، لكن اضطررت لأسباب فنية إلى اضافة بعض العناوين ، فوضعت ما أضفته بين حاصرتين ونبهت على ذلك ، ولعل مما ساعدني في عملي أنني أعمل في تاريخ

حلب منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وأنني حققت كتاب بغية الطلب ، وتوفر لي مصادر جديدة ، ثم إن اختصاصي الأساسي هو التاريخ الإسلامي .

والله الموفق إلى السداد والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

دمشق ٥ جمادى الأولى ١٤١٧ هـ
١٧ أيلول ١٩٩٦ م

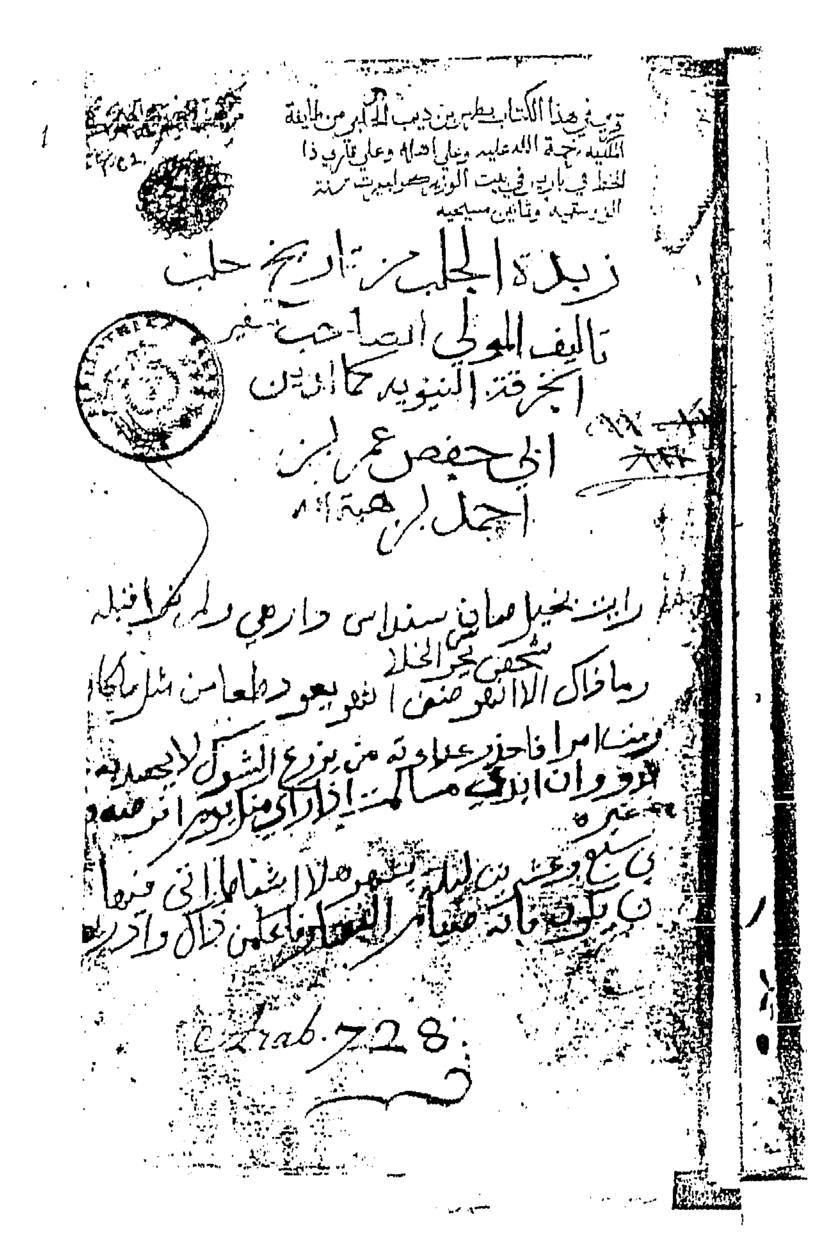


بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله

الحمد لله مقلب الأمور ومصرف الدهور ومالك الأمير والمأمور والصلاة

على نبيه محمد المبعوث ... الذي نسخ بدينه سائر الأديان وقمع به كل كفور

الصفحة الأولى من زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ



صفحة الغلاف لمخطوط زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ

الصفحة الأخيرة من مخطوط زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي

أما بعد حمد الله الواحد الأحد الفرد الصمد

المنزه عن الوالد والولد الذي خلق الإنسان

من طين وجعل نسله من سلالة من ماء مهين

وزينه في الحياة الدنيا بالمال والبنين والصلاة

على محمد سيد الأنبياء خاتمًا وإمام أهل

الرسالات ومباركها وهادي الأنفس وشمالها

وعلى آله الطاهرين من معادن العلم وأسراره

وتبيان العلم ووقاره فإني وجدت مولانا

[illegible]

[illegible]

الصفحة الأولى من الدراري بخط ابن العديم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

انبانا ابو اليمن الكندي قال اخبرنا ابو منصور القزاز قال اخبرنا ابو بكر
احمد بن علي بن ثابت الخطيب قال الحسن بن احمد بن صالح ابو محمد السبيعي
سمع محمد بن حبان البصري وعبد الله بن ناجية واحمد بن هارون البرديجي
ومحمد بن جعفر المطيري والحسن بن محمد بن عنبر الوشا ويموت بن المزرع
العبدي وعمر بن ايوب السقطي وقاسم بن زكريا المطرز وابا معشر
الدارمي وعمر بن محمد بن نصر الكاغدي وجماعة من الغرباء بحلب
روى عنه الدارقطني وحدثنا عنه ابو بكر البرقاني وابو نعيم الاصبهاني
وابو طالب محمد بن الحسين بن بكير وغيرهم وكان ثقة حافظا مكثرا
وكان عسرا في الرواية ولما كان باخرة عزم على التحديث والاملا
في مجلس عام فتهيا لذلك ولم يتفق الا بعض يوم المجلس فمات ه
اخبرنا ابو الوحش بن نسيم كتابة قال اخبرنا ابو القسم علي بن الحسن
الحافظ قال الحسن بن احمد بن صالح ابو محمد السبيعي الكوفي الحافظ
حدث عن محمد بن حبان البصري و[illegible] عبد الله بن محمد بن ناجية
وابي بكر البرديجي وابي جعفر المطيري والحسن بن محمد بن عنبر الوشا
ويموت بن المزرع وعمر بن ايوب السقطي وقاسم المطرز وابي معشر
الدارمي وعمر بن محمد بن نصر الكاغدي وابي عمر سعد بن عمر الوراق

نموذج من خط ابن العديم بغية الطلب

زبدة الحلب من تاريخ حلب

تأليف
المولى الصاحب سفير الخرقة النبوية
كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله[1]

---

١ ـ جاء على هذه الصفحة من مخطوط باريس:

ـ قرى في هذا الكتاب بطرس بن ديب الحلبي من طائفة الملكية رحمة الله عليه وعلى أهله، وعلى قارىء ذا الخط في باريس في بيت الوزير كولبيرت سنة ألف وستمية وثمانين مسيحية.

ـ رأيت بخيل صان سنداس دارهي ولم نر قبله شخص يحرس الخلا. وماذاك إلا النهر ضن النهر يعود طعامك مثل ماكان. رمت أمرءاً فاحذر عداوته. من يزرع الشوك لايحصد به مدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصه وغيره. في سبع وعشرين ليلة بشهر هلال شباط أتى فيها أن يكون فإنه صيام النصارى فاعلمن ذاك وادرين.

بِسْــــم الله الرَّحَمْنُ الرّحيـــم
وما توفيقي إلا بالله

الْحَمْدُ لله مُقَلِّبِ الأمُور. وَمُصَرِّفِ الدُّهُور. وَمَالِكِ الأمِيرِ وَالْمَأْمُور. وَالصَّلاةُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى الصَّبور. الذِي نَسَخَ بِدِينِهِ سَائِرَ الأدْيَانِ وَقَمَعَ بِهِ كُلَّ كَفُور. وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلاةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ النُّشُور.

وَبَعْدُ فَإِنَّ بَعْضَ مَنْ يَتَعَّينُ عَلَيَّ امِتثَالُ أَمْرِه. وَيَجِبُ عَلَيَّ الانْقِيَادُ إلى مُوَالاتِهِ وَبِرِّه. التَمَسَ مِنِي تَعْلِيقَ مَا وَقَعَ إِلَيَّ مِنْ ذِكْرِ أُمَرَاءِ حَلَبَ وَوُلاتِهَا. وَمُلُوكِهَا وَرُعَاتِهَا. فَسَارَعْتُ إلى تَحْصِيلِ غَرَضِه. وَقُمْتُ مِنْ تلبيتهِ بِمُفْتَرَضِه. وَعَلَّقْتُ في هذِهِ الأوْرَاقِ ذِكْرَ مَنْ مَلَكَهَا مِنَ الْوُلاة. وبعض مَنْ عَثَرْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْوُزَرَاءِ والْقُضَاة.

وأَضَفْتُ إلى ذَلِكَ ذِكْرَ مَنْ بناها في قَدِيمِ الزَّمَان. وَمَعْنَى اسْمِهَا الْمُخْتَصَّةِ هِيَ بهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبُلْدَان.

وَرَسَمْتُهُ: «بزبدة الحلب من تاريخ حلب»؛ لأَنَّهُ مُنْتَزَعٌ مِنْ تاريخي الكبير للشهباء. الْمُرَتَّبِ عَلَى الْحُرُوفِ وَالأسْمَاء.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى سِوَاي. وَأَنْ أَبْلُغَ مِنْ عَفْوِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ نِهَايَةَ سُؤْلِي وَأَقْصَى مُنَاي. وَبِاللهِ أَسْتَهْدِي. وَإِلَى فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَسْتَعْدِي.

وَأَقُول:

اسم حلب عربيّ لاشك فيه[1]. وكان لقباً لتل قلعتها[2]. وإنّما عُرف بذلك لأن إبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ كان إذا اشتمل من الأرض المقدّسة؛ ينتهي إلى هذا التلّ فيضع به أثقاله، ويبث رعاءَهُ إلى نهر الفرات

---

١ ـ حلب مدينة عربية موغلة بالقدم، قامت على ضفة نهر قويق اليسرى، وسط منطقة زراعية، تنتج الحبوب والزيتون، في موقع استراتيجي هام جدا، فقد شكلت صلة وصل بين بلاد الشام وبلاد مابين النهرين والهضبة الايرانية والبلدان الآسيوية الشرقية، من جهة الشرق وآسية الصغرى فأوربا الشرقية من جهة الشمال، وشواطىء البحر المتوسط من جهة الغرب. حافظت على اسمها دونما تبديل، فقد وردت في نصوص ماري باسم حالاب، وخلاب وخالايا وحلبا، وفي النصوص المصرية القديمة خرب، وفي رسائل تل العمارنة حلب، وفي نصوص أوغاريت حلب، وفي النصوص الآرامية الصيغة نفسها، ووردت في النصوص الحثية باسم خلب وخالاب وحلباس، وسماها الهلنستيون بيروا، واستردت اسمها الأصيل بعد الفتح العربي، وتعاظمت مكانتها فكانت حاضرة الشمال الشامي، وشغلت دوما أهم الأدوار السياسية والحضارية والاقتصادية، وتميزت بتل قلعتها وبنشاط سكانها وعبقريتهم وامكاناتهم المتميزة.

٢ ـ هناك اجتهادات جعلت إبراهيم الخليل من ايبلا، وهنا يمكن ربطه بتاريخ مدينة حلب، ولانقيم وزنا للدعاوى الصهيونية التوراتيه بشأن الانتماء إلى إبراهيم الخليل، فبنو اسرائيل اندثروا منذ عدة آلاف من السنين، وماورد بالتوراة من معلومات تاريخية لم تثبته أعمال الكشف الأثري، والصهاينة الذين جاءوا من أوربا هم من أصل خزري.

وإلى الجبل الأسود[1]. وكان مقامه بهذا التلّ يحبس به بعضَ الرّعاء؛ ومعهم الاغنام، والمعز، والبقر. وكان الضُّعفاء إذا سمعوا بمقدمه أَتوْهُ من كُلّ وجهٍ، من بلاد الشمال. فيجتمعون مع من اتبعه من الأرضِ المقدسة، لينالوا من برّه؛ فكان يأمر الرِّعاء بِحَلْبِ ما معهم طَرَفي النَّهار. ويأمرُ ولدَهُ وعبيدَه باتخاذ الطَّعام فإذا فرغ له من ذلك أَمر بحمله إلى الطرق المختلفة بازاء التلّ، فيتنادى الضّعفاء: «إنَّ إبراهيمَ حَلَبَ»، فيتبادرون إلَيْهِ.

فنُقِلتْ هذه اللَّفظةُ كما نُقل غيرُها، فصارت اسماً لتلّ القلعة. ولم يكن في ذلك الوقت مدينة مبنيَّة.

قيل: إنَّ «بيتَ لاها»[2] كان يقيم به أَيضاً إبراهيمُ ـ صلَّى الله عليه ـ ورعاؤه تختلف إليه. وكان يفعلُ فيه أيضاً، كما يفعل في تلّ القلعة. لكنَّ الاسمَ غلب على تلّ القلعة دون غيره.

---

١ ـ «جبل دون اللكام من شرقيه، ويقال إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان إذا أقام بحلب يبث رعاءه إليه ليرعوا غنمه فيه، وفيه أشجار كثيرة غير مثمرة» بغية الطلب لابن العديم ـ تحقيقي ط. دمشق ١٩٨٨ ص٤٣٨ ، والمراد هنا جبال الأمانوس.

٢ ـ بهامش الأصل: «وبيت لاها هذا المشار إليه هو جبل اللكام، ويقال له بيت لاها الغربي وبيت لاها الشرقي هو ليلون، ويقال لكل منهما الغربي».

وفي بغية الطلب ص٤٢٠ لدى الحديث عن جبل سمعان قال ابن العديم: «وفي وسط هذا الجبل جبل عال شاهق على الجبال التي حوله، يقال له بيت لاها، وهو بيت لاها الشرقي، لأن جبل اللكام يقال له بيت لاها الغربي، ومعناه بالسريانية بيت الله، ويقال إن إبراهيم عليه السلام لما هاجر إلى الشام، كان يرعى غنمه من أرض حلب إلى بيت لاها، ويقال لما حوله من الجبال جبل ليلون، وقيل فيه لولون».

وقيل: إنَّ إبراهيم ـ صلى الله عليه ـ لَمَّا قطع الفراتَ من حَرَّان[1] أَقام ينتظر ابنَ أخيهِ «لوطا»، في كثير مِمَّنْ يتبعُه في سنةٍ شديدةِ المحل. وكان الكنعانيون يأتُون إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ بأبنائهم فيهبونهم منه؛ ويتصدَّقُ عليهم بأقواتهم من الطَّعام، والغنم. وصار إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ إلى أرضِ حَلَبَ فاتخذ الركايا، وكرا الأعين؛ ومنها: عينُ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ وهي التي بَنِيَتْ عليها مدينةُ حلب.

وكان للكنعانيين بتلّ القلعة في رأْسِهِ بيتٌ لِلصَّنم؛ فصار إليه ابراهيم ـ عليه السلام ـ فأخرج الصَنَمَ؛ وقال لِمَنْ حضره من الكنعانيين: أدْعُوا إلهَكُمْ هذَا أَنْ يكشف عنكم هذه الشّدةَ. فقالوا: وهَلْ هو إلا حجر؟ فقال لهم: فإنْ أَنا كشَفْتُ عنكم هذه الشّدَّةَ، ما يكونُ جزائي؟ فقالوا له: نعبُدُك فقال لهم: بل تَعْبُدُون الَّذي أَعْبُدُ؛ فقالوا: نعم.

فجمعهم في رأس التلّ؛ ودعا الله، فجاء الغيثُ. وضرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ برأس ظِلِّهِ حين أَقَلَع الغيثُ. وتوافتْ إليه رعاؤُهُ؛ فكان يأمرُ أصحابه بإصلاحِ الطَّعام، ويضعُه بَيْنَ أوعيةِ اللَّبَن؛ ويأمر بعضَهم فيُنَادي: «ألا إنَّ إبراهيمَ قَدْ حَلَبَ فَهَلِمُّوا» فيأتُونَ مِنْ كلِّ وجهٍ، فيطعمون، ويشربون، ويحملون مابقي إلى بيوتهم. فكان الكنعانيون يُخبرون عن مقام

---

١ ـ حران الآن قرية مهملة داخل الحدود التركية، قريبة من أطراف محافظة الرقة، وكانت دوما من أهم مدن بلاد الشام لاسيما في الجوانب الفكرية والعقائدية.

إبراهيم بما كان يفعله. وصار قولهم «حَلَبَ» بِطُولِ هذا الاستعمال لقباً لهذا التلّ؛ فلما عمرت المدينة تحته سميت باسمه.

وذكر بعضُهم: أنها إنما سميت «حلب» باسم من بناها، وهو: حلب بن المَهْرْ بن حيص بن عمليق من العمالقة. وكانوا إخوة ثلاثة: بردعه، وحمص، وحلب؛ أولاد المهر. فكلٌّ منهم بنى مدينة سميت باسمه.

وكان اسم حلب باليونانية «باروا» وقيل «بيرؤأا».

وذكر ارسطاطاليس[1] في كتاب الكيان[2]: أنه لما خرج الاسكندر لقصد دارا الملك، ومقاتلته، كان ارسطاطاليس في صحبته؛ فوصل إلى حلب ـ وهي تُعرف بلسانِ اليونانية «بيرؤأا» ـ فلما تحقَّق أرسطوطاليس حالَ تُرْبَتها، وصِحَّةَ هوائها، استأذن الإسكندر في المقام بها، وقال له: إنَّ بي مرضاً باطناً، وهواءُ هذه البلدةِ موافقٌ لِشفَائي. فأقام بها فزال مرضه.

وقيل: إنَّ الذي بنى مدينة حلب أولاً مَلِكٌ من ملوك الموصل يقال له:

---

١ ـ لأرسطو ترجمة وافية في بغية الطلب ص١٣٤١ ـ ١٣٤٥ .

٢ ـ قال ابن العديم في بغية الطلب أثناء الحديث عن كتب أرسطو: «وأما الكتب التي في العلوم الطبيعية فمنها مايتعلم منه الأمور التي تخص كل واحد من الطبائع، فالأمور التي يتعلم منها الأمور التي تعم جميع الطبائع وهو كتابه المسمى «بسمع الكيان» فهذا الكتاب يعرف بعدد المبادىء لجميع الأشياء الطبيعية، وبالأشياء التوالي للمبادىء. وبالأشياء المشاكلة للتوالي، فأما المبادىء فالعنصر والصورة، وأما التوالي فالزمان، وأما المشاكلة للتوالي: فالخلاء، والملاء، وما لانهاية له...».

بلوكوس الموصلي[1]. ويسميه اليونانيون: «سردينبلُوس». وكان أول ملكه في سنة ثلاثة آلافٍ وتسعمائة وتسع وثمانين سنة لآدم ـ صلوات الله عليه ـ وملك خمساً وأربعين سنة. وفي سنة تسع وعشرين من ملكه وهي سنة أربعة آلاف وثماني عشرة سنة لآدم، ملكت ابنته «أطوسا» المسماة «سميرم»[2] مع أبيها بلوكوس.

وذكر أبو الرَّيْحان البيروني[3] في كتاب القانون المسْعُودِيّ، وقال: بُنَيتْ

١ ـ نقل ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة ـ ط. دمشق ١٩٨٨ ق١ ج١ ص٤٢ : «قال كمال الدين ابن العديم: قرأت في الكتاب الجامع للتاريخ، المتضمن ذكر مبدأ الدول، ومنشأ الممالك، ومواليد الأنبياء، وأوقات بناء المدن، وذكر الحوادث المشهورة، مما عني بجمعه أبو نصر يحيى بن جرير الطبيب، التكريتي النصراني، من عهد آدم إلى دولة بني مروان، ونقلت ذلك من خطه قال: ذُكر أن في دولة المواصلة أن بلوكوس الموصلي ملك خمساً وأربعين سنة، وأول ملكه في سنة ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسع وثمانين لآدم عليه السلام، قال: كان في سنة تسع وعشرين من ملكه، وهي سنة أربعة آلاف وثماني عشرة لآدم ملكت أطوسا المسماة سميرم مع بلوكوس أبيها، وبلوكوس هذا هو الذي يسميه اليونانيون سردنيبلوس، وهو الذي بنى مدينة حلب».

٢ ـ هي سميراميس، بطلة أسطورة آشورية انتشرت في ايطاليا وبلاد الاغريق، قيل كانت أمها دير كيتو ربة عسقلان التي كانت تجمع بين وجه امرأة جميلة وجسم سمكة. انظر تفاصيل الاسطورة في معجم الأساطير اليونانية والرومانية لسهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، ط. دمشق ١٩٨٢ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

٣ ـ البيروني هو أبو الريحان محمد بن أحمد [٣٦٢ ـ ٤٤١هـ/٩٧٣ ـ ١٠٥٠] كان قد عاش في البلاط الغزنوي، بعد سقوط الدولة السامانية، وصنف بالعربية في الجغرافية، والفلك، واللغة والفلسفة، انظر كتابي مائة أوائل من تراثنا ـ ط. دمشق ١٩٨٩ ص٤٩٦ ـ ٤٩٩ .

حلب في أيام بلقورس[1] من ملوك نينوى، وكان ملكُه لمضي ثلاثة آلاف وتسعمائة واثنتين وستين سنة لآدم ـ عليه السلام ـ ومدة مقامه في المُلْك ثلاثون سنة.

وشاهَدْتُ على ظهر كتاب عتيقٍ من كُتُب الحلبيين بخطّ بعضِهم: رأيتُ في القنطرة الَّتي على باب أنطاكية، من مدينة حلب، في سنة عشرين وأربعمائة للهجرة كتابةً باليونانية، فسألتُ عنها، فحكى لي أبُو عبد الله الحسينُ بن إبراهيمَ الحسيني الحرَّانيّ ـ أيده الله ـ أَنَّ أبا أسامةَ الخطيبَ بحلب حكى له: أنَّ أباه حدَّثَهُ: أنه حضر مع أبي الصَّقر القبيصي، ومعهما رجلٌ يقرأ باليونانية، فنسخوا هذه الكتابة وأَنْفَذَ إليَّ نُسْخَتَها في رقعة وهي:

«بُنيتْ هَذِهِ المدِينَةُ، بَنَاهَا صَاحِبُ الْموصِلِ، والطَّالعُ العقرب والمشتري فيه، وعطارد يليه، ولله الحمد كثيراً».

وهذا يدل على ماذكرناه، وهو أن بلوكوس الموصلي هو الذي عمرها. وكان قبل الاسكندر.

وذكر يحيى بن جرير التكريتي[2] في كتاب له ضَمَّنَه أوقاتَ بناء المدن،

١ ـ نقل ابن شداد عن ابن العديم قوله: «وبلقوريس هذا هو بلوكوس الذي قدمنا ذكره، غير أن هذه الأسماء الأعجمية لايكاد المسمون لها يتفقون فيها على صورة واحدة لاختلاف السنتهم». الأعلاق الخطيرة ق١ ج١ ص٤٤.

٢ ـ أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي، شهر بصناعة الطب، توفي بعد سنة ٤٧٢هـ، وصنف عدة كتب. عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ـ ط. القاهرة ١٣٠٠هـ ج١ ص٢٤٣.

مايدل على أن حلب بعد بناء بلوكوس خربت، وجدد عمارتها غيره، بعد موت الاسكندر فانه قال بعد ذكر دولة الاسكندر وموته باثنتي عشرة سنة: «بَنَى سلوقوس[1] اللاذقية، وسلوقية، وأفامية، وبارُوّا وهي حلب، واداسا وهي الرُّها؛ وكمَّلَ بناء أنطاكية وزْخرَفَها وسمَّاها على اسم ولده انطيوخوس وهي أنطاكية، وكان شرع في بنائها قبله أنطيغنوس في السنة السادسة من موت الاسكندر. وذكر أنه بناها على نهر أورنْطِس وسماها: «انطوغينا» .

وقال: «كان الملك الأول على سوريا، وبابل، «سلوقوس نيقطور»[2] وهو سرياني؛ وملك في السنة الثالثة عشرة لبطلميوس ابن لاغوس، بعد موت الاسكندر؛ وألْزَمَ اليهودَ أن يُقيموا في المدن التي بناها وقرّر عليهم الجزية» .

وسوريا هي الشام الأولى وهي: حلب وما حولها من البلاد[3] ـ على

١ ـ الاشارة هنا إلى سلوقس الثاني كالينيكوس ملك سورية وبابل ابن أنطيوخوس الثاني، خاض عدة حروب وتوفي سنة ٢٢٦ق.م. الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ كان سلوقس نيكاتور [ت ٢٨٠ ق.م] من أبرز قادة الاسكندر المقدوني، أسهم في حروب خلفاء الاسكندر وملك سورية وبابل، وتولى تأسيس عدد من المدن، وسعى إلى التشبه بالاسكندر، وبعد وفاته خلفه أنطيوخوس الأول. الموسوعة العربية الميسرة.

٣ ـ كانت بلاد الشام مقسمة في عصور ما قبل الفتح العربي الاسلامي إلى عدة مناطق إدارية هي:

١ ـ سورية وقد انقسمت إلى قسمين هما:

أ ـ سورية الأولى ومركزها أنطاكية، ومن مدنها الرئيسة: سلوقية، واللاذقية، وجبلة وحلب.
=

ماذكره بعض الرواة ـ وفي طرف بلد حلب، بناحية الأحص، مدينةٌ عظيمةٌ، وبها آثار قديمة، يقال لها سورية وإليها يُنْسَبُ القلى السورياني، فلعلَّ الناحية كلّها ينسب إليها، ويطلق عليها اسمها، كما أُطلق بعد ذلك على جميع الكورة اسم قنسرين.

وقال بعضُ المؤرّخين من المسيحية: الذي ملك بعد الاسكندر بطليموسُ الأريب[1] وهو الذي بنى مدينة حلب، وسماها «أشمونيت»: وذلك

= ب ـ سورية الثانية، أو سورية المجوفة، ومركزها مدينة أفامية، وتبع لها: حماة، والرستن، وشيزر.

فينيقيا، وقسمت بدورها إلى قسمين هما:

أ ـ فينيقيا الأولى ومركزها صور، والمدن الرئيسة في هذا القسم: عكا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وأرواد.

ب ـ فينيقيا الثانية المواجهة للبنان، ومركزها دمشق، وضمت حمص وتدمر.

فلسطين وقد قسمت إلى:

أ ـ فلسطين الأولى، ومركزها قيسارية، وكانت تضم القدس ونابلس،ويافا، وغزة وعسقلان.

ب ـ فلسطين الثانية ومركزها بيسان، ومدنها الرئيسة جدرة وطبرية.

ج ـ فلسطين الثالثة، ومدينتها الرئيسة البتراء.

Palestine under the muslims, P28.

١ ـ كان بطليموس الأول (سوتر) المنقذ واحدا من كبار قادة الاسكندر الأكبر، أقيم عقب وفاته واليا على مصر، عمل على تفكيك عرى الامبراطورية المقدونية، وأسس في مصر حكم أسرة البطالمة، اعتنى بالاسكندرية وود جعلها عاصمة الحضارة الاغريقية، جعل عبادة الاسكندر ديانة رسمية وهي العبادة التي تطورت إلى عبادة أسرة البطالمة، وحمل بعض ألقاب الفراعنة، أشرك ابنه بطليموس معه بالحكم قبل وفاته، وكانت وفاته سنة ٢٨٢/٢٨٣ ق. م.
الموسوعة العربية الميسرة.

أنه اختار بناء المدينة في موضع، وأراد أن يكون بها الماء، فخرج ودار حولها، حتى رأى الأعين التي «بحيلان»[1]؛ فأمر المهندس أن يبني عليهنَّ بناءً، ويحكمه، وأن يجريَهُنَّ إلى المكان الذي هو مرسوم بمنزلة الملك. وجمعَ الناسَ للعمل في عمارة المدينة، فاحتفر في وسط المدينة حفيرة بثقها إلى النهر الذي أجراه؛ وأمر بالقساطل أن تعمل فاختلَّت، فاتخذت من الحجارة؛ فتمَّ ما أراد وبنَى به بناءً في موضع الريحانيين يومنا هذا؛ واتخذ عليه قصراً، وبنى المدينة. وآخر مابناه «باب أنطاكية» ورتّب فيها ابنته «أشمونيت»؛ وسمَّى المدينةَ باسمها وأضافَ لها جُنداً وزوجَّها «بإيلياوس»، أحد أبناء ملوكهم؛ وكان قائد جيش الأريب؛ وصار إلى أنطاكية؛ وليست من بناء اليونان فإنَّ رسمّها قديم؛ فتمم بناءها، وأضافها إلى إيلياوس زوج أشمونيت[2].

وملك الأريب تسعاً وعشرين سنة. وملك بعده ابنه بطليموس، ولقب باليونانية: «محب أخته»[3]؛ وكانت أخته أشمونيت نائبة عنه؛ فبقي في

١ ـ حيلان: قرية بهضبة حلب، تبعد عنها ٨كم نحو الشمال، تصلها بحلب طريق مزفتة، وهي تتبع اداريا قرى مركز ومنطقة جبل سمعان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ لم يهتم البطالمة باعمار الجزء الجنوبي الذي حكموه من سورية، وعلى عكسهم كانت الدولة السلوقية،حيث يبدو أن سلوقس قام بالدور الرئيسي في هذا المجال، فإليه تنسب المدن الأربع: أنطاكية، وأفامية، وسلوقيا، ولاذقية. مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية ـ ط. عمان ١٩٨٧ ص٣٦ ـ ٤١ .

٣ ـ وقعت حلب في ظل حكم البطالمة وهم: بطليموس الثاني محب أخته (٣٠٨ ـ ٢٤٦ ق.م) وقد جاء بعد بطليموس،وحافظ على استقلال مصر وخلفه بطليموس الثالث الخير [يورجتيس] [٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م] وجاء من بعده بطليموس الرابع [فيلوباتور] المحب لأبيه، وخلفه بطليموس الخامس [٢٠٣ ـ ١٨٠ ق.م] وجاء بعده بطليموس السادس [فيلومنور]

الملك ستاً وعشرين سنة. وملك بعده ابنه بطليموس الاورجاتيس [ولُقِّب باليونانية بالفاعل فبقي في الملك أربعاً وعشرين سنة. وملك بعده بطليموس فليفاطر] ولقّب باليونانية محب أبيه، وأشمونيت وزوجها وولدها يتولون حلب. وملك بعده «بطليموس محب أمه»[1] وهو ابن أشمونيت وكان ينزل حلب، وعَمَّر على صخرتها قلعةً، وحصّنها، فخرج عليه في آخر أيامه «انطياخوس» ملك الروم؛ واستنجد عليه فلم يكن لمحب أمه به طاقه، فخرج عنها مع أمه، فأسرهما أنطياخوس، وعذبهما، واستصفى أموالهما، وشرع في هدم ماجدَّدت أشمونيت من بناء حلب. فقيل له إنَّ الذي يفعله ليس من عادة الملوك، فكفَّ عن هدمها؛ وتوَّعد من يسكن بحلب، فصار الناس إلى غيرها. وعاد إلى أنطاكية فاستحدث بها أبنية لنفسه. فلذلك يزعم قومٌ أن أنطاكية من بنائه، وليس الأمر كذلك؛ وإنما له فيها مثل ما لبطليموس الأريب من التتميم. ويقال: إن أشمونيت وهي حلب تجاوزت عمارتها مارسمه الأريب، حتى صارت العمارة إلى جميع الجوانب. وقيل: إن أشمونيت نصبتْ حواليها مائة ألف نصبة من الزيتون، ومن التين مائة ألف نصبة وغير ذلك من الأشجار الجبلية الشامية. ولم يبق بحلب موضع ينسب إلى أشمونيت غير العين المعروفة بأشمونيت. وماتت أشمونيت وولدها في أسر أنطياخوس تحت العقاب.

---

١ - المحب لأمه [١٨٠ ـ ١٤٥ ق.م] وكان في السابعة من عمره، فتولت الوصاية عليه أمه كليوبترا الأولى، وبعد وفاتها غزا أنطيوخوس الرابع [١٧٠ ق.م] مصر. الموسوعة العربية الميسرة.

وقيل هوالذي بنى قنسرين، وأجرى الماء إليها في قناة من عين المباركة، وقيل: بناها غيرهُ، وعرف انطياخوس ببطليموس الرابع.

وقيل: إنَّ أشمونيت حال محاربتها أنطياخوس أتتها نجدة من مصر، فهزمته فصار إلى الشرق فمات.

ثم ملك حلب بعد أشمونيت «بطليموس ابيفانيس»[١] وهو قائد العسكر؛ وفي زمانه اشترت اليهود منه موضع القلعة المعروفة اليوم بقلعة الشريف فتحصَّنُوا بها؛ وكانوا يعينون الملك في القتال ويحملون له الأموال.

ثم ملك بعده بطليموس فيلو بطر[٢]، وهلك انطياخوس في أيامه. ثم ملك بعده جماعة من ملوك اليونان؛ إلى أن صار الملك إلى القياصرة ملوك الروم؛ فملك منهم عدة ملوك إلى أن ملك أوغسطس قيصر بن مويوخس، فاستولى على الدنيا، وقهر الملوك، وقصد مصر ليستولي عليها، فلما بلغ حلب وكان أمره قد عظم، قال: إنَّ بطليموس الأريب لم يرْضَ أن ينزل منزلاً لغيره. فسار إلى موضع مدينة قنسرين فأمر القواد أن يأمروا من قبلهم بتحويط منازلهم، وأخذ كلٌّ واحد ببناء ما حوَّطه، فبنى قنسرين وسمَّاها «مدينة العسكر»[٣]. ونقل الأسواق من حلب إليها، ولم يبق بحلب إلا مَنْ لا

١ ـ كذا، وبطليموس أبيفانس هو الرابع [٢٠٣ ـ ١٨٠ ق.م] في أيامه فقدت مصر امبراطوريتها. الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ هذا بطليموس الرابع ـ المحب لأبيه، وسلفت الاشارة إليه.

٣ ـ تبعد بقايا قنسرين عن حلب ٧كم ويضم الموقع تلاً فيه بقايا مدينة مسورة، هذا وكان يطلق على المنطقة مابين العاصي والفرات اسم خالدين Chalcidene وكانت قنسرين Chalcis حاضرة هذه المنطقة. A classical Dictionary, London 1866.

حاجة للعسكر به. وكانت هذه أعظم من فعل انطياخوس. وقيل: إنه أمر أن ينفق على القناة إليها فأنفق نائبه مالاً على القناة، وأجرى الماء فيها من عين المباركة، وساقها إلى القناطر إلى قنسرين؛ وبنى بها ثلاث برك على شكل المثلث، وفايضها ينحدر إلى الأرضين التي تحتها.

وصار الملك بعده إلى جماعة من القياصرة ملوك الروم. وصارت أنطاكية دار الملك، وبها مقام ملوك الروم؛ وكانوا يدعونها مدينة الله، ومدينة الملك، وأم المدن، لأنّها أول بلد ظهر فيه دين النصرانية[1]. ومعظم سور مدينة حلب من بناء الروم.

وملك منهم ملك يقال له: فوقاس[2] فسفك الدماء، وتتبع حاشية كسرى، فقتلهم؛ فتوجه كسرى أنو شروان إلى الشّام فافتتح حلب، وأنطاكية، ومنبج، ورمَّ ما استهدم من سور مدينة حلب بالقرميد الكبار، وهو ظاهر في سور المدينة الكبير، فيما بين بابي اليهود والجنان. وجدَّد كسرى بناء منبج وسمّاها منبه؛ وهو بالفارسية: أنا اجود، فعرّبتْ فقيل منبج.

واستحسن أنطاكية فلما عاد إلى العراق بنى مدينة على صورتها، وسماها ريد خسره، وهي التي تسمى رومية، وأدخل إليها سبي أنطاكية، فقيل إنهم

١ ـ في هذه العبارة دقة كبيرة، فبعد ما نجح بولس الرسول (شاول) في مزج تعاليم السيد المسيح بالغنوصية، بات اسم العقيدة الجديدة النصرانية، وعلى هذا قال بولس لأتباعه في أنطاكية إثر نجاحه: أنتم آخر الجليليين وأول النصارى. انظر الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ وصل فوقاس إلى عرش الامبراطورية البيزنطية سنة ٦٠٢م، إثر مقتل الامبراطور موريس، وقد عزل سنة ٦١٠م من قبل هرقل الذي قدم من قرطاج ونصب نفسه امبراطورا.

لم ينكروا من منازلهم شيئاً فانطلقوا إليها إلا رجل اسكاف، كان على باب داره بأنطاكية شجرة فِرْصَاد[1]، فلم يرها على بابه ذلك؛ فتحيَّر ساعة؛ ثم دخل الدار، فوجدها مثل داره.

ولما عاد كسرى عن الشام، قام هرقل بن فوق بن مروقس وجمع بطارقة الروم، وأولي المراتب؛ وذكر لهم سوء آثار فوقاس ملك الروم؛ وغلبة الفرس على ملكهم بسوء تدبيره، وإقدامه على الدماء؛ ودعاهم إلى قتله فقتلوه؛ ووقع اختيارهم على هرقل فملَّكُوه.

وفي أول سنة من مُلكه كانت هِجرة نبيِّنا مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وسلَّمَ ـ من مكة إلى المدينة[2]؛ واستولى على حلب، وعلى جميع البلاد، التي استولى عليها أنو شروان وكان جلّ مقامه بأنطاكية.

فلما افتتح المسلمون أجناد الشام[3]، وكانت وقعة اليرموك، وقَتَل

---

١ ـ الفرصاد شجر التوت، وتوسع ابن العديم في كتابه بغية الطلب في هذا الباب انظر ج١ ص٦٥، ٩١ ـ ٩٢، ١٠٦ ـ ١٠٧.

٢ ـ اعتلى هرقل العرش في بيزنطة سنة ٦١٠م، ويقابل سنة الهجرة الأولى سنة ٦٢٢م. انظر الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل تأليف د. ليلى عبد الجواد اسماعيل ـ ط. القاهرة ١٩٨٥ ص٦١ ـ ٧٤.

٣ ـ أشرت من قبل إلى تقسيمات بلاد الشام اداريا قبل الفتح العربي الاسلامي، وبعد الفتح قام العرب باعادة النظر في هذا التقسيم في ضوء تبدل الجغرافية السياسية لبلاد الشام. فهذه البلاد باتت جزءا من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنورة. ولم تعد تتبع روما الغربية أو الشرقية بل تعاديها. لذلك قسم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد بن معاوية قسم جند حمص إلى قسمين هما: جند حمص وجند قنسرين. =

المسلمون فيها معظَم الرُّوم، وأميرُ المسلمين عليهم أبو عبيدة بنُ الجرَّاح ـ رضي الله عنه ـ انتقل هرقل من أنطاكية، وعبر الفرات إلى «الرها»؛ وجعل بقنّسرين ميناس الملك، ـ وكان أكبر ملوك الروم بعد هرقل.

فسار أبو عبيدة بعد فراغه من اليرموك إلى حمص ففتحها؛ ثم بعث خالد بن الوليد على مقدمته إلى قنّسرين؛ فلما نزل بالحاضر زحف لهم الروم؛

= وجند دمشق، حاضرته دمشق، وفيه من الكور: بعلبك قاعدة البقاع، وحوران ومدينته بصرى، والبثنية ومدينتها أذرعات، والجولان ومدينته بانياس، وكورة الشراة ومدينتها أذرح ومناطق أخرى، على رأسها المناطق الساحلية لعرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا. وكانت الغالبية العظمى لسكان جند دمشق من العرب من قبائل أصل يماني.
وجند حمص كان يضم وسط بلاد الشام مع الشمال. من أهم مدنه حماة وشيزر وأفاميا، وتدمر ومعرة النعمان، وحلب والبارة، وقنسرين وأنطاكية، مع اللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس على الساحل، وكانت تنوخ وطيء تسكن هذه المناطق قبل الفتح وانضاف إليها بعد الفتح القبائل اليمانية التي شاركت في اليرموك وبقية المعارك.
جند الأردن وقصبته مدينة طبرية على شاطىء البحيرة التي حملت الاسم نفسه. ومن مدن هذا الجند في الداخل بيسان وفحل وجرش، وفي الساحل صور وعكا.
وجند فلسطين وقاعدته مدينة اللد ومن مدن هذا الجند القدس وعمواس ونابلس وسبسطيه وبيت جبرين.
وبات لكل جند خراجه ونواة ادارة مستقلة ووالٍ وحامية. فقد تمركزت غالبية القوات التابعة لجند فلسطين في عمواس. وآثر كبار الصحابة سكنى هذه المدينة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس.
مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه: ١٠٢ ـ ١٠٥ كتاب البلدان لليعقوبي: ٢٢٥ ـ ٢٢٧ . المسالك والممالك لابن خرداذبه: ٧٥ ـ ٧٦ ـ الأعلاق الخطيرة قسم دمشق: ٤١ . معجم البلدان مواد: عرقة. صيدا، بيروت، طرابلس. الأنس الجليل: ٢٦٦ .

وثار أهلُ الحاضر بخالد بن الوليد، وعليهم «ميناس» ـ وهو رأسُ الرُّوم وأعظمهُم فيهم بعد هرقل ـ فالتقَّوْا بالحاضر؛ فقتل «ميناسُ» وَمَنْ معه مقتلة لم يقتلوا مثلها. ومات الروّم على دمه حتى لم يبق منهم أحد.

وأما أهل الحاضر فكانوا من تنوخ، منذ أول ماتنخوا بالشّام، ونزلوه وهم في بيوت الشعر؛ ثم ابتَنوْا المنازلَ؛ فأرسلوا إلى خالد: أنهَّم عربٌ؛ وانهم لم يكن مِنْ رأيهم حربه؛ فقَتَلَ منهم، وتَرَكَ الباقين.

فدعاهم أَبو عبيدة بعد ذلك إلى الإِسلام فأسلم بعضهم، وبقي البعضُ على النصرانية؛ فصالحهم على الجزية. وكان أكثر من أَقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[1].

ويُقال: إنَّ جماعة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة المهديّ، فكتب على أّيديهم بالخضرة: قنّسرين.

ثم إنَّ خالداً سار فنزل على قنّسرين، فقاتله أهلُ قنّسرين، ثم لجؤوا إلى حصنهم، فتحصنوا فيه، فقال: «إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله عليكم أَو لأنزلكم إلينا» ثم إنهم نظروا في أمرهم، وذكروا مالقي أهلُ حمص فطلبوا منه الصلح؛ فصالحوه على صُلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة فأخرَبها.

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل ـ انظر البلدان للبلاذري ـ تحقيقي ـ ص١٧٠ ـ ١٧٢ . مغازي ابن حبيش ـ تحقيقي ـ ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ . ومفيد أن نشير إلى أن نظام الحواضر في بلاد الشام قد اندثر الآن، اللهم إلا في مدينة حماة حيث مايزال الجزء العلوي ـ الشمالي ـ منها يعرف باسم الحاضر، وتتركز علاقات هذا الجزء مع أهل البادية.

وكان صلحُ حمص على دينار وطعام على كل جريب[1] أيسروا أو أعسروا. وغلب المسلمون على جميع أرضها وقراها؛ وذلك في سنة ست عشرة للهجرة.

فتح حَلَبُ[2]

ثم إنَّ خالداً ـ رضي الله عنه ـ سار إلى حلب، فتحصن منه أهل حلب. وجاء أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ حتى نزلَ عليهم؛ فطلبوا إلى المسلمين الصلحَ والأمانَ، فقبل منهم أبو عبيدة وصالحهم، وكتب لهم أماناً[3].

ودخل المسلمون حلب من «باب أنطاكية»[4] وحفُّوا حولهم بالتراس داخل الباب؛ فبني ذلك المكان مسجداً، وهو المسجد المعروف بالغضائري، داخل باب أنطاكية، ويعرف الآن بمسجد شعيب[5].

ولما توَّجهَ أبو عبيدة إلى حلب بلغه أن أهل قنّسرين قد نقضوا فرد

---

١ ـ الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة، وقيل هو من الأرض مايساوي ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، أو عشرة آلاف ذراع. القاموس.
٢ ـ نقل هذا العنوان من هامش الأصل.
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٩ ـ ٥٨٧ .
٤ ـ عدد ابن العديم في بغيته أبواب حلب بعدما وصف أسوارها ج١ ص٥٥ ـ ٥٧ .
٥ ـ اسمه الآن جامع النوته في محلة العقبة، لم يبق من بنائه الأول إلا الجهة الغربية مع رواق. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب لمحمد أسعد طلس، ط. دمشق ١٩٥٦ ص٦٣ ـ ٦٤ .

إليهم السمط بن الأسود الكندي، فحصرهم ثم فتحها، فوجد فيها بقراً وغنماً؛ فقسم بعضَها فيمن حضر، وجعلَ الباقيَ في المغنم.

وكان حاضرُ قنّسرين [لطيء] قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزل الجبلين[١] مَنْ نَزَلَ منهم؛ فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضُهم، وصُولح كثيرٌ منهم على الجزية؛ ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا مَنْ شذَّ منهم.

وكان بقرب مدينة حلب حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم؛ فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك؛ وَجَرتْ بينهم وبين أهل حلب حربٌ أجلاهم فيها أَهلُ حلب، فانتقلوا إلى قنّسرين[٢].

وكانت قنّسرين وحلب إذ ذاك مضافتين إلى حمص فأفردَهُمَا يزيدُ بن معاوية في أيَّامه. وقيل: أفردهما معاويةُ أبوه.

ولما بلغ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مافعل خالد في فتح قنسرين وحلب، قال: أمّر خَالِدٌ نفسَهُ؛ يرحمُ الله أبا بكر، هو كان أعلمَ بالرجال منّي. يعني أنَّ خالداً كان أمير المسلمين من جهة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على الشام؛ فلما وُلّي عمر عزله وولّى أبا عبيدة[٣].

---

١ ـ الاشارة هنا إلى جبلي طيء: أجأ وسلمى انظرهما في معجم البلدان لياقوت.
٢ ـ انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٢ ـ ٥٦٤.
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧٣ ـ ٥٨٢.

ثم ولاه عمر ـ رضي الله عنه ـ على قنّسرين فأدرب خالدٌ وعياضُ بن غَنْم أَول مدربة كانت في الإسلام، سنة ست عشرة[1].

ورجع خالد، فأتته الامارة من عمر ـ رضي الله عنه ـ على قنّسرين، فأقام خالدٌ أميراً، تحت يد أبي عبيدة عليها، إلى أن أغزى هرقل أهل مصر في البحر؛ وخرج على أبي عبيدة في عساكر الروم، وأبو عبيدة بحمص بعد رجوعه من فتح حلب.

فاستمدَّ أبو عبيدة خالداً فأمدّه بمن معه؛ ولم يخلف أحداً، فكفر أهلُ قنّسرين بعده؛ وبايعوا هرقلَ وكان أكفر من هناك تنوخ.

واشتور المسلمون فأجمعوا على الخندقةِ والكتابِ إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بذلك. وأشار خالدٌ بالمناجزة فخالفوه، وخندقوا. وكتبوا إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ واستصرخوه.

وجاء الرُّومُ بمددهم؛ فنزلوا على المسلمين؛ وحصروهم. وبلغتْ أمداد الجزيرة ثلاثين ألفاً، سوى أمداد قنّسرين، من تنوخ وغيرهم؛ فنالوا من المسلمين كل منال.

وكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أَبي وقاص يخبرُهُ بذلك؛ ويأمرُه أن يبثَّ المسلمينَ في الجزيرة، ليشغلهم عن أهل حمص. وأمدَّهُ عمر ـ

---

١ ـ روى ابن العديم في بغيته ج١ ص٥٦٩ ـ ٥٧٢ . أن أول من أدرب إلى الأراضي البيزنطية كل من ميسرة بن مسروق العبسي والاشتر النخعي.

رضي الله عنه ـ بالقعقاع بن عمرو، فتوغلوا في الجزيرة؛ فبلغ الروم؛ فتقوضوا عن حمص إلى مدائنهم.

وندم أهلُ قنّسرين وراسلوا خالداً، فأرسل إليهم: «لو أن الامرَ إليَّ ما باليتُ بكم، كثرتم أم قللتم؛ لكنّي في سلطانِ غيري؛ فإن كنتم صادقين، فانفشوا كما نفش أهل الجزيرة». فساموا سائر تنوخ ذلك، فأجابوا؛ وأرسلوا إلى خالد: «إنّ ذلك إليك، فإن شئتَ فَعَلْنا وإنْ شئتَ أن تخرج علينا فننهزم بالرُّوم». فقال: «بل أقيموا؛ فإذا خرجنا، فانهزموا بهم».

فلما علم أبو عبيدة والمسلمون بذلك قالوا: «اخرج بنا»! وخالد ساكت، فقال أبو عبيدة: «مالك ياخالد، لاتتكلم» فقال: «قد عرفتَ الذي عليه رأيي، فلم تسمع من كلامي». قال: «فتكلمْ فإني أسمعُ منك، وأطيع». فأشار بلقائهم.

فخرج المسلمون والتقوهم، فانهزم أهلُ قنّسرين، والرومُ معهم فاحتوى المسلمون على الروم، فلم يفلت منهم أحد[1].

وما زال خالد على إمارة قنّسرين حتى أدربَ خالد وعياض، سنة سبع عشرة، بعد رجوعهما من الجابية[2]، مرجع عمر إلى المدينة، فأصابا أَموالاً عظيمة.

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧٦ ـ ٥٧٨ .
٢ ـ يقع تل الجابية على مقربة من بلدة نوى في حوران ـ سورية.

وقفل خالد سالماً، غانماً، وبلغ الناسَ ما أصابوا تلك الصائفة؛ وقسم خالد فيها ماأصاب لنفسه؛ فانتجعه رجال من أهل الآفاق، وكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالداً بقنسرين، فأجازه بعشرة آلاف درهم.

وكان عمر َلايخفى عليه شيء في عمله؛ فكتب إليه من العراق بخروج من خرج منها، ومن الشام بجائزة من أجيز فيها. فدعا البريد، وكتب معه إلى أبي عبيدة: أن يقيم خالداً، ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته. حتى يعلمكم من أَين أجاز الأشعث؟ أمِنْ ماله؟ أمْ مِنْ إصابة أصابها؟ فان زعم أنَّها من إصابة أصابها فقد أقرَّ بخيانة؛ وإنْ زعم أنَّها من ماله، فقد أسرف. واعزله على كل حال، واضمم إليكَ عملَه.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقَدم عليه؛ ثم جمع الناسَ؛ وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فقال: «يا خالد، أمنْ مالِكَ أجزتَ بعشرة آلاف، أم من إصابة»؟ فلم يتكلم حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئاً. فقام بلال إليه فقال: «إنَّ أميرَ المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا». ثم تناول عِمامَتَهُ، فنقضها، لايمنعه سمعاً وطاعة. ووضع قلنسوته، ثم أقامه فعقله بعمامته، ثم قال: «ماتقول أَمِنْ مالِكَ أم من إصابة»؟ قال: «لابل من مالي» فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمه بيده. ثم قال: «نسمعُ ونطيعُ لولاتنا، ونفخم ونحترم موالينا».

وأقام خالد متحيراً، لايدري أمعزول أم غير معزول. وجعل أبو عبيدة يكرمه ويزيده تفخيماً ولايخبره؛ حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذي قد كان. فكتب إليه بالوصول.

فأتى خالد أبا عبيدة فقال: «رحمك الله ماأردت إلى ماصنعت؟ كتمتَني سرّاً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم». فقال أبو عبيدة: «إني والله ماكنت لأروعك ما وجدت من ذلك بدّاً؛ وقد علمت أن ذلك يروعك».

قال: فرجع خالد إلى قنسرين، فخطب أهل عمله، وودعهم. وقال خالد: «إنَّ عمرَ ولاني الشامَ حتّى إذا أَلْقَى بَوَانِيَهُ وَصَارَ بَثْنِيَّةً[1] وعَسَلاً عزلني، واستعمل غيري».

وتحمَّل وأقبل إلى حمص فخطبهم، وودعهم. وسار إلى المدينة حتى قدم على عمر فشكاه؛ وقال: «لقد شكوتُكَ إلى المسلمين وبالله إنَّك في أمري غير مُجْمل يا عمر». فقال عمر: «من أَيْنَ هذا الثَّرَاء؟ فقال: «من الأنْفَالِ والسُّهْمَان». فقال: «مازاد على الستين ألفاً فَلَكَ». فشاطره على ما في يده وقوّم عروضَه، فخرجت عليه عشرون ألفاً؛ فأدخلها بيت المال، ثم قال: «يا خالدُ! والله إنَّك لَعَلَيَّ الكريمُ، وإنَّك إلَيَّ الحبيبُ؛ ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء». ثم إنَّهُ عوَّضه بعد ذلك عما أخذه منه[2].

واستعمل أبو عبيدة على قنسرين حبيب بن مسلمة بن مالك.

---

١ ـ بهامش الأصل: البثنية: الحنطة التي تنبت في البثنية وهي السهل. وجاء في النهاية لابن الأثير: في حديث خالد: فلما ألقى الشام بوانيه عزلني واستعمل غيري؛ أي خيره ومافيه من السعة والنعمة، والبواني في الأصل: أضلاع الصدر، وقيل الأكتاف والقوائم، الواحدة بانية.

٢ ـ لخالد بن الوليد ترجمة وافية في كتاب بغية الطلب لابن العديم، منها استخلص ماأورده هنا من معلومات ص٣١٢٠ ـ ٣١٧٣.

وأما هرقل فانه تأخر من الرُّها إلى سميساط؛ وفصل عنها إلى القسطنطينية؛ فلما فصل عَلا على شرف؛ والتفت؛ ونظر نَحْوَ سُورِية، وقال: «عليكِ السَّلامُ ياسورية سلام لااجتماع بعده؛ ولايعود إليك روميٌّ أبداً إلاّ خائفاً، حتى يولد المولود المشئوم؛ ويا ليته لايولد، ماأحلى فعله وأمرّ عاقبته على الروم.

وطُعن[1] أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ سنة ثماني عشرة؛ فاستخلف على عمله عياض بن غَنْم، وهو ابن عمه وخاله؛ وكان جواداً مشهوراً بالجود، فقال عمر: «إني لم أكن مغيِّراً أمراً قضاه أبو عبيدة».

ومات عياض سنة عشرين، فأمّر عمر ـ رضي الله عنه ـ على حمص وقنسرين سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجمحي ومات سنة عشرين. فأمّر عمر مكانه عمير بن سعد بن عبيد الأنصاري على حمص وقنسرين.

ومات عمر ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين؛ وعمير بن سعد على حمص وقنسرين؛ ومعاوية على دمشق والسواحل وأنطاكية. فمرض عمير في إمارة عثمان مرضاً طال به، فاستعفى عثمان؛ واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له.

---

١ ـ حدث في سنة ١٨هـ طاعون عرف باسم طاعون عمواس، وعمواس بلدة قرب القدس، سكن فيها عدد كبير من الصحابة، والمسلمين وقيل كان عدد الذين ماتوا من المسلمين يتجاوز الخمسة والعشرين ألفا من أبرزهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل. طبقات ابن سعد ج٧ ص٣٨٧ . الأنس الجليل ص٣٦٦ .

وضمّ حمصَ وقنسرين إلى معاوية سنة ست وعشرين؛ فاجتمع ولاية الشام جميعه على معاوية لسنتين من خلافة عثمان؛ فولى معاوية حبيب بن مَسْلَمة بن مالك الفهري على قنسرين، وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم.

ومات عثمان ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، والشام مع معاوية؛ وحبيب على قنسرين، من تحت يده.

فجرى بين علي ـ عليه السلام ـ وبين معاوية اختلاف إلى أن سار كلٌّ منهما إلى صاحبه؛ والتقيا بصفّين[1]؛ وذلك بعد سنة وشهر من خلافة عليّ، في سنة سبع وثلاثين.

وكان عليّ في تسعين ألفاً ومعاوية في مائة ألف وعشرين ألفاً[2]، وقتل بها من أصحاب علي خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً. وكان مقامهما بصفّين مائة يوم وعشرة أيام. وكانت الوقائع تسعين وقعة؛ ثم اتفقا على التحكيم؛ والتقى الحكمان أبو موسى وعمرو بن العاصِ بأَذْرُح[3] في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين.

---

١ ـ المرجح أن موقع صفين هو موقع أبي هريرة، القريب من الرقة حالياً.

٢ ـ أخبار صفين مجموعة بشكل ملحمي مفصل في كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقري، وفي الفتوح لابن الأعثم الكوفي وغيره من المصادر المبكرة، واستخلص ابن العديم جملة من الروايات المتنوعة أودعها في الجزء الأول من بغية الطلب ص٢٧٩ ـ ٣٢٠ .

٣ ـ أذرح معروفة الآن بالمملكة الأردنية.

ومات عليٌّ - كرم الله وجهه - مقتولاً بالكوفة، في سنة أربعين، ومعاوية متغلبٌ على الشام جميعه، فصالح الحسنَ بن عليٍّ - عليهما السلام - وبويع بالخلافة، في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين؛ فمصَّر معاوية قنسرين، وأفردها عن حمص، وقيل إنَّما فعل ذلك ابنُه يزيد. وصار الذكر في ولاية قنسرين، ووظَّف معاوية الخراج على قنسرين أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، وحلب للخلفاء من بني أمية لمقامهم بالشام، وكون الولاة في أيامهم بمنزلة الشرط، لايستقلون بالأمور والحروب؛ وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الإسلامية إلى دابق[1].

وأقام جماعة منهم بنواحي حلب، فإن سليمان بن عبد الملك رابط بدابق إلى أن مات. وأقام [عمر[2] بن عبد العزيز بخناصرة[3] إلى أن مات].

---

١ - دابق الآن قرية في هضبة حلب تتبع ناحية صوران، منطقة أعزاز، محافظة حلب، فيها تل أثري في شمال القرية، تنتشر عليه الكسر الفخارية، أقيم عليه ضريح الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقربها جرت المعركة الفاصلة بين السلطان المملوكي قانصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ - فقد من الأصل - كما هو مرجح - ورقة جرى استدراك مارجح أنها حوته، اعتمادا على ماجاء في مصادر التاريخ الاسلامي العامة مع كتاب الأعلاق الخطيرة لابن شداد، والجزء الأول من اعلام النبلاء للطباخ.

٣ - هي الآن خناصر، بلدة في الأطراف الجنوبية لهضبة حلب، مركز لناحية خناصر، تتبع منطقة السفيرة، محافظة حلب، تبعد عن السفيرة ٤٥كم، وهي قائمة عند نهاية السفح الجنوبي لجبل الأحص، فيها آثار ظاهر منها السور والقلعة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

[ولم يزل حبيب بن مَسلمة مع معاوية في حروبه، وقد وجهه إلى أرمينية والياً، فمات بها سنة اثنتين وأربعين. واستعمل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على غزو الروم؛ ولشدة بأسه خافه معاوية، وخشي منه؛ وأمر ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله. وضمن له أن يضع عنه خراجه ماعاش؛ وأن يوليه خراج حمص. فلما قدم عبد الرحمن من الروم دسَّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها، فمات بحمص سنة ست وأربعين.

وقاد مالك بن عبد الله الخثعمي الصوائف أَربعين سنة. وسير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم، وجعل عليهم سفيان بن عوف وأَمر يزيد ابنه بالغزاة معهم، فتثاقل، واعتلّ، فأمسك عنه أبوه. فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد، وذلك في سنة اثنتين وخمسين.

وشتا بأرض الروم بعده عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفي وغزا المسلمون الصائفة في سنة أربع وخمسين كذلك، وفتحوا قرب القسطنيطينية.

فلما مات معاويةُ سنة ستين، ووُلي ابنه يزيد أَمرَهُمْ بالعود منها فعادوا.

ومات يزيد بن معاوية بحوارين[1] من أرض الشام في سنة أربع وستين. وبويع بعده معاوية ابنه بالخلافة في الشام ولكنه لم يمكث إلا أربعين يوماً حتى خلع نفسه، ثم هلك.

---

١ ـ حوارين قرية في هضبة حمص الجنوبية الشرقية، تتبع ناحية مهين، منطقة مركز المحافظة ـ محافظة حمص، تتصل بحمص بطريق مزفتة هي طريق حمص القريتين، فيها آثار من العصور التدمرية، والبيزنطية والاسلامية، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وبويع بعده مروان بن الحكم، وذلك في سنة أربع وستين.

وتحارب مروان والضحّاك بمرج راهط[١] عشرين ليلة، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الِضحّاك، قتله دحية بن عبد الله، وقتل معه ثمانون رجلاً من أَشراف أهل الشام. وكانت الوقعة في المحرم سنة خمس وستين.

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابيّ بقنسرين هرب منها فلحق بقرقيسيا[٢]. واستوثق الشام لمروان واستعمل عماله عليها. ولما مات مروان سنة خمس وستين قام ابنه عبد الملك في اليوم الذي مات فيه.

وأقام عبد الملك بدمشق بعد رجوعه من قنسرين ما شاء الله أن يقيم، ثم سار يريد قرقيسيا، وبها زفر بن الحارث الكلابي، ثم قفل إلى دمشق فدبر لعمرو بن سعيد فقتله. واستعمل عبد الملك أخاه محمداً على الجزيرة وأرمينية فغزا منها، وأثخن العدو، وذلك في سنة ثلاث وسبعين.

وأعاد الكرة في سنة خمس وسبعين حين خرجت الروم من قبل مرعش. وبعد سنتين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك، وظل على الولاية إلى أن مات عبد الملك في شوال سنة ست وثمانين.

---

١ ـ كان الضحاك بن قيس الفهري قد بايع عبد الله بن الزبير، وتزعم القيسية في الشام، وبالمقابل قامت القبائل اليمانية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي بعقد مؤتمر الجابية، حيث بويع فيه مروان بن الحكم، واثر ذلك كانت معركة مرج راهط، شرقي بلدة جوبر، خارج دمشق، وفي هذه المعركة هزم الضحاك بن قيس، وترسخت بيعة مروان.

٢ ـ هي البصيرة حاليا (البوسرايا) حيث يلتقي الخابور بالفرات في سورية.

وولي ابنه الوليد بن عبد الملك ومحمد بن مروان على ولايته فما زال كذلك إلى أن عزله الوليد بن عبد الملك في سنة تسعين. وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك.

فدخل مسلمة حرّان وكان محمد بن مروان يتعمم للخطبة؛ فأتاه آت فقال: هذا مسلمة على المنبر يخطب! فقال محمد: هكذا تكون الساعة بغتة! وارتعدت يده، فسقطت المرآة من يده؛ فقام ابنه إلى السيف فقال: مَهْ يابني؛ ولاني أخي وولاه أخوه.

وكان أكثر مقام مسلمة بالناعورة، وبنى فيها قصراً بالحجر الأسود الصلد، وحصناً بقي منه برج إلى زماننا هذا[1].

وكان عبد الملك بن مروان يقول للوليد: كأنني - لو قد متّ - بك قد عزلت أخي وولّيت أخاك.

ومات الوليد بن عبد الملك في سنة ست وتسعين.

وولي سليمان بن عبد الملك فسَيَّر أخاه مسلمة غازياً إلى القسطنطينية واستخلف مسلمة على عمله خليفة؛ ورابط فيها سليمان بمرج دابق إلى أن مات به سنة تسع وتسعين.

وولي عمر بن عبد العزيز بن مروان، فكان أكثر مقامه بخناصرة الأحصّ. وولى من قبله على قنسرين هلال بن عبد الأعلى. ثم ولى أيضاً عليها الوليد بن هشام الْمَعيْطِي على الجند، والفرات بن مسلم على خراجها.

١ - لمزيد من المعلومات حول الناعورة انظر بغية الطلب ج١ ص٦٤.

وتوفي عمر بدير سمعان[1] من أرض معرة النّعمان، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة.

وولي يزيد بن عبد الملك، والوليد على قنسرين؛ وكان مرائياً سأل عمر أن ينقص رزقه تقرباً إليه؛ فعلم أنه إنما أراد أن يتزّين عنده بذلك؛ فحطَّ رزقه. وكتب إلى يزيد، وهو ولي عهده: «إنَّ الوليدَ بن هشام كتب إليّ كتاباً أكثر ظني أنه تزّين بما ليس هو عليه، فأنا أقسم عليك إنْ حدث وأفضى هذا الأمر إليك فسَأَلَك أَنْ تردَّ رزقَه، وذكر أَني نقصتُه فلا يَظفر منك بهذا».

فلما استُخلِفَ يزيد كتب الوليد إليه: «إنَّ عمرَ نقصني وظلمني» فغضب يزيد، وعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها؛ فلم يل له عملاً حتى هلك.

ومات يزيد بن عبد الملك بالبلقاء[2] في شعبان سنة خمس ومائة [فاستُخلف هشام بن عبد الملك][3].

وولى على قنسرين وعملها خال أخيه سليمان وهو الوليد بن القعقاع بن خُلَيْد العَبْسيّ وقيل إنَّه ولَّى عبد الملك بن القعقاع على قنَّسرين؛ وإليهم ينسب حِيارُ بني عبس[4]، وإلى أبيهم ينسب القعقاعية قرية من بلد الفايا[5].

١ ـ على مقربة من معرة النعمان أعيد ترميمه حديثاً.
٢ ـ كانت البلقاء كورة من أعمال دمشق، قصبتها عمان. معجم البلدان.
٣ ـ زيد مابين الحاصرتين لاستقامة السياق.
٤ ـ هي أشهر باسم حيار بني القعقاع، وكانت أيضاً تعرف باسم كورة قنسرين الثانية. بغية الطلب ج١ ص١٢٥ .
٥ ـ الفاية كورة بين منبج وحلب كبيرة. معجم البلدان.

وتوفي هشام سنة خمس وعشرين ومائة.

وولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت بينه وبين بني القعقاع وحشة، فهرب الوليد بن القعقاع وغيره من بني أبيه من الوليد، فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك. فولى الوليد على قنّسرين يزيد بن عمر بن هبيرة؛ وبعث إلى الوليد بن القعقاع، فأخذه من جوار قبر أبيه؛ ودفعه إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، وهو على قنسرين، فعذبه وأهله. فمات الوليد بن القعقاع في العذاب.

وخرج يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد، فقتله في «البَخْرَاء»[1] في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. ووثب على عامله بدمشق فأخذه، وسيّر أخاه مسرور بن الوليد، وولاه قنّسرين؛ وقيل بل ولي قنسرين أخوه بشر بن الوليد. وبويع يزيد، ومات في ذي الحجة من هذه السنة.

وبويع ابراهيم بن الوليد؛ وخلع في شهر ربيع الأول، سنة سبع وعشرين ومائة.

فولِيَ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكان بحرّان[2]، فسار منها

١ ـ البخراء: مدينة أثرية في البادية، ناحية مركز ومنطقة تدمر. محافظة حمص تقع إلى الجنوب من مدينة تدمر، وعلى بعد ٢٥ كم، اشتق اسمها من البخر، وهي الرائحة النتنة الصادرة عن الينابيع الكبريتية، أثارها تدل على أنها كانت مدينة محصنة أبعادها ٢٠٠×١٦٠م، يحيط بها سور من الحجارة المنحوتة بعرض ٣م، مدعم بأبراج نصف دائرية، يتجه بابها نحو الجنوب الشرقي، ويحيط به برجان مستديران وفي وسطها باحة ذات أعمده، تيجانها كورنثية، بناها التدمريون، واتخذوها محطة رئيسة للقوافل. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ حران الآن قرية مهملة داخل الحدود التركية مع محافظة الرقة السورية.

في سنة سبع وعشرين ومائة. ونزل بحلب؛ وقبض على مسرور بن الوليد الوالي بحلب، وعلى أخيه بشر، بعد أن لقيهما فهزمهما وقتلهما بحلب. وكان معهما ابراهيم بن عبد الحميد بن عبد الرحمن، فقتله أيضاً.

واستتب أمر مروان. وخرج على مروان سليمان بن هشام بن عبد الملك فالتقاه مروان بن محمد بخُساف[1] فاستباح عسكره في سنة ثمان وعشرين ومائة.

وكان الحكم وعثمان ابنا الوليد بن يزيد حبسا بقلعة قنسرين؛ وكان يزيد بن الوليد حبسهما؛ فنهض عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري؛ فقتلاهما وقتلا معهما يوسف بن عمر الثقفي بقنسرين؛ وأُخذا بعد ذلك فقتلهما مروان وصلبهما.

---

١ ـ برية خساف: المنطقة القائمة بين بالس ـ مسكنة حاليا ـ وحلب، وبين بالس وبين انقضاء برية خساف خمسة عشر ميلا. بغية الطلب ج١ ص٦٣ ـ ٦٤.

[ابتداء دولة العباسيين]

وبُويع أبوالعباس السفاح[١]، في شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بالكوفة، فسيّر عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبَّاس، في جمع عظيم، للقاء مروان بن محمد؛ وكان مروانُ في جيوشٍ كثيفة، فالتقيا بالزَّاب[٢] من أَرض الموصل، في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة. فهزم مروانَ واستولى على عسكره؛ وسار مروانُ منهزماً حتى عبر الفرات من جِسْرِ مَنْبج[٣] فأَحرقه.

فلما مرَّ على قنّسرين وثبتْ به طي وتنوخ، واقتطعوا مؤخرة عسكره ونهبوه، وقد كان تعصّبَ عليهم؛ وجفاهم أيام دولته، وقتل منهم جماعة.

وتبعه عبد الله بن عليّ؛ وسار خلفَه، حتى أتى منبجَ، فنزلها. وبعث إليه أَهلُ حلب بالبيعة مع أَبي أُميَّة التغلبي.

١ ـ بهامش الأصل بخط مخالف: ابتداء دولة العباسيين سنة ١٣٢ . ومنه استعير عنوان هذه الصفحة .

٢ ـ الزاب الأعلى نهر بين الموصل وإربل. معجم البلدان.

٣ ـ جسر منبج: مدينة صغيرة لها زرع سقي ومباخس، وماؤها من الفرات، حصينة، وزروعها سقي، نزهة ذات مياه وأشجار، وهي قريبة من الفرات. بغية الطلب ج١ ص١٠٨ .

وقدم عليه أَخوهُ عبد الصَّمد بنُ عليّ؛ فقلَّدهُ حلبَ وقنسرينَ. وسار عبدُالله وعبدُ الصَّمد أخوه معه إليها، فبايعه أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ـ وكان من أَصحاب مروان ـ وَدَخل فيها دَخَل فيه الناسُ من الطاعة.

وسار عبدُالله إلى دمشقَ، ثم بلغ خلفَه إلى نهرِ أَبي فُطْرُس[1]، وأَتْبَعَهُ بأخيهِ صالح، حتّى بلغ إلى الديار المصرية، خلف مروان بن محمد، فأدركه ببوصير[2] فقتله؛ ثم عاد إلى دمشق بعده.

وذكر ابن الكلبي: وقدم بالسَّ قائدٌ من قُوَّادِ عبدِ الله بنِ عليّ، في مائة وخمسين فارساً؛ وتقدّم إلى الناعورة فعبث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم ـ وكانوا مجاورين أَبا الورد بحصن مسلمة بالناعورة وببالس ـ فشكا بعضُهم ذلك إلى أَبي الورد الكلابي، فخرج من مزرعته خُسَاف في عدة من أَهل بيته؛ وخالف وبيّض؛ وجاء إلى الناعورة، والقائد المذكور نازل بحصن مسلمة بها؛ فقاتله حتى قتله ومن معه؛ وأَظهر الخلع والتبييض[3]؛ ودعا أَهل حلب وقنسرين إلى ذلك فأجابوه.

فبلغ ذلك عبدَ الله بن علي، وهو بدمشق؛ فوجه أخاه عبدَ الصَّمد بن عليّ، في زهاء عشرة آلاف فارس، ومعه ذؤيب بن الأشعث على حرسه،

١ ـ خارج مدينة الرملة في فلسطين.
٢ ـ بوصير قوريدس من كورة الأشمونين في مصر. معجم البلدان.
٣ ـ كان شعار بني أمية البياض، ومعروف أن العباسيين اتخذوا السواد شعاراً.

والمُخَارق بنُ عفَّان على شرطه؛ فسار أبو الورد إليه، وجعل مقدَّم جيشه وصاحبه أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ وأبو الورد مدبر الجيش، وَلقِيَهم فهزم عبد الصَّمَدِ وَمَنْ معه.

فلما قدم عبدُ الصَّمد على أخيه عبد الله أقبل عبدُ الله بنُ عليّ بعسكره لقتال أَبي محمد وأَبي الورد، ومعه حُمَيْد بن قحطبة، فالتقَوْا في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، في آخر يوم من السنة؛ واقتتلوا بمرج الأجم[1]، وثبت لهم عبدُ الله وحميْدٌ فهزموهم. وقُتل أبو الورد[2]. وأَمَّنَ عبدُ الله بنُ عليٍّ أهلَ حلبَ وقنّسرينَ وسوَّدُوا وبايعوا. ثم انصرف راجعاً إلى دمشقَ فأقام بها شهراً.

فبلغه أنَّ العباسَ بن محمد بن عبدِ الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان السفياني قد لبس الْحُمْرَةَ، وخالف، وأظهر المعصيةَ بحلب؛ فارتحل نحوه حتى وصل إلى حمص، فبلغه أنَّ أبا جعفر المنصور ـ وكان يومئذ يلي الجزيرة، وأرمينية، وأذربيجان ـ وجَّه مقاتل بن حكيم العكّي من الرقَّة، في خيلٍ عظيمة لقتال السفيانيّ؛ وأنَّ العكي قد نزل منبج، فسار عبدُ الله مسرعاً حتى نزلَ مرج الأجم، فبلغه أنَّ العكّي واقعَ السفيانيَّ وهزَمَهُ، واستباح عسكَرَهُ، وافتتح حلبَ عنوة، وجمع الغنائمَ، وسار بها إلى أبي جعفر وهو بحرّان.

---

١ ـ في بغية الطلب ص ٣٩٢٧ «فاقتتلوا بمرج الأخرم من ناحية قنسرين».

٢ ـ لأبي محمد السفياني ـ زياد بن عبد الله الأسوار ترجمة وافية في بغية الطلب ٣٩٢٧ ـ ٣٩٣٢، فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

فارتحل عبدُ الله إلى دابق، وشتا بها، ثم نزلَ سميساط[1]، وحَصرَ فيها اسحاق بن مسلم العقيليَّ، حتى سلّمها؛ ودخل في الطاعة.

ثم قدم أبانُ بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، في أربعة آلاف من نخبة مَنْ كان مع اسحاق بن مسلم. فسيّر إليه حُمَيْد بن قحطبة، فهزم أباناً، ودخل سميساط، فسار إليها عبدُالله، ونازلها حتى افتتحها عنوة.

وكتب إليه أبو العباس يأمرهُ بالمسير إلى الناعورة، وأن يترك القتال؛ ويرفع السَّيف عن الناس، وذلك في النصف من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

وهرب أبو محمد ومن معه من الكلبية إلى تدمر ثم خرج إلى الحجاز، فظفر به وقُتل[2]. وكتب إليه السفَّاحُ أن يغزو بلادَ الروم، فأتى دابقَ، فعسكر بها، وجمع، وتوجَّهَ إلى بِلاد الرُّوم.

فلمَّا وصل دُلُوكَ[3] يريد الإدرابَ، كتب إليه عاملُه بحلب يخبره بوفاة

١ ـ سميساط: بلدة على شاطيء الفرات الغربي في طرف بلاد الروم. معجم البلدان.

٢ ـ قتل قرب أحد خارج المدينة المنورة. انظر ترجمته في بغية الطلب السالفة الذكر. وجاء بهامش الأصل بخط مخالف: وذكر ابن الكلبي أن عبيد الله بن العباس بن يزيد من بني حجر بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن ثور بن مرتع الكندي ولي قنسرين لأبي السفاح، وأنه ولي بعد ذلك أرمينية لأبي جعفر وبها مات.

٣ ـ عرفها ابن العديم، وأوضح أن الرشيد كان قد أفردها مع غيرها وجعلها من العواصم، وشغلت المدينة هذه دوراً في الحروب الصليبية حتى حررها نور الدين محمود بن زنكي، وإثر ذلك خربت المدينة والقلعة، وبقيت قرية مضافة إلى عين تاب. بغية الطلب ج١ ص٢٦١ .

السفاح وبيعة المنصور؛ فرجع من دُلُوك، وأتى حرَّانَ، ودعا إلى نفسه، وزعمَ أَنَّ السَّفاحَ جعله وليَّ عهده.

وغلبَ على حلب، وقنّسرين، وديار ربيعة ومُضر، وسائر الشَّام. ولم يبايع المنصور. وبايعه حُمَيْدُ بن قحطبة وقُوَّادُه الذين كانوا معه. وولَّى على حلب زُفَرَ بن عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أبا عبد الله، في سنة سبع وثلاثين ومائة.

فسَيَّر المنصورُ أبا مسلم الخراسانيَّ صاحبَ الدعوة لقتال عبد الله بن علي؛ فسيَّر عبدُالله حُمَيْدَ بن قحطبة، وكتب له كتاباً إلى زفرَ بن عاصم إلى حلب، وفيه: «إذا وَرَدَ عليك حُمَيْد فاضربْ عنقه»[1]. فعلم حُمَيْد بذلك؛ فهرب إلى أَبي مسلم الخراساني، خوفاً من عبد الله.

ثم سار أَبو مسلم إلى عبد الله بن عليّ، فالتقيا، وانهزم عبدُ الله وعبدُ الصمد أخوه معه؛ فسار أبو مسلم خلفَهُ فوصل إلى الرقة؛ وأخذ منها أموالَ عبدِ الله، وتبعهُ إلى رُصَافة هشام[2] فانهزم عبدُ الله إلى البصرة، وتوارى عند أخيه سُلَيْمان بن عليّ، فأخذ له أماناً من المنصور؛ وسَيَّرهُ إليه، فحبَسهُ إلى أن سقط عليه الحبس، فمات[3].

---

١ - لحميد ترجمة جيدة في كتاب بغية الطلب ٢٩٧٣ - ٢٩٧٥ فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

٢ - ماتزال بقايا رصافة هشام قائمة خارج مدينة الرصافة التي تبعد عن الرقة قرابة العشرين ميلا.

٣ - وجدت في كتاب المقفى للمقريزي ترجمة وافية لعبد الله بن علي نشرتها مع تراجم أخرى ملحقة بكتاب تاريخ الخلفاء للوثابي، بيروت ١٩٩٥ .

وقبض أبو مسلم على عَبْدِ الصَّمَدِ بن عليّ، بالرُّصَافَةِ، وأَخذ أموالَه، وسَيَّرهُ إلى المنصور، فأمَّنه وأَطلقَهُ.

وورد كتابُ المنصورِ على أبي مُسْلِمٍ بولايةِ الشَّامِ جميعِهِ، وحلبَ، وقنّسرينَ، وأمره أن يقيم له في بلاده نُوَّاباً، ففعل أبو مسلم ذلك.

وسار إلى المنصور، فالتقاه في الطريق يَقْطينُ بن مُوسَى، وَقَدْ بعثَهُ المنصورُ إليه لاحصاء جميع ما وَجَدُوا في عسكر عبد الله بن عليّ. فغضب أبو مسلم وقال: «أنكون أمناء في الدماء وخونة في الأموال؟» ثم أقبل وهو مجمع على خلاف المنصور[1]. فاستوحش المنصورُ منه، وقتلهُ في سنة تسع وثلاثين ومائة.

ولما عاد أبو مسلم من الشَّام ولى المنصورُ حلبَ وقنسرينَ وحمصَ صالح بن عليّ بن عبدِ الله بن العبَّاس سنةَ سبع وثلاثين ومائة؛ فنزل حلب، وابتنى بها خارج المدينة قصراً بقرية يقال لها بِطْيَاس[2] بالقرب من النيرب؛

---

١ ـ أخبار أبي مسلم الخراساني منتشرة في مختلف المصادر المبكرة مثل أنساب الأشراف للبلاذري، وتاريخ الطبري، وغرر السير للمرعشي، ولأبي مسلم ترجمة متميزة في تاريخ دمشق لابن عساكر تحت اسم عبد الرحمن بن مسلم.

٢ ـ في بغية الطلب ج١ ص٥٢٨ ـ ٥٢٩ : وابتنى صالح بن علي بن عبد الله بن عباس «قصره المعروف ببطياس، وكان على الرابية المشرفة على النيرب من جهة الغرب والشمال، وكان عن يسار المتوجه من حلب إلى النيرب، وموضع اصطبله عن يمين المتوجه، والطريق بينهما، ودثر القصر، ولم يبق منه إلا الآثار، ويجد الناس في موضعه شيئاً من الفسيفساء وكسور الرخام» وما يزال موقع النيرب يحمل الاسم نفسه خارج حلب.

وآثاره باقية إلى الآن. ومعظم أولاده ولدوا ببطياس. وقد ذكرها البحتريّ وغيرُه في أشعارهم.

وأغزى الصائفة مع ابنه الفَضْل في سنة تسع وثلاثين ومائة بأهل الشام، وهي أول صائفة غزيت في خلافة بني العباس. وكانت انقطعت الصوائف في أيام بني أمية قبل ذلك بسنين.

وظهر في سنة إحدى وأربعين ومائة قومٌ يقال لهم الراوندية[1]، خرجوا بحلب وحرَّان. وكانوا يقولون قولاً عظيماً. وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة. وصعدوا تلاً بحلب، فيما قالوا؛ ولبسوا ثياباً من حرير؛ وطاروا منه فتكدوا[2] وهلكوا. ودام صالح في ولاية حلب إلى أن مات في سنة اثنتين وخمسين ومائة.

ورأيتُ فلوساً عتيقة، فتتبعتُ ما عليها مكتوب فإذا أحد الجانبين مكتوبٌ عليه: «ضرب هذا الفلسُ بمدينة حلبَ سنة ست وأربعين ومائة». وعلى الجانب الآخر: «مما أمر به الأميرُ صالحُ بن عليّ أكرمه الله».

ولما مات صالح بن عليّ تَولَّى حلب وقنسرين بعده ولدُهُ الفضل بن صالح، واختار له «العقَبة»[3] بحلب، فسكنها وأقام بحلب والياً مدّة. ثم ولى المنصور بعده موسى بن سليمان الخراساني. ومات المنصور سنة ثمان وخمسين،

١ ـ قالوا بتأليه الخليفة المنصور، خرجوا في أيامه في بغداد وأبيدوا.

٢ ـ أي لحق بهم الأذى. القاموس.

٣ ـ عرفت قديما باسم عقبة بني المنذر، وسميت عقبة لارتفاعها عن المدينة. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٥٤ ـ ٥٥ .

وموسى على قنسرين وحلب. ورأيتُ فلوساً عتيقة فقرأت عليها: «ضرب هذا الفلس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة». وعلى الجانب الآخر: «مما أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين».

ولما ولي المهدي خرج عبد السلام بن هاشم الخارجي بالجزيرة، وكثر أتباعه فلقيه جماعة من قواد المهدي، فهزمهم؛ فبعث المهدي إليه جنوداً كثيرة، فهرب منهم إلى قنسرين، فلحقوه فقتلوه بها في سنة اثنتين وستين ومائة؛ وكان مقدم الجيش شبيباً[1].

وعزم المهدي على الغزو فخرج حتى وافى حلب في سنة ثلاث وستين ومائة، والتقاه العباس بن محمد إلى الجزيرة؛ وأقام له النزل في عملِهِ، واجتاز معه على حصن مسلمة بالناعورة، فقال له العباس: «ياأميرَ المؤمنين إنَّ لمسلمة في أعناقنا منّة». كان محمد بن علي مرّ به فأعطاه أَربعة آلاف دينار، وقال له: «يابن عم، هذه ألفان لدينك وألفان لمعونتك، فإذا نفدت فلا تحتشمنا». فقال المهدي: «أحضروا مَن ههنا مِن ولد مسلمة ومواليه»؛ فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجري عليهم الأرزاق.

ثم قال: «يا أبا الفضل كافينا مسلمة وقضينا حقه؟» قال العباس: «نعم، وزدتَ».

ونزل المهدي بقصرِ بِطياس ظاهر حلب. وولى المهدي حين قدم

---

١ - شبيب بن واج المروروذي، وتفاصيل ثورة عبد السلام بن هاشم اليشكري في سنة ستين ومائة موجودة في تاريخ خليفة بن خياط - ط. دمشق ١٩٦٨ ج٢ ص٧٠٠ - ٧٠٤ .

قنسرين وحلب والجزيرة علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس حرباً وخراجاً وصلاة.

ثم إن المهدي عرض العسكر بحلب وأغزى ابنه هارون بلاد الروم وسيَّر محتسب حلب عبد الجبار فأحضر له جماعة من الزنادقة فقتلهم بحلب. وولى حلب والشام جميعه ابنه هارون. وأمر كاتبه يحيى بن خالد أن يتولى ذلك كله بتدبيره؛ وكانت توليته في سنة ثلاث وستين ومائة

ولما بويع الهادي أقر أخاه ويحيى على حالهما.

فلما أفضى الأمر إلى الرشيد ولّى حلب وقنّسرين عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله، فأقام بمنبج، وابتنى بها قصراً لنفسه وبستاناً إلى جانبه، ويعرف البستان يومنا هذا ببستان القصر، وكانت ولايته سنة خمس وسبعين؛ ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه.

ثم ولاها الرشيد موسى بن عيسى سنة ست وسبعين ومائة. ومرّ الرشيد على عبد الملك بمنبج فأدخله منزله بها. فقال له الرشيد: «هذا منزلك». قال «هو لك ولي بك». قال:«فكيف هو؟». قال: «دون منازل أهلي وفوق منازل الناس». قال: «فكيف طيب منبج؟». قال:«عذبة الماء، عذبة الهواء، قليلة الادواء». قال: «فكيف ليلها؟». قال: «سحر كله!».

وهاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمانية، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خَالد في هذه السنة الشَّامَ جميعه، فأقام به حتى أصلح بينهم. ثم ولاها الرشيدُ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سنة ثمان وسبعين؛

وتوجّه إليها سنة ثمانين، واستخلف عليها عيسى بن العكي.

ثم إنَّ الرشيد ولى حَلب وقنّسرينَ اسماعيل بن صالح بن عليّ لما عزله عن مصر سنة اثنتين وثمانين ومائة؛ وأقطعه ماكان له بحلب في سوقها وهي الحوانيت التي بين باب أنطاكية إلى رأس الدلبة[1] وعزله وولاه دمشق.

ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن علي ثانية، فسعى به ابنه عبد الرحمن إلى الرشيد، وأوهمه أنه يطمع في الخلافة فاستشعر منه، وقبض عليه في سنة سبع وثمانين ومائة.

وولّى على حلب وقنسرين ابنه القاسم بن هارون، وأغزاه الروم ووهبه لله تعالى في سنة سبعٍ وثمانين ومائة.

ورابط القاسم بدابق هذه السنة والتي بعدها. وقيل: إنَّ الرشيد لما غضب على عبد الملك بن صالح ولى أخاه عبد الله بن صالح ثم عزله سنة ثمان وثمانين وولى القاسم بن هارون ابنه. وقيل: إن أحمد بن اسحاق بن اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس ولي قنسرين للرشيد، وقد كان ولي له مصر، وعزله عنها سنة تسع وثمانين؛ فلا أتحقق ولايته في أي سنة كانت.

وقد ذكر بعضهم: أن عبد الله بن صالح توفي ببغداد في أيام المنصور. وقال بعضهم: إنه توفي بسلمية في سنة ست وثمانين. فعلى هذا يكون الذي ولاه الرشيد ابن ابنه عبد الله بن صالح بن عبد الله بن صالح؛ والله أعلم.

١ ـ ترجم ابن العديم لاسماعيل بن صالح في بغية الطلب ص١٦٤٨ ـ ١٦٥٥ ، وذكر ما أقطعه الرشيد في حلب وزاد: «وقدرها قدر جليل جسيم».

ثم إنَّ الرشيد ولّى حلب وقنّسرين خزيمة بن خازم بن خزيمة، من قبل ابنه القاسم بن الرشيد، في سنة ثلاث وتسعين ومائة. ولم يزل القاسم بن الرشيد في ولاية حلب وقنسرين حتى مات أبوه الرشيد في سنة ثلاث وتسعين ومائة في جمادى الآخرة فأقره أخوه الأمين عليها؛ وجعل معه قمامة بن أبي زيد؛ وولى خُزيمة بن خازم الجزيرة.

ثم إن محمداً الأمين عزل أخاه القاسم بن الرشيد عن حلب وقنسرين والعواصم وسائر الأعمال التي ولاه أبوه سنة أربع وتسعين ومائة؛ وَوَلّيها خُزيمة بن خازم في هذه السنة.

ثم ولّى الأمينُ حلبَ وقنسرينَ والجزيرة عبدَ الملك بن صالح بن عليّ؛ فخرج إليها، واجتمعت إليه العرب في سنة ست وتسعين ومائة[1]. وهذه الولاية الثالثة لعبد الملك. وكان الأمين قد أخرجه من حبس أبيه حين مات سنة ثلاث وتسعين ومائة في ذي القعدة.

واستمر عبد الملك في هذه الولاية إلى أن مات في سنة ست وتسعين ومائة بالرقة؛ ودفن في دار من دور الإمارة. وكان يرى للأمين مافعله به. فلما خلع الأمين حلف عبد الملك إن مات الأمين لايُعطي المأمون طاعة؛ فمات قبل الأمين فبقيت في نفس المأمون إلى أن خرج إلى الغزاة؛ ووجد قبر عبد

١ - بهامش الأصل: وخرج أبو العُميطر علي بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفياني... بالخلافة في ذي الحجة سنة... وبايعه أهل قنسرين، وخرج إبراهيم بن اسحق بن قضاعة الثويبي من بني الفصيص في جماعة من أصحابه، ثم هرب أبو العميطر واستخفى». انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٣ - ٥٦٥.

الملك في دار الإمارة فأرسل إلى ابنٍ لعبد الملك: «حوّلْ أباك من داري» فنبشتْ عظامه وحُوّل.

ثم ولي خزيمة بن خزيمة حلب وقنسرين في سنة سبع وتسعين ومائة.

وقيل إن الوليد بن طريف ولي حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح؛ وبعده ورقاء عبد عبد الملك ثم بعده يزيد بن مزيد، ثم استأمن إلى طاهر بن الحسين.

فلما قتل الأمين وبويع المأمون ولى حلب والشام جميعه طاهر بن الحسين؛ وجعل إليه حرب نصر بن شبث فتحصن بكيسوم[1] فقصده طاهر فلم يظفر به ولقيه، فكُسر طاهر وعاد مفلولاً؛ وذلك في سنة ثمان وتسعين ومائة.

ثم أضاف إليه ولاية مصر وإفريقية في سنة أربع ومائتين.

ثم ولاه خراسان سنة ست. وولى ابنه عبد الله مصر والشام جميعه؛ وأمره بمحاربة نصر بن شَبَث في سنة ست ومائتين.

وتوفي طاهر بخراسان سنة سبع ومائتين؛ فأضاف المأمون ولايته إلى ابنه عبد الله مع الشام. فسار عبد الله بن طاهر إلى الشام من الرقة واحتوى على الشام جميعه. وهدم سور معرة النعمان. وهدم معظم الحصون الصغار مثل

---

١ ـ كانت كيسوم مدينة كبيرة قديمة، وولاية واسعة عظيمة، وكان حصنها حصينا وبناؤها قوياً ركيناً، وبينها وبين الحدث سبعة فراسخ. بغية الطلب ج١ ص٢٦٥.

حصن الكفر وحصن حُنَاك[1] وغير ذلك. ونزل بكيسوم وبها نصر بن شبث فحصره إلى أن ظفر به، وخرج إليه بأمان. وخرّب حصن كيسوم بعد وقائع كثيرة جرت بينه وبين نصر بن شبث؛ وسار إلى مصر؛ وذلك كله في سنة تسع ومائتين.

ولما فتح مصر في سنة إحدى عشرة ومائتين كتب المأمون إليه:

أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماهُ
فما أحببتَ من أمر فإني الدهر أهواهُ
وما تكره من شيء فاني لستُ أرضاهُ
لك الله على ذاك لك الله لك الله

ودامت ولاية عبد الله بن طاهر إلى سنة ثلاث عشرة ومائتين؛ ووجهه المأمون إلى خراسان، وعزله عن الشام؛ وولى ابنه العباس بن المأمون حلب وقنسرين والعواصم والثغور؛ وأمر له بخمسمائة ألف دينار في سنة ثلاث عشرة ومائتين.

ثم ولاها المأمون إسحاق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق وعزل ابنه العباس في سنة أربع عشرة ومائتين. ثم إنَّ المأمون عزل اسحاق بن ابراهيم في هذه السنة وولاه مصر، وأعاد ابنه العباس إليها ثانية.

ثم ولى المأمون حلب وقنسرين ورقة الطريفي، وأظنه مع العباس

١ ـ لعله أراد بالكفر، بلدة كفر طاب، علماً بأنه يوجد على مقربة من خربة حناك قرية اسمها كفر رومه، تبعد عنها ٣كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وكانت لورقة حركة أيام الفتنة.

فلما قدم المأمون حلب للغزاة ونزل بدابق، في سنة خمس عشرة ومائتين، لقيه عيسى بن علي بن صالح الهاشمي فقال له: «ياأمير المؤمنين أيلينا أعداؤنا في أيام الفتنة وفي أيامك؟» فقال: «لا ولا كرامة». فصرف ورقة.

وولى عيسى بن علي بن صالح نيابة عن ولده العباس فيما أرى، فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ماأراد فقدّمه وكبر عنده وأحبه. وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن علي بالرقة ولايزال معه حتى يدخل الثغور، ثم يرد عيسى إلى عمله.

وولى المأمون في سنة خمس عشرة ومائيين قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بني كلاب، فامتنع من ذلك، فهدده على الامتناع فأجاب.

ثم ولى المأمون عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح لما غزا الصائفة في سنة ثمان عشرة ومائتين العواصم.

وفيها مات المأمون وإنما وليها عبيد الله عن العباس بن المأمون في غالب ظني فان العباس ولي حلب وقنسرين والجزيرة من سنة أربع عشرة ومائتين إلى أن توفي أبوه المأمون بالبَذَنْدون من أرض طرسوس[1].

١ ـ للمأمون ترجمة وافية في المقفى للمقريزي ألحقتها بكتاب تاريخ الخلفاء للوثابي، والبذندون قرية بينها وبين طرسوس يوم، ثم نقل إلى طرسوس ودفن فيها، وأودع ابن العديم مادة رائعة عن طرسوس. بغية الطلب ج١ ص١٧٥ ـ ٢٠٤ .

وبويع أبو اسحاق المعتصم فأقر العباس بن المأمون على ولايته، وكان الجند قد شغبوا وطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة؛ فأرسل المعتصم إليه، وأحضره فبايعه؛ وخرج إلى الناس وقال لهم: «ماهذا الحب البارد قد بايعت عمي» فسكنوا.

وسار المعتصم إلى بغداد والعباس معه؛ فلما توجه المعتصم إلى الغزاة ومرّ بحلب، في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ودخل إلى بلاد الروم اجتمع به بعض الجند ووبّخه على مافعل من إعطاء المعتصم الخلافة، وحسّن له تدارك الأمر، فاستمال جماعة من القواد وعزموا أن يقبضوا على المعتصم وهو داخل إلى الغزاة فلم يمكنهم العباس وقال: «لاأفسد على الناس غزاتهم».

فنمى الخبر إلى المعتصم فقبض على العباس، وعلى من ساعده على ذلك، وهو عائد من الغزاة، فلما وصل إلى منبج سأل العباسُ الطعام وكان جائعاً فقدم إليه طعام كثيرٌ فأكل. فلمّا طلب الماءَ مُنع وأُدرج في مِسْح[1] فمات بمنبج في ذي القعدة، من سنة ثلاث وعشرين ومائتين؛ وصلى عليه بعض إخوته ودُفن بمنبج.

وولى المعتصمُ حلبَ وقنسرينَ حربها وخراجها وضياعها عبيدَ الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح بن عليّ الهاشمي؛ ثم إنه ولى أَشناس التركي الشام جميعه والجزيرة ومصر، وتوّجه وألبسه وشاحين بالجوهر في سنة خمس وعشرين ومائتين.

---

١ - المسح: الكساء من شعر. المعجم الوسيط.

ونُظر في صلات المعتصم لأشناس فوجد مبلغها أربعين ألف ألف درهم. وأظن أنه بقي في ولايته إلى أن مات سنة ثلاثين ومائتين في أيام الواثق.

وولى الواثق عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها؛ وأظنه كان متولياً في أيام المعتصم من جهة أشناس، فأقره الواثق على ولايته.

وولّى الواثق قنسرين وحلب والعواصم، بعد عبيد الله، محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح فكانت سيرته غير محمودة. وكان أحمر أشقر، فلُقّب: «سُمّاقة» لشدة حمرته. ويقال: إنه أول من أظهر البِرْطيل بالشام، وأوقع عليه هذا الاسم؛ وكان لايعرف قبل ذلك إلا الرُّشْوة على غير إكراه. وكان أكثرَ الناس سكوتاً وأطولَهم صمتاً؛ لايكاد يسمَعُ له كلامٌ إلا في أمرٍ يأمر به، أو قولٍ يجيب عنه.

وكان قاضي حلب في أيامه أبا سعيد عبيد بن جناد الحلبي، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين؛ وكان المأمون ولاه قضاء حلب. وله يقول عمرو بن هوبر الكلبي في قصيدة يَغُضُّ منه؛ أولها:

لا دَر دَرُّ زمانك المتنكسِ الجاعلِ الأذنابَ فوْق الأرْؤُسِ
ما أَنْتَ إلا نقمةٌ في نعمةٍ أو أصلُ شوكٍ في حديقة نَرْجس
ياقبلةً ذهبتْ ضيَاعاً في يَدٍ ضَرَبَ الإلهُ بنانَها بالنقرس
من سرّ أبطح مكةٍ آباؤهُ وجدُودُهُ وَكأنَّهُ من قُبْرُسِ

وهذا عمرو بن هوبر كان من مَعْرَاثا البريدية من ضياع معرَّة النعمان وولي في أيام المتوكل مَعَرَّة مَصْرِين وقتل بها[1].

وكان الواثق قد ولى الثغور والعواصم دون حلب وأعمالها أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة، وأمره بحضور الفداءِ مع خاقان وصاحب الروم ميخائيل، فأمضى الفداء سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

ثم إنه غزا شاتياً فأصاب الناس شدة فوجد الواثق عليه بسبب ذلك، وعزله وولاها نصر بن حمزة الخزاعي.

وولّى الشارباميان، في أول أيام المتوكل على حلب وقنسرين والعواصم، والبين أنا ذاكرهما. وكان الشارباميان أَحد قواد المتوكل وكان خصيصاً عنده. فإما أَن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين والعواصم أَو أَنه كان السلطان في أَيام المتوكل فكان أَمر الولاية إليه. فانني قرأتُ في كتاب نسب بني صالح بن علي قال: وولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم عليّ بن اسماعيل بن صالح بن علي، أَبا طالب؛ وإنما أَراد أَن يتزين به عند المتوكل فامتنع من قبول ولايته؛ فأعلمه إن لم يفعل كتب فيه إلى الخليفة فقبلها؛ وأَقام على ولاية جند قنسرين والعواصم، حتى مات. فكانت أَيامه أَحسن أَيام وسيرته أَجمل سيرة. وكان عليّ بن اسماعيل إذا خرج إلى العواصم استخلف ابنه محمد بن علي على قنسرين وحلب فلا يفقد الناس من أَبيه

١ ـ مايزال هناك أكثر من معراثا على مقربة من معرة النعمان، هذا وأفرد ابن العديم بابين لكل من معرة النعمان ومعرة مصرين. ج١ ص١٢٧ ـ ١٣٥ .

شيئاً، قال: ولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم عيسى بن عبيد الله بن الفضل بن صالح بن علي الهاشمي.

قال: وولى المتوكل طاهر بن محمد بن اسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم، والنظر في أُمور العمال؛ وجاءته الولاية منه فألفاه الرسول في مرضه الذي مات فيه، وجعل المتوكل ولاية عهده إلى ابنه محمد المنتصر؛ وولاه قنسرين، والعواصم، والثغور وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وغير ذلك في سنة خمس وثلاثين ومائتين؛ فاستمر في الولاية إلى أَن قتلَ أَباه وكانت الولاة من قبله.

وفي أَيام ولايته حلب في سنة اثنتين وأَربعين ومائتين وقع طائر أَبيض دون الرخمة[1] وفوق الغراب على دُلبة بحلب لسبع مضين من رمضان، فصاح: «يامعشر الناس، الله الله» حتى صاح أَربعين صوتاً. ثم طار؛ وجاء من الغد فصاح أَربعين صوتاً. وكتب صاحب البريد بذلك وأَشهد خمسمائة انسان سمعوه. ولايبعد عندي أَن تكون الدُّلبة التي ينسب إليها رأس الدلبة[2].

وسمع في هذه السنة أَصوات هائلة من السماء، وزلزلت نيسابور،

١ - الرخم (الشوح) طائر يشبه النسر في الخلقة، كانت له مكانة دوائية منها أن يطلى بمرارته لسم الحية وغيرها، والتبخير يجفف لحمه مخلوطاً بخردل سبع مرات يحل المعقود عن النساء... القاموس.

٢ - بهامش الأصل: مقال الطائر. غريبة، إن الله على كل شيء قدير.

وتقلعت جبال من أُصولها، ونبع الماء من تحتها، ووصلت الزلزلة إلى الشام والثغور.

وأَظن أَن نائب المنتصر في جند قنسرين في حياة المتوكل كان بغا الكبير؛ فلمّا قُتل المتوكل قدم بغا عليه. وسيّر المنتصر وصيفاً إلى الثغر الشامي، فأقام به إلى أن مات.

وولى المستعين في سنة خمسين ومائتين قنّسرين وحلب وحمص موسى بن بغا؛ وتوجه إليها حين عاث أهل حمص على الفضل بن قارن. ثم ولي حلب والعواصم أبو تمام ميمون بن سليمان حدقة بن عبد الملك بن صالح في أيام المستعين، وكانت له حركة وبأس في فتنة المستعين.

وعصى أَهلُ حلب وأَقاموا على الوفاء للمستعين ببيعتهم؛ فقدم عليهم أَحمد المولد محاصراً لهم فلم يجيبوه إلى ما أَراد من البيعة للمعتز. وكان السفير بينه وبينهم الحسين بن محمد صالح بن عبد الله بن صالح أَبا عبيد الله الهاشمي.

فلما بايعوا بعد ذلك للمعتز وانقضى أَمر المستعين ولاه أَحمد المولد جند قنسرين وحلب، في سنة اثنتين وخمسين ومائتين؛ فأقام مدة يسيرة؛ ثم انصرف إلى سلمية ـ أُعني الحسين بن محمد.

وولي حلب وقنسرين والعواصم صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح، في فتنة المستعين؛ وكان له سعي وتقدم ورئاسة.

ثم ولي بعده، فيما أرى، أبو تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح. وهذه ولاية ثانية له؛ ومات بالرقة، ثم ولي بعده ثانية صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي وانقضت ولاية بني صالح الهاشميين.

ثم ولي حلب وقنسرين في أيام المعتز أبو الساج داوداذ في شهر ربيع الأول، سنة أربع وخمسين ومائتين، وبقي والياً إلى أن تغلب أحمد بن عيسى بن شيخ على الشامات في أيام المهتدي.

فلما مات، وولي المعتمد سيّر إلى ابن شيخ بولاية أرمينية، على أن ينصرف عن الشام آمناً؛ فأجاب إلى ذلك؛ ورحل عنها في سنة ست وخمسين ومائتين.

[عصر الدولة الطولونية][1]

ووليها أحمد بن طولون مع أنطاكية وطرسوس وغيرها من البلاد وكان أحمد بن طولون شهماً شجاعاً عاقلاً، وكان على مربطه أربعة آلاف حصان، وكانت نفقته في كل يوم ألف دينار[2].

فعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الملقب بالموفق على حلب وقنسرين والعواصم، في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين. ثم ولاه بغداد، واليمن، وخراسان؛ ولى الشام لابنه جعفر؛ وجعل له ولاية العهد، وهو صبي؛ وجعل الأمر بعده لأخيه أبي أحمد.

فولى أبو أحمد الموفق «سيما الطويل» أحد قواد بني العباس ومواليهم حلب والعواصم. فابتنى بظاهر مدينة حلب داراً حسنة، وعمل لها بستاناً. وهو الذي يعرف الآن «ببستان الدَّار» ظاهر باب أنطاكية. وبهذه الدَّار سميت المحلة التي بباب أنطاكية «الدَّارين»؛ إحدى الدارين هذه؛ والدار الأخرى

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ لأحمد بن طولون ترجمة وافية في بغية الطلب ص٨٢٦ ـ ٨٣٥.

بناها قبله محمد بن عبد الملك بن صالح فعرفت المحلة بالدَّارين لذلك. وإحدى الدارين تعرف بالسليمانية على حافة نهر «قُوَيْق»؛ وحاضر السليمانية بها يعرف وهو حاضر حلب.

وجدّد سيما الطويل الجسر الذي على نهر قويق قريباً من داره. وركب عليه باباً أخذه من قصور بعض الهاشميين بحلب يقال له: «قصر البنات». وأظن أن «درب البنات» بحلب يعرف به؛ وأظن القصر يعرف بأم ولد كانت لعبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح اسمها «بنات»؛ وهي أم ولده داود.

وسمى سيما الباب باب السلامة وهو الباب الذي ذكره الواساني[1] في قصيدته الميمية التي أولها:

يا ساكني حلب العوا　　صم جادها صوب الغمامة[2]

وفي سيما الطويل يقول البحتري:

فَرُدَّت إلى سِيمَا الطَّوِيلِ أُمورُنا　　وسيما الرِّضا في كُلِّ أَمْرٍ يُحَاوِلُه[3]

فعصى أحمد بن طولون على أبي أحمد الموفق، وأظهر خلعه ونزل إلى الشام، فانحاز سيما الطويل إلى أنطاكية فحصره أحمد بن طولون بها فألقت

---

١ ـ الواساني من شعراء يتيمة الدهر للثعالبي ـ ط. القاهرة ١٩٥٦ ج١ ص٣٥١.

٢ ـ انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧.

٣ ـ لم ترد قصيدة البحتري في ديوانه المطبوع، وذكر المرحوم سامي الدهان أنه رآها في مخطوطة باريس من ديوان البحتري بالورقة ٣١١.

وقال يمدح الموفق ويذكر ولاية سيما الطويل الشام:

لقد وفق الله الموفق للذي　　أتاه وأعطى الشام ماكان يأمله

أضاف إلى سيما الطويل أمورنا　　وسيما الرضا في كل أمر يحاوله

عليه امرأة حجراً وقيل قوفاً[1] فقتلته. وقيل بل قتله عسكر ابن طولون، وكان ذلك في سنة أربع وستين أو سنة خمس وستين ومائتين.

واستولى أحمد بن طولون على حلب والشام جميعه منابذاً لأبي أحمد الموفق؛ وكان قاضي حلب في أيامه عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الله أبو بكر القاضي العمري. ودام على قضائها إلى أن مات أحمد.

وكان سيما حين صارت له حلب قد قصد جماعة من الأشراف [من] بني صالح بن علي بالأذى، واستولى على أملاكهم، وأودع بعضهم السجن. فلما ولي أحمد بن طولون قال صالح بن محمد بن اسماعيل بن صالح بن علي الهاشمي الحلبي، يمدحه ويشكره، ويذكر ظفره بسيما بقصيدة يقول فيها:

وقد لبستْنا من قَذَا الجور ذلةٌ ودار بنا كيدُ الأعادي فأحدقا
وحُكِّمَ فينا عانداً فَجَرتْ له أفاعيلُ غرٍّ تَتْرُكُ اللب أَخْلَقَا
إلى أن أتيحت بابن طولون رحمةٌ أشار إلى مُعْصَوْصِبٍ فتفرَّقا
فدتك بنو العباس من ناصرٍ لها أنارَ به قَصْد السبيل فأشرقا
بنيتَ لهم مجداً تليداً بناؤُهُ فلم نَرَ بنياناً أعزَّ وأَوْثَقَا
منحتَهُمُ صَفْوَ الوداد ولم يكن سواك لِيُعْطِي الودَّ صَفْواً مُرَوَّقا
تجوزَ منكَ العبدُ لما قصَدْتَهُ وأسكن أشرافَ الأقاوم مطبقا
بلا ترةٍ أسدوا إليه وإنما يجازي الفتى يوماً على ماتحققا

١ ـ القفة والقف: ماارتفع من متون الأرض وصلبت حجارته. والقف حجارة غاص بعضها ببعض مترادف بعضها إلى بعض حمر لايخالطها من اللين والسهولة شيء. اللسان.

وهيهات ما ينجيه لو أَنَّ دونه ثمانين سوراً في ثمانين خندقا

ثم إنَّ أحمد بن طولون توجه إلى مصر، وولى مملوكه لؤلؤ حلب في سنة ست وستين؛ فخرج بكار الصالحي من ولد عبد الملك بن صالح، بنواحي حلب بينها وبين سلمية؛ ودعا إلى أبي أحمد الموفق في سنة ثمان وستين؛ فحاربه ابن العباس الكلابي فهزم الكلابي؛ ووجه إليه لؤلؤ قائداً يقال له أبو ذر، فرجع وليس معه كبير أحد. ثم إن لؤلؤ ظفر به فقبض عليه.

ثم إن لؤلؤ الطولوني خالف مولاه أحمد بحلب، وعصى عليه في سنة تسع وستين؛ وكاتب أبا أحمد الموفق في المسير إليه فأجابه إلى ذلك. وقطع لؤلؤ الدعاء لمولاه أحمد في مدنه جميعها: حلب، وقنسرين، وحمص، وديار مضر؛ وترك أهل الثغور الدعاء لابن طولون؛ وأخرجوا نائبه منها وهموا بقبضه، فهرب. فنزل أحمد بن طولون من مصر في مائة ألف فقبض على حرم لؤلؤ وباع ولده وأخذ ما قدر عليه مما كان له؛ وهرب لؤلؤ منه ولحق بأبي أحمد طلحة بن المتوكل وهو على محاربة العلوي البصري عميد الزنج.

ولؤلؤ هو الذي قتل علوي البصرة في سنة تسع وستين ومائتين. وبقي لؤلؤ ببغداد إلى أن قبض عليه الموفّق؛ وقيَّده في سنة ثلاث وسبعين ومائتين، فوجد له أربعمائة ألف دينار. فذكر لؤلؤ الطولوني أنه لايعرف لنفسه ذنباً إلا كثرة ماله وأثاثه.

ولَّما انحدر لؤلؤ من الرقة كان معه من السفن والخزائن زهاء ثلاثمائة خزانة.

ولما هرب لؤلؤ من مولاه إلى العراق في جمادى الأولى من السنة، اجتاز ببالس، وبها محمد بن العبَّاس بن سعيد الكلابي أبو موسى، وأخوه سعيد فأسرهما.

ثم إن ابن طولون وصل إلى الثغور، فأغلقوها في وجهه، فعاد إلى أنطاكية ومرض. فولى على حلب عبد الله بن الفتح، وصعد إلى مصر مريضاً، فمات سنة سبعين ومائتين.

وولي ابنه أبوالجيش خمارويه بن أحمد بن طولون؛ فولى في حلب أبا موسى محمد بن العباس بن سعيد الكلابي، في سنة إحدى وسبعين ومائتين. ونزل أبو الجيش من مصر إلى حلب، وكاتب أبا أحمد بن المتوكل بأن يولي حلب ومصر وسائر البلاد التي في يده، ويدعى له على منابرها، فلم يجبه إلى ذلك، فاستوحش من الموفق.

وولى في حلب القائد أحمد بن ذو غباش؛ وصعد إلى مصر فوصل إلى حلب اسحاق بن كنداج[1]، وكان يلي ديار ربيعة؛ ومحمد بن أبي الساج، وكان يلي ديار مضر، فولاه الموفق حلب وأعمالها؛ وكتبا إلى العراق يطلبان نجدة تصل إليهما، فان ابن جبغويه وغيره من قواد ابن طولون بشيزر.

فسيّر الموفق ابنه ابا العباس أحمد بن طلحة، وكان قد جعل إليه ولاية عهده، فوصل إلى حلب في ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين

١ ـ لخمارويه ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص٣٣٨٢ ـ ٣٣٨٦ ، وفي هذه الترجمة «اسحق بن كنداجيق».

ومائتين، وكان فيها محمد بن ديوداذ بن أبي الساج، المعروف بالأفشين حينئذ والياً؛ وسار إلى قنسرين، وهي يومئذ لأخي الفصيص التنوخي وهي عامرة وحاضر طيء لطيء وعليها أيضاً سور، وقلعتها عامرة.

وسار إلى شيزر، فكسر العسكر المقيم، وسار إلى أن تواقع المعتضد وخمارويه على الطواحين[1]، بقرب الرملة؛ وكانت الغلبة أولاً لأبي العباس المعتضِد، فهرب خمارويه بمن خفّ معه إلى مصر، ونزل أبو العباس بخيمة خمارويه، وهو لايشك في الظفر، فخرج كمين لخمارويه، فشدّوا عليهم وقاتلوهم؛ فانهزموا؛ وتفرق القوم[2].

ورجع الأمير أبو العباس إلى أن انتهى إلى أنطاكية؛ وكان محمد بن ديوداذ المعروف بالأفشين بن أبي الساج قد فارق أبا العباس لكلام أغلظ له فيه أبو العباس، فجاء قبل وقعة الطواحين، واستولى على حلب، ومعه اسحاق بن كنداج.

وسار أبو العباس من أنطاكية إلى طرسوس فأغلقها أهلها دونه، ومنعوه من دخولها؛ فسار إلى مرعش، ثم إلى كيسوم، ثم إلى سميساط، وعبر الفرات، ونكب عن حلب لاستيلاء الأفشين عليها؛ وكان قد جرت بينهما وحشة.

ونزل خمارويه إلى حلب، فصالحه الأفشين وصار في جملته؛ ودعا له

١ ـ في أحواز بلدة الرملة في فلسطين.
٢ ـ لمزيد من التفاصيل، انظر بغية الطلب ص٨٠٨ ـ ٨٠٩، ٣٣٨٢.

على منابر أعماله، وحمل إليه خمارويه مائتي ألف دينار ونيفاً وعشرين ألف دينار لوجوه أصحابه؛ وعشرين ألف دينار لكاتبه؛ وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائتين. وأعطاه ابن أبي الساج ولده رهينة على الوفاء بعهده؛ فراسل خمارويه أبا أحمد الموفق، وسأله الصلح فأجابه إلى ذلك؛ وولاه مصر، وأجناد الشام، وقنسرين، وحلب، والعواصم، والثغور.

وصعد أبو الجيش إلى مصر، وكان أبو الجيش قد أعطى ابن أبي الساج يوم دفع ولده إليه مامبلغه ثلاثون ألف دينار، فقال ابن أبّا[1]: «خدعكم محمد بن ديوداذ، إذ أعطاكم بولة يبولُ مثلّها في كل ليلة مرات، وأخذ منكم ثلاثين ألف دينار».

ثم إن ابن أبي الساج نكث عهده مع أبي الجيش، وعاث في نواحي الأعمال التي له، في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين ومائتين؛ فخرج إليه أبو الجيش، والتقيا بالثنية[2]، من أعمال دمشق فانهزم ابن أبي الساج واستبيح عسكره قتلاً وأسرا، ففي ذلك يقول البحتري:

وَقَدْ تَدَلتْ جُيُوشُ النَّصرِ مُنْزَلَة ... عَلَى جُيوشِ أَبي الجَيْشِ بن طُولُونا
يَوْمَ «الثنِّية» إذْ ثَنَّى بِكَرَّتِهِ ... خَمْسِينَ أَلْفاً رِجَالاً أَوْ يَزِيدُونَا[3]

---

١ ـ هو أحمد بن أبا، وكان من قواد خمارويه. انظر تاريخ الطبري ج١٠ ص٣٤ (ط. دار المعارف، القاهرة).

٢ ـ ثنية العقاب، اسمها الآن «التنايا» خارج دمشق على الطريق الواصل بين حمص ودمشق.

٣ ـ لم ترد القصيدة في ديوان البحتري المطبوع، وذكر المرحوم د. دهان أنه رآها في مخطوطة ديوان البحتري المحفوظة في باريس الورقة ٣٩٨، حيث جاء: وقال يمدح أبا الجيش خمارويه بن =

وكتب إلى ابن أبي الساج يوبخه، ويقول له: «كان يجب يا قليل المروءة والأمانة، أن نصنع برهنك ما أوجبه غدرك! معاذ الله أنْ ﴿تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]».

ورجع أبو الجيش إلى مصر في سنة خمس وسبعين ومائتين. فعاد محمد بن ديوداذ، وعاث عليه في أطراف بلاده، فقصده فانهزم بين يديه؛ فوصل ابن طولون خلفه إلى الفرات. وهرب ابن أبي الساج؛ ولحق بأبي أحمد الموفّق، فانضم إليه، فخلع عليه، وأخرجه معه إلى «الجبل»، وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين. فولّى أبو الجيش على حلب غلام أبيه طغج بن جف والد الإخشيذ أبي بكر محمد بن طغج.

ودعا يازمار والي الثغور لخمارويه بطرسوس والثغور، وحمل إليه خمارويه خمسين ألف دينار، وحمل إليه قبل الدعاء له ثلاثين ألف دينار لينفقها في سبيل الله ومائة وخمسين ثوباً ومائة وخمسين دابة وسلاحاً كثيراً؛ وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين.

ورجع أبو الجيش إلى مصر، ومات المعتمد بعدذلك في سنة تسعَ وسبعين؛ فولي الخلافة أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد[2] فبايعه أبو

= أحمد بن طولون:

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا فما لجاجك في لوم المحبينا

١ ـ سورة الأنعام ـ الآية: ١٦٤.

٢ ـ للمعتضد ترجمة وافية في بغية الطلب ٨٠٨ ـ ٨٢٦.

الجيش بن طولون وخطب له في عمله. وسيّر إليه هدية سنية مع الحسين بن الجصّاص[1]. وطلب منه أن يزوج ابنته من عليّ بن المعتضد، فقال المعتضد: «بل أنا أتزوجها»، فتزوجها المعتضد وهي قطر الندى.

وقيل: إنه دخل معها مائة هاون ذهب في جهازها، وان المعتضد دخل خزانتها، وفيها من المنائر والأباريق، والطاسات، وغير ذلك من الآنية الذهب. فقال: «ياأهل مصر، ما أكثر صفركم». فقال له بعض القوم: «ياأمير المؤمنين، إنما هو ذهب».

وزُفّت إلى المعتضد مع صاحب أبيها الحسين بن عبد الله بن الجصّاص. فقال المعتضد لأصحابه: «أكرموها بشمع العنبر»! فوجد في خزانة الخليفة أربع شمعات من عنبر، في أربعة أتوار[2] فضة.

فلما كان وقت العشاء، جاءت إليه وقدّامها أربعمائة وصيفة، في يد كل واحدة منهن تور ذهب وفضة؛ وفيه شمعة عنبر. فقال المعتضد لأصحابه: «أطفئوا شمعنا واسترونا».

وكانت إذا جاءتْ إليه أكرمها بأن يطرح لها مخدة. فجاءت إليه يوماً فلم يفعل ما كان يفعله بها. فقالت: «أعظم الله أجرَ أمير المؤمنين» قال:

---

١ ـ الحسين بن عبد الله بن حسين بن منصور، أبو عبد الله الجوهري، المعروف بابن الجصاص، كان من أعيان تجار عصره، ذوي الثروة الواسعة واليسار. له ترجمة وافية في المقفى للمقريزي ـ ط. بيروت ١٩٨٩ ج٣ ص٥٢٠ ـ ٥٣٤.

٢ ـ آنية صغيرة توضع فيها الشمعة.

«فيمن؟». قالت: «في عبده خمارويه» ـ تعني أَباها ـ فقال لها: «أَوَقَدْ سمعتِ بموته؟» قالت: «لا ولكني لمَّا رأَيتُك قد تركتَ إكرامي علمتُ أَنه قد مات أَبي». وكان خبره قد وصل إلى المعتضد، فكتمه عنها. فعاد إلى إكرامه لها بطرح المخدّة في كل الأوقات.

وقُتل خمارويه بدمشق في سنة [ثماني و] ثمانين ومائتين[1]، وحلب في ولاية طغج بن جُفّ من قبله.

وأَظن أَن قاضي حلب بعد أَيام أَحمد بن طولون حفص بن عمر قاضي حلب.

وولي مكان خمارويه ولده جيش بن خمارويه[2]، وطغج في حلب على حاله.

وعزل القوادُ جيشَ بن خمارويه؛ وولوا أَخاه هارون بن خمارويه، فولى طغج بن جفّ حلب على حاله، وسيّر إلى المعتضد رسولاً يطلبُ منه إجراءه على عادة أَبيه في البلاد التي كانت في ولايته، فلم يفعل.

وسيّر رسولاً إلى هارون، فاستنزله عن حلب وقنسرين، والعواصم، وسلّم لهارون مصر وبقية الشام، واتفق الصلح مع المعتضد وهارون على ذلك، في جمادى الأولى من سنة ست وثمانين ومائتين.

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين من ترجمة خمارويه في بغية الطلب ص٣٣٨٦ .

٢ ـ لجيش بن خمارويه ترجمة مفيدة في المقفى للمقريزي ج٣ ص١١٦ ـ ١١٧ .

وكان هارون قد ولى قضاء حلب وقنسرين أَبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقي، فقلد المعتضدُ حلبَ وقنسرين ولده أَبا محمد علي بن أَحمد في هذه السنة.

وولى بحلب من قبل ابنه الحسنَ بن عليّ المعروف بكوره الخراساني، وإليه تنسب دار كوره؛ التي داخل باب الجنان[1] بحلب، والحمام المجاورة لها. وقد خربت الآن ولم يبق لها أَثر.

وكان كاتب علي بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصراني، فقلده النظر في هذه النواحي.

وسار المعتضد، في سنة سبع وثمانين ومائتين، خلف وصيف خادم ابن أَبي الساج إلى الثغور إلى أَن لحقه. فضم عمل الثغور أَيضاً إلى كوره، وعاد إلى أُنطاكية، ووصيف[2] معه.

ثم رحل إلى حلب، فأقام بها يومين؛ ووجد لوصيف بعد أَسره في بستان بحلب مال كان دفنه وهو بها مع مولاه مبلغه ستة وخمسون أَلف دينار، فحمل إلى المعتضد؛ ثم رحل إلى بغداد، فمات في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين.

وتولى الخلافة ولده أَبو محمد، ولقب بالمكتفي؛ فصرف الحسن بن علي

---

١ - سمي بذلك لأنه يخرج منه إلى البساتين التي لحلب، بغية الطلب ج١ ص٥٥.
٢ - لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة المعتضد في بغية الطلب ص٨١٨ - ٨١٩.

كوره عن ولايته؛ وولى حلب أحمد بن سهل البوشجاني[١]، في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين. ثم صرفه عنها سنة تسعين ومائتين.

وولى حلب في هذه السنة أبا الأغر خليفة بن المبارك السلمي[٢]، ووجهه إليها لمحاربة القرمطي صاحب الخال - لعنه الله - فإنه كان قد عاث في البلاد؛ وغلب على حمص، وحماة، ومعرة النعمان، وسلمية. وقتل أهلها وسبى النساء والأطفال.

فقدم أبو الأغر حلب في عشرة آلاف فارس، فانفذ القرمطي سرية إلى حلب، فخرج أبو الأغر إلى وادي بُطْنَان[٣]، فلما استقر وافاه جيش القرمطي، يقدمه المطوّق غلامه وكبسهم، وقتل عامة أصحابه وخادماً جليلاً يقال له بدر القدامي[٤].

١ - كذا بالأصل، ولم يرد في لباب الأنساب لابن الأثير البوشجاني بل البوشنجي، والنوشجاني.

٢ - ترجم ابن العديم في بغية الطلب لكل من صاحب الخال وخليفة بن المبارك (أبو الأغر السلمي) وسلف لي نشر هاتين الترجمتين في كتابي الجامع في أخبار القرامطة - ط. دمشق ١٩٨٧ ج٢ ص٤٠٧ - ٤٢٥.

٣ - في ترجمة أبي الأغر - الجامع في أخبار القرامطة ج٢ ص٤٢٤ : «وللنصف من شهر رمضان - سنة ٢٩٠هـ - مضى أبو الأغر إلى حلب، ونزل وادي بطنان، قريبا من حلب، ونزل بيعه جميع أصحابه، فنزع - فيما ذكر - جماعة من أصحابه ثيابهم، ودخلوا يتبردون بمائه، وكان يوماً شديد الحر، فبيناهم كذلك إذ وافاهم جيش القرمطي المعروف بصاحب الشامة، مقدمهم المعروف بالمطوق، فكبسهم على تلك الحال، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وانتهب العسكر، وأفلت أبو الأغر وجماعة من أصحابه، فدخل حلب، وأفلت معه مقدار ألف رجل، وكان في عشرة آلاف رجل مابين فارس وراجل».

٤ - رسم هذا الاسم بالأصل دونما ضبط أو نقط، ولم يرد ذكره في ترجمتي أبي الأغر وصاحب الخال.

وسلم أبو الأغر في ألف رجل، فصار إلى قرية من قرى حلب؛ وخرج إليه ابنه في جماعة من الرجّالة والأولياء، فدخل إلى حلب. وأقام القرامطة على مدينة حلب على سبيل المحاصرة.

فلما كان يوم الجمعة، سلخ شهر رمضان من سنة تسعين ومائتين، تسرّع أهل مدينة حلب إلى الخروج للقاء القرامطة فمنعوا من ذلك، فكسروا قفل الباب، وخرجوا إلى القرامطة، فوقعت الحرب بين الفئتين؛ ورزق الله الحلبيين النصر عليهم. وخرج أبو الأغر فأعانهم فقتل من القرامطة خلق كثير.

وخرج أبو الأغرّ يوم السبت يوم عيد الفطر إلى المصلى، وعيد بأهل حلب، وخطب الخطيبُ؛ وعادت الرعية على حال سلامة؛ وأشرف أبو الأغر على القرامطة، فلم يخرج منهم أحد إليه؛ ثم أنهم رحلوا إلى صاحبهم، في سنة ثلاثمائة.

ثم إن المكتفي ولى حلب الحسين بن حمدان بن حمدون عم سيف الدولة، فعاثت عليه العرب من كلب واليمن وأسد وغيرهم، فاجتمعوا بنواحي حلب، فخرج للقائهم، في شهر رمضان من سنة أربع وتسعين ومائتين؛ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب؛ وجرى بينه وبين القرامطة، في هذه السنة وقعة كسرهم فيها واستأصلهم.

ثم إنه عزل عن حلب، وولي عيسى غلام النوشَري؛ وكان المكتفي قد صار إلى الرقة في سنة إحدى وتسعين ومائتين؛ وكان وجّه بمحمد بن

سليمان صاحب الجيش إلى حلب والشام في عشرين ألف فارس وراجل، لمحاربة الطولونية والقرامطة، وفتح مصر. فقدم محمد بن سليمان حلب في أواخر سنة تسعين، والوالي بها على الحرب عيسى غلام النوشري، فدخلها محمد في أحسن تعبئة وزي؛ وأقام بها أياماً وطالب عمال الخراج بحمل المال؛ وقصده رؤساء بني تميم وبني كلاب.

فأمر عيسى والي حلب أن يستخلف على عمله ويشخص معه إلى مصر؛ فامتثل أمره، واستخلف على حلب ولده، وأنفق في جنده؛ ورحل في آخر شوال معه. فلما وافى معرة النعمان خلع عليه، وحمله، وولاه بلده إلى حدود حماة؛ ولقيهم القرامطة بين تل منّس[1] وكفر طاب[2]، في عشرة آلاف فارس، فنصره الله عليهم، وانهزموا وقتل الرَّجالة، وأسر أكثر الخيَّالة[3].

وصار محمد بن سليمان إلى مصر، وافتتحها من يد الطولونية، عند قتل هارون بن خمارويه؛ واستولى على أموالها. ثم ضمّ إلى طُغج بن جُفّ الطولوني أربعة آلاف رجل، وولاه حلب، وأخرجه عن مصر.

فلما صار إلى حلب وجد بها ابن الواثقي، وقد أنفذه السلطان إلى حلب لعرض جيوش الواردين من مصر، وذلك في سنة اثنتين وتسعين

١ ـ تل منس: قرية في سهول ادلب، تابعة لمنطقة معرة النعمان وتبعد عنها مسافة ٦كم، وذلك إلى الشرق منها، في شمالها الشرقي تل أثري فيه آثار تعود إلى العصور الكلاسيكية وما تلاها. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ تبعد خرائب كفر طاب نحو ٣كم إلى الغرب من بلدة خان شيخون.

٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الجامع في أخبار القرامطة ص٤٠٨ ـ ٤٢٢ .

ومائتين. فعرض ابن الواثقي جيشه لما وصل إلى حلب، وأمره بالنفوذ إلى بغداد، فرحل حتى وافى مدينة السلام.

وكذلك ورد حلب جماعة من القواد الطولونية، فعرضهم وتوجهوا إلى بغداد. ووافى وصيف البُكْتُمري وابن عيسى النوشري صاحب حلب بغداد، يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ومعهما طغج، وأخوه، وابن لطغج، فخلع عليهم وطوّق منهم البكتمري وابن عيسى النوشري.

ثم شخص عيسى النوشري عن مصر إلى حلب، لأنه كان واليها. فلما كان بعد شخوصه إليها بأيام، ورد كتاب العباس بن الحسن الوزير بتولية عيسى النّوشري مدينة مصر، ويؤمر محمد بن سليمان بالشخوص إلى طرسوس للغزو، فوجه محمد بن سليمان من لحق عيسى بالرملة فردّه؛ وورد إلى عيسى كتاب من السلطان بذلك فعاد والياً على مصر.

وولى المكتفي في هذه السنة أبا الحسن ذكَا بن عَبْد الله الأعور حلب؛ ودام بها إلى سنة اثنتين وثلاثمائة. وكان كريماً يهب ويعطي وإليه تُنسبُ «دار ذكا» التي هي الآن دار الزكاة. وإلى جانبها دار حاجبه فيروز فانهدمت، وصارت تلا يعرف بتل فيروز؛ فنسفه السلطان الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ في أيامه؛ وظهر فيه بقايا من الذخائر مثل الزئبق وغيره؛ وهو موضوع سوق الصّاغة الآن. ولأبي بكر الصنوبريّ الشاعر فيه مدائح كثيرة.

وعاد محمد بن سليمان إلى حلب، ووافاه مبارك القُمّي بكتب يؤمر فيها

بتسليم الأموال، وركب إليه ذَكَا الأعور صاحب حلب، وأبو الأغرّ وغيرهما. فاختلط بهم وسار معهم إلى المدينة، فأدخلوه إلى الدار المعروفة بكوره، بباب الجنان، ووكلوا به في الدار.

وشخص ذَكَا عن حلب لمحاربة ابن الخلنج[1] مع أبي الأغر إلى مصر؛ ووُجِّه بمحمد بن سليمان مقبوضاً إلى بغداد.

وتوفي المكتفي سنة خمس وتسعين ومائتين؛ وولي أخوه أبو الفضل المقتدر.

وعاثت بنو تميم في بلد حلب، وأفسدت فساداً عظيماً، وحاصروا ذَكَا بحلب، فكتب المقتدر إلى الحسين بن حمدان في إنجاد ذَكَا بحلب، فأسرى من الرحبة[2] حتى أناخ عليهم بخناصرة، وأسر منهم جماعة، وانصرف ولم يجتمع بذَكَا. ففي ذلك يقول شاعر من أهل الشام:

أصلح ما بين تميم وذَكَا
أبلج يُشكي بالرماح من شكا
يدلُّ بالجيش إذا ما سلكا
كأنّه سليكةُ بن السُّلَكَا[3]

وكان وزير ذكا وكاتبه أبا الحسن محمد بن عمر بن يحيى النفري

---

١ ـ كذا بالأصل وفي ولاه مصر للكندي ـ ط. بيروت ١٩٠٨ ص٢٥٨ ـ ٢٩٧ «ابن الخليج».
٢ ـ ماتزال بقاياها قائمة على مقربة من الميادين، وتعرف باسم الرحيبة.
٣ ـ من الشعراء الصعاليك في الجاهلية، نشر ديوانه مع دراسة عنه في بيروت ١٩٩٤ .

الكاتب؛ وإليه ينسب حمّام النفري، وهي الآن داثرة. وداره هي المدرسة النورية؛ ومدحه الصنوبري.

ثم إن المقتدر عزل ذكا عن حلب، وولاه دمشق ثم مصر إلى أن مات. وقيل إنَّ المقتدر ولّى حلب مولاه تكين الخادم أبا منصور ثم عزله عنها. والصحيح أنه ولّى الشام ومصر مؤنس المظفر الخادم نيابة عن ابنه أبي العباس، فقدم إلى حلب وصعد إلى مصر.

وولى مؤنس ذَكَا الأعور دمشق ومصر، وعزله عن حلب؛ وولى الأمير أبا العباس أحمد بن كيغلغ حلب سنة اثنتين وثلاثمائة. وكان على قضاء حلب سنة تسعين محمد بن محمد الجذوعي.

ثم ولى القضاء بحلب وقنسرين محمد بن أبي موسى عيسى الضرير الفقيه، في سنة سبع وتسعين ومائتين. وشخص إلى عمله لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر.

ثم صرف محمد بن عيسى عن قضاء حلب وقنسرين، في سنة ثلاثمائة بأبي حفيص عمر بن الحسن بن نصر الحلبي القاضي. وكانت داره بسوق السرّاجين. وعزل أبو حفيص عن القضاء في حلب سنة اثنتين وثلاثمائة. ووليها أبو عبد الله محمد بن عبده بن حرب.

وتوفي عمر بن الحسن القاضي سنة سبع وثلاثمائة؛ وكان محمد بن عبده بن حرب قاضياً بها سنة خمس وثلاثمائة.

ثم تولى قضاء حلب وحمص ابراهيم بن جعفر بن جابر أبو اسحاق الفقيه، في سنة ست وثلاثمائة. وولي الخراج من قبل المكتفي بحلب الحسن بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحَّاك. وتوفي بحلب في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فجاءة.

وولي الخراج بعده علي بن أحمد بن بسطام والانفاق عبد الله بن محمد بن سهل. ثم توفي سنة اثنتين وثلاثمائة؛ وتولى مكانه محمد بن الحسن بن علي الناظري.

وكان أبو العباس بن كَيْغَلَغ أديباً؛ شاعراً، جواداً، وهو الذي مدحه المتنبي بقوله:

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدِ[1]

ومن شعر الأمير أحمد بن كَيْغَلَغ قوله:

قلت له، والجفون قرحى: قد أقرح الدمع مايليها
ما لي في لوعتي شبيه قال: وأبصرت لي شبيها

ثم ولَّى مؤنس المظفر حلب أبا قابوس محمود بن حبك الخراساني؛ وكان جباراً، قاسياً، منحرفاً عن أهل البيت. وقيل: هو محمود بن حمل، فدام والياً بها إلى سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة.

وكان مؤنس المظفر بالشام، فاستدعي إلى بغداد لقتال القرمطي، فسار

---

١ ـ ديوان المتنبي ـ ط. بيروت ١٩٦٩ ص٧١.

إليها؛ وولى حلب وصيف البكتمري الخادم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. ثم عزله عنها سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ووليها في هذه السنة هلال بن بَدْر أبو الفتح، غلام المعتضد؛ وكان أمير دمشق قبل ذلك؛ ثم عزل عن حلب؛ وولي قُطْرَبُّل[1] وسامرّا في سنة سبع عشرة، فوليها في هذه السنة وصيف البُكْتُمري ثانية.

ومات بحلب على ولايته يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي الحجة من سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

وكان كاتبه عبد الله والد أبي العباس أحمد بن عبد الله الشامر المعروف بابن كاتب[2] البكتمري، فوليها الأمير أحمد بن كيغلغ ثانية إلى ثماني عشرة وثلاثمائة.

ثم ولّى مؤنسُ المظفرُ غلامَه طريفَ بن عبد الله السبكريّ الخادم، في سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وكان ظريفاً شهماً شجاعاً، وحاصر بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها، فحاربوه حرباً شديداً حتى نفد جميع ماكان عندهم من القوت والماء، فنزلوا على الأمان فوفّى لهم، وأكرمهم؛ ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين، فأضيفت إليه حمص مع حلب.

١ ـ قطربل: اسم قرية بين بغداد وعكبرا. معجم البلدان.
٢ ـ لعله أبو الفتح البكتمري الذي ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر ـ ط. القاهرة ١٩٥٦ ج١ ص١٢٠ ـ ١٢٢.

ثم إن القاهر[1] قبض على مولاه مؤنس المظفر، وتولى طريف قبضه، وأحضره إلى القاهر في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فرأى له ذلك. وولى القاهر بشرى الخادم دمشق وحلب؛ وسار إلى حلب ثم إلى حمص، فكسره ابن طغج وأسره، وخنقه. ووصل أبو العباس بن كيغلغ إلى حلب فاتفق مع محمد بن طغج وحالفه.

وولي الخلافة الراضي بعد القاهر[2]. وكان الراضي قد خاف على بدر الخرشني من الحجرية أن يفتكوا به؛ فقلده حلب وأعمالها؛ وهي بيد طريف سنة أربع وعشرين؛ وأمره بالمسير من يومه. فسار وبلغ طريف، فأنفذ صاحباً له إلى ابن مقلة؛ وبذل له عشرين ألف دينار ليجدد له العهد، وأن لايصرف من حلب. ووصل الخرشني فدافعه طريف، رجاء أن يقضي ابن مقلة وطره، فزحف بدر الخرشني، والتقى طريف في أرض حلب، فانهزم طريف من بين يديه.

وتسلم بدر حلب، وأقام بها مدة يسيرة، ثم كوتب من الحضرة بالانصراف فرجع إلى الحضرة، وقُلد طريف حلب مرة ثالثة؛ فقلد طريف السبكري من جهته حلب والعواصم فأقام بها إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وكان قاضي حلب عبيد الله بن عبد الرحمن ابن أخي الإمام.

---

١ ـ حكم القاهر من سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م إلى ٣٢٢هـ/٩٣٤م.
٢ ـ حكم الخليفة الراضي من سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م إلى ٣٢٩هـ/٩٤٠م.

ثم ولي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي؛ ومدحه أبو بكر الصنوبري؛ وكان بها نائباً عن أبي بكر الإخشيذ محمد بن طُغج بن جُفّ - في غالب ظني - فان الأخشيذ استولى على الشام إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

وفي ولاية أبي العباس الكلابي، وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد، وأغارت على معرة النعمان، فخرج إليهم والي المعرة معاذ بن سعيد بجنده، وتبعهم إلى البراغيثي، فعطفوا عليه، وأسروه وأكثر جنده. وأقام فيهم مدة يعذبونه، فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابي والي حلب، فخلصه منهم. وكان ورودهم في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة[1].

ثم إن الراضي قدم الموصل، وكان أبو بكر محمد بن رائق ببغداد[2]، وبينه وبين بجكم وحشة؛ فأنفذ الراضي أبا الحسين عمر بن محمد القاضي إلى أبي بكر محمد بن رائق يخيّره في أحد البلدين: واسط، أو حلب وأعمالها؛ فاختار حلب؛ وأراد بذلك البعد عن بجكم، فأجابه الراضي إلى ذلك، وخلع عليه أبو جعفر وأبو الفضل ابنا الراضي وعقدا له.

وجعل بجكم يحثّ الراضي على الوصول إلى بغداد، ويتأسف على خروج ابن رائق منها ليشفي غيظه؛ فقال له الراضي: «هذا لا يصلح؛ وهذا رجل قد أمنته، وقلدته ناحية من النواحي، فسمع وأطاع وما أُمكنّك منه».

١ - لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة أحمد بن سعيد الكلابي في بغية الطلب ص٧٦٠ - ٧٦١. وجاء في هذه الترجمة أن معاذ بن سعيد لاحق كلاب «إلى مكان يعرف ببرج البراغيث».

٢ - لابن رائق ترجمة جيدة في المقفى للمقريزي ج٥ ص٦٥٤ - ٦٥٩.

فخرج أبو بكر بن رائق في شهر ربيع الآخر من سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. وقيل: دخل حلب في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. وسار عنها إلى قتال الأخشيذ محمد بن طغج بن جف[1] الفرغاني؛ وولى في حلب نيابة عنه خاصة محمد بن يزداذ.

وجرت بين أبي بكر بن رائق والإخشيد وقعة انهزم فيها الإخشيد؛ وسلّم دمشق إلى ابن رائق، واقتصر على الرملة ومصر.

ثم وقع بينهما وقعة أخرى في الجفار[2]، أسر فيها أبو الفتح مزاحم بن محمد بن رائق، فرجع في عدة يسيرة حتى يخلّص ابنه، فقتل أبو نصر بن طغج؛ فكفنه ابن رائق؛ وجعله في تابوت؛ وأنفذه إلى أخيه الإخشيد مع ابنه مزاحم؛ وقال: «ماأردتُ قتلَ أخيك؛ وهذا ولدي قد أنفذتُه إليك لتقيده به». فخلع الإخشيذ عليه؛ وأعطاه مالاً كثيراً، ورده. وذلك في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

ثم أن أبا بكر محمد بن طغج الإخشيد سيّر كافوراً الخادم من مصر، ومعه عسكر وفي مقدمته أبو المظفر مساور بن محمد الرومي، أحد قواد الإخشيذ؛ فوصل إلى حلب؛ فالتقى كافور ومحمد بن يزداذ الوالي بحلب

١ - لابن طغج ترجمة واسعة في كتاب المقفى للمقريزي ج٥ ص٧٤٥ - ٧٥٢.
٢ - في رواية المقريزي أن المعركة وقعت باللجون، واللجون عند ياقوت بلد بالأردن على عشرين ميلاً من طبرية، وجاء عند ياقوت أيضاً: الجفار: أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر.

من قبل ابن رائق، فكسره كافور، وأسره، وأخذ منه حلب؛ وولّى بها مساور بن محمد الرومي؛ وعاد كافور إلى مصر.

وهذا أبو المظفر مُساور بن محمد الرُّومي مدحه المتنبي بقوله:

أَمُسَاوِرٌ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هذا أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأَسْتَاذَا[1]

يريد بالأستاذ: كافوراً الخادم. وذكر فيها كسره ابن يزداذ فقال:

هَبْكَ ابْنَ يَزدَاذٍ حَطَمْتَ وَصَحْبَهُ أَتَرَى الوَرَى أَضْحَوْا بَنِي يَزْدَاذَا

ومساور هو صاحب الدار المعروفة بدار ابن الرومي بالزّجاجين بحلب، وتعرف أيضاً بدار ابن مستفاد، وهي شرقي المدرسة العمادية التي جددها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق بحلب، وهي المنسوبة إلى بني العجمي[2].

وأظن أن قاضي حلب في هذا التاريخ كان أبا طاهر محمد بن محمد بن سفيان الدباس أو قبل هذا التاريخ.

ثم اتفق الإخشيذ ومحمد بن رائق على أن يخلي له الإخشيذ حمص وحلب ويحمل إليه مالاً؛ وزوج الإخشيذ ابنته بمزاحم بن أبي بكر بن رائق.

وقتل ناصرُ الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان أبا بكر بن رائق، في رجب سنة ثلاثين وثلاثمائة بين يدي المتقي يوم الاثنين لتسع بقين منه.

---

١ - ديوان المتنبي ص١١٣.

٢ - انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٢٦٣.

وكان ابن رائق شهماً مقداماً سخياً جواداً، لكنه كان عظيم الكبر، مستبداً برأيه، منزوعاً من التوفيق والعصمة والتسديد.

وكان أحمد بن علي بن مقاتل بحلب من جهة أبي بكر بن رائق ومعه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، فقلّد ناصر الدولة علي بن خلف ديار مضر والشام؛ وأنفذ معه عسكراً، وكاتب يانس المؤنسي أن يعاضده.

وكان يانس يلي ديار مضر من قبَل ناصر الدولة فسار إلى «جسر منبج» وسار أحمد بن مقاتل ومزاحم إلى منبج، فالتقوا على شاطىء الفرات.

وسيّر يانس كاتبه ونذيراً غلامه برسالة إلى ابن مقاتل، فاعتقلهما ووقعت الحرب بين الفئتين؛ ولحق يانس جراح كادت تتلفه فعدل به إلى «قلعة نجم»[1] ليشده. ونظر نذير غلامُه وهو معتقل في عسكر ابن مقاتل، على بغل إلى شاكري[2] ليانس معه جنيبة من خيله، فأخذ سيف الشاكريّ، وركب الجنيبة؛ وصار إلى ابن مقاتل فقتله وانهزم عسكره.

وأفاق يانس المؤنسي، فسار وعلي بن خلف متوجهين إلى حلب وتلاوم قواد ابن مقاتل على هزيمتهم؛ فعادوا إلى القتال في وادي بطنان، فانهزموا ثانية؛ وملك علي بن خلف ويانس المؤنسي حلب في سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ثم إنّ علي بن خلف سار منها إلى الإخشيد محمد بن طغج، فاستوزره وعلا أمره معه، إلى أن رآه يوماً، وقد ركب في أكثر الجيش بالمطارد والزيّ؛

١ ـ قلعة حصينة قرب جسر منبج. معجم البلدان.
٢ ـ الشاكري: معرب جاكر، وهو الأجير أو التابع.

ومحمد جالس في متنزه له، فأمر بالقبض عليه؛ فلم يزل محبوساً إلى أن مات محمد بن طغج. فأطلق وبقي يانس المؤنسي والياً على حلب في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

وكان يانس هذا مولى مؤنس المظفر الخادم، وتولى الموصل في أيام القاهر، وكان يلي ديار مضر من قبل ناصر الدولة إلى أن كان من أمره ما ذكرناه. فاستأمن إلى الأخشيذ، ودعا له على المنابر بعمله.

واتفق ناصر الدولة بن حمدان وتوزون، في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، على أن تكون الأعمال من مدينة الموصل إلى آخر أعمال الشام لناصر الدولة؛ وأعمال السن[1] إلى البصرة لتوزون وما يفتحه من وراء ذلك؛ وأن لايعرض أحد منهما لعمل الآخر.

فولى ناصر الدولة حلب وديار مضر والعواصم أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب ابن رائق في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين [وثلاثين] وثلاثمائة، ووافق ناصر الدولة أبا محمد بن حمدان على أن يؤدي إليه إذا دخل حلب خمسين ألف دينار.

فتوجّه أبو بكر من الموصل ومعه جماعة من القواد، ولم يصل إليها؛ فوقع بين الأمير سيف الدولة بن حمدان وبين ابن عمه أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان كلام بالموصل وأراد القبض عليه.

---

١ ـ السن: مدينة على دجلة فوق تكريت. معجم البلدان.

فقلد ناصر الدولة أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، أَخا الأمير أبي فراس، حلب وأعمالها، وديار مضر، والعواصم، وكلّما يفتحه من الشام، فتوجه في أول شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ودخل الرقة بالسيف لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزمي، فأسره وسلمه، وأحرق قطعة من البلد وقبض على رؤساء أهله، وصادرهم.

وتوجه إلى حلب ومعه أبوبكر محمد بن علي بن مقاتل، وبحلب يانس المؤنسي وأحمد بن العباس الكلابي، فهربا من بين يديه من حلب، وتبعهما إلى معرة النعمان ثم إلى حمص.

وهرب أمير حمص اسحاق بن كيغلغ بين يديه، وملك هذه البلاد ودانت له العرب، ثم عاد إلى حلب، وأقام بها إلى أن وافى الأخشيذ أبو بكر محمد بن طُغج بن جُفّ الفرغاني.

وإنما لقب بالأخشيذ لأن ملك فرغانه يتسمى بذلك؛ وكان أبوه من أهل فرغانه.

وقدمها الإخشيذي في ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. ولما دنا الإخشيذ من حلب انصرف الحسين بن حمدان عنها لضعفه عن محاربته إلى الرقة.

وكان ابن مقاتل مع ابن حمدان بحلب؛ فلما أحس بقرب الأخشيذ منها وتعويل ابن حمدان على الانصراف استتر في منارة المسجد الجامع إلى أن انصرف ابن حمدان.

ودخل الاخشيذ فظهر له ابن مقاتل، واستأمن إليه، وقلده الاخشيذ أعمال الخراج والضياع بمصر.

وأما الحسين بن سعيد، فإنّه لما وصل إلى الرقة وجد المتقي لله بها هارباً من توزون التركي وقد تغلب على بغداد، وسيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان مع المتقي بالرقة؛ وقد فارق أخاه ناصر الدولة لكلام جرى بينهما، فلم يأذن المتقي لأبي عبد الله الحسين في دخول الرقة، وأغلقت أبوابها دونه؛ ووقعت المباينة بينه وبين ابن عمه سيف الدولة؛ وسفر بينهما في الصلح، فتمّ، ومضى إلى حران ومنها إلى الموصل.

وقدم الاخشيذ عند حصوله بحلب مقدمته إلى بالس[1]، وسار بعدها بعد أن سيّر المتقي أبا الحسن أحمد بن عبد الله بن اسحاق الخرقي يسأل الإخشيذ أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقة، ويجدد العهد به، ويستعين به على نصرته، ويقتبس من رأيه.

فلما وصل أبو الحسن إلى حلب تلقاه الإخشيذ، وأكرمه؛ وأظهر السرور والثقة بقرب المتقي، وأنفذ من وقته مالاً مع أحمد بن سعيد الكلابي إلى المتقي، وسار خلفه حتى نزل وبينه وبين المتقي الفرات، فراسله المتقي بالخرقي، وبوزيره أبي الحسين بن مقلة؛ فعبر إليه يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

---

١ ـ هي مسكنة الآن في سورية على الطريق الذي يصل حلب بالرقة.

ووقف بين يدي المتقي لله؛ ثم ركب المتقي لله فمشى بين يديه؛ وأمره أن يركب فلم يفعل؛ وحمل إليه هدايا ومالاً كثيراً، وحمل إلى الوزير أبي الحسين بن مقلة عشرين ألف دينار؛ ولم يدع أحداً من أصحاب المتقي وحواشيه وكتابه إلا بَرَّهُ وَوَصَلَهُ.

واجتهد بالمتقي لله أن يسير معه إلى الشام ومصر؛ فأبى. فأشار عليه بالمقام مكانه، وضمن له أن يمدّه بالأموال فلم يفعل[1]، إلى أن كاتبه توزون،وخدعه، وقبض عليه وبايع المستكفي.

وكتب المتقي عهداً للإخشيد بالشامات ومصر على أن الولاية له ولأبي القاسم أنوجور ابنه إلى ثلاثين سنة.

وكتب الإخشيد في هذه السفرة إلى عبده كافور الخادم إلى مصر وقال له: «ومما يجب أن تقفَ عليه ـ أطال الله بقاءك ـ أنّي لقيتُ أميرَ المؤمنين بشاطىء الفرات فأكرمني، وحباني[2]، وقال: كيف أنت يا أبا بكر أعزَّك الله»، فرحاً بأنّه كناه،والخليفة لا يكني أحداً.

---

١ ـ في ترجمة الاخشيذ في المقفى ج٥ ص٧٥٠ : «واجتهد المتقي أن يسير معه إلى مصر، فأشار عليه بالمقام مكانه ولايرجع إلى بغداد، وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في جميع البلاد فلم يجبه، فخوفه من طوزون فلم يوافقه».

٢ ـ كذا بالأصل ويرجع أنها تصحيف: «وكناني» فقد جاء في ترجمة الاخشيد في المقفى ج٥ ص٧٥٠ ، أن الاخشيذ التقى المتقي بالرقة «فلما قدم عليه بالرقة وقف بين يديه ومشى عند ركوبه، فأمره المتقي بالركوب فلم يفعل، فألح عليه المتقي، وأكرمه وكناه وكنى ابنه وجعله خليفة له»، يضاف إلى هذا أن سياق الخبر يؤكد التصحيف.

[عصر الدولة الحمدانية][1]

وعاد الإخشيذ من الرقة إلى حلب وسار إلى مصر. وولى بحلب من قبله أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي، وولى أخاه أنطاكية. فحسد أبا الفتح إخوته الكلابيون، وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب، وقد كان طلب سيف الدولة من أخيه ناصر الدولة ولاية، فقال له ناصر الدولة: «الشام أمامك؛ وما فيه أحد يمنعك منه».

وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين، وضعف أبي الفتح عن مقاومته، فسار إلى حلب؛ فلما وصل إلى الفرات خرج إخوة أبي الفتح عثمان بن سعيد بأجمعهم للقاء سيف الدولة؛ فرأى أبو الفتح أنه مغلوب إن جَلَس عنهم، وعلم حسدهم[2] له، فخرج معهم.

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ أفرد ابن العديم في آخر الجزء الأول من بغية الطلب بابا للحديث عن قبائل كلاب التي قطنت ديار حلب، ولدى بحثي في تاريخ الدولة المرداسية أدركت أن كلاب عانت دوماً من التمزق والصراعات الداخلية.

فلما قطع سيف الدولة الفرات، أكرم أبا الفتح دون إخوته، وأركبه معه في العمارية[١]؛ وجعل سيف الدولة يسأله عن كل قرية يجتاز بها: ماسمها؟ فيقول أبو الفتح: هذه الفلانية! حتى عبروا بقرية يقال لها «ابرم» وهي قرية قريبة من الفايا[٢]. فقال له سيف الدولة: «ماسم هذه القرية؟» قال أبو الفتح: «أبرم». فظن سيف الدولة أنه قد أكرهه بالسؤال. فقال له أبْرم من الإبرام. فسكت سيف الدولة عن سؤاله. فلما عبروا بقرى كثيرة، ولم يسأله عنها علم أبو الفتح بسكوت سيف الدولة. فقال له أبو الفتح: «سيدي يا سيف الدولة، وحقِّ رأسك، إنّ القرية التي عبرنا عليها اسمها ابرم، واسألْ عنها غيري». فعجب سيفُ الدولة من ذكائه. فلما وصل حلب أجلسه معه على السرير.

ودخل سيف الدولة حلب، يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول، من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وكان القاضي بها أحمد بن محمد بن ماثل، فعزله وولّى أبا حصين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي؛ وكان ظالماً، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة. وقال: «كلّ من هلك فلسيف الدولة ماترك، وعلى أبي حصين الدّرك»[٣].

---

١ ـ العمارية هودج يجلس فيه.

٢ ـ الفايا: كورة بين منبج وحلب كبيرة، وهي من أعمال منبج في جهة قبلتها قرب وادي بُطنان، ولها قرى عامرة، فيها بساتين ومياه جارية. معجم البلدان.

٣ ـ بهامش الأصل: «هذه حكاية عجيبة من قاض ظالم يقول: كل من هلك فلسيف الدولة =

ثم إنَّ الإخشيذ سيّر عسكراً إلى حلب مع كافور ويانس المؤنسي[١]؛ وكان الأمير سيف الدولة غازياً بأرض الروم قد هتك بلد الصفصاف[٢] وعَرْبسُوس[٣] فغنم؛ ورجع فسار لطيته إلى الإخشيذية، فلقيهم بالرَّسْتن. فحمل سيفُ الدولة على كافور، فانهزم وازدحم أصحابه في جسر الرَّسْتن، فوقع في النهر منهم جماعة.

ورفع سيف الدولة السيف، فأمر غلمانه أَن لايقتلوا أحداً منهم. وقال: «الدم لي والمال لكم». فأسر منهم نحو أَربعة آلاف من الأمراء وغيرهم، واحتوى على جميع سواده.

ومضى كافور هارباً إلى حمص، وسار منها إلى دمشق؛ وكتب إلى الإخشيذ يعلمه بهزيمته؛ وأطلق سيفُ الدولة الأسارى جميعهم؛ فمضوا وشكروا فعله.

ورحل سيف الدولة بعد هزيمتهم إلى دمشق، ودخلها في شهر رمضان

= ماترك، وعلى أبي حصين الدرك. بئس ماقال هذا القاضي من المقالة القبيحة، وبئس مافعله من الفضيحة».

١ ـ في المقفى ج٥ ص٧٥١ : «فبعث ـ الاخشيذ ـ فاتك وكافور بالجيوش إلى الشام، ثم خرج يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين يريد محاربة سيف الدولة».

٢ ـ الصفصاف: كورة من ثغور المصيصة. معجم البلدان، ومن أجل المصيصة انظر بغية الطلب ج١ ص١٥٣ ـ ١٦٥ .

٣ ـ هي مدينة أفسوس في تركية، وكان من الرائج أنها مدينة أهل الكهف. انظر ماجاء حولها في بغية الطلب ج١ ص٣٣٠ ـ ٣٣٤ .

سنة ثلاث وثلاثين، وأقام بها. وكاتَبَهُ الإخشيذ يلتمس منه الموادعة، والاقتصار على ما في يده؛ فلم يفعل.

وخرج سيف الدولة إلى الأعراب؛ فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها. فبلغ الإخشيذ ذلك فسار من الرملة؛ وتوجه يطلب سيف الدولة؛ فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير حرب، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيذ. فاتبعه الإخشيذ إلى أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم؛ فجمع سيفُ الدولة، ولقيه بأرض قنسرين، في شوال من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وكان الإخشيذ قد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة، وانتقى من عسكره نحو عشرة آلاف؛ وسمّاهم الصابرية فوقف بهم في الساقة.

فحمل سيف الدولة على مقدمة الإخشيذ فهزمها، وقصد قبته وخيمه؛ وهو يظنه في المقدمة؛ فحمل الإخشيذ ومعه الصابرية فاستخلص سواده. ولم يقتل من العسكرين غير معاذ بن سعيد والي معرة النعمان، من قبل الإخشيذ؛ فإنه حمل على سيف الدولة ليأسره، فضربه سيف الدولة بمستوفى[1] كان معه فقتله.

وهرب سيف الدولة فلم يتبعه أحد من عسكر الإخشيذ وسار على حاله إلى الجزيرة فدخل الرقة. وقيل: إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها.

---

١ ـ المستوفى: عمود حديد، طوله ذراعين، مربع الشكل، له مقابض مدورة.

ودخل الإخشيذ حلب، وأفسد أصحابه في جميع النواحي، وقطعت الأشجارُ التي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً. وقيل: إنها كانت من أكثر المدن شجراً. وأشعار الصنوبري تدل على ذلك.

ونزل عسكر الاخشيذ على الناس بحلب؛ وبالغوا في أذى الناس لميلهم إلى سيف الدولة.

وعاد الإخشيذ إلى دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه وبين سيف الدولة، واستقر الأمر على أن أفرج الإخشيذ له عن حلب وحمص وأنطاكية. وقرّر عن دمشق مالاً يحمله إليه في كل سنة.

وتزوج سيف الدولة بابنة أخي الإخشيذ عبيد الله بن طغج[1]؛ وانتظم هذا الأمر على يد الحسن بن طاهر العَلَوي[2] وسفارته، في شهر ربيع الأول، سنة أَربع وثلاثين وثلاثمائة.

---

١ ـ في المقفى ج٥ ص١٧٥ : «وعادالاخشيذ إلى دمشق، فسار سيف الدولة إلى حلب وملكها، وبعث إلى الاخشيذ وهو في دمشق، فاصطلحا على مال يحمله للاخشيذ في كل سنة، وزوجه الاخشيذ بابنة أخيه».

٢ ـ ترجم ابن العديم للحسن بن طاهر في بغية الطلب ج٥ ص٢٤٠٨ ـ ٢٤١٣ ونقل عن ابن زولاق أنه بعدما هزم الاخشيد سيف الدولة عاد: «الأمير سيف الدولة عسكر مواجها للاخشيذ، فاختار الاخشيذ المسالمة، وراسله بالحسن بن طاهر على مال يحمله إليه، وأن يكون لسيف الدولة من خرشنة إلى حمص، وزوجه ابنته فاطمة، وكان الولي الحسن بن طاهر بتوكيل الاخشيذ، فسر سيف الدولة بذلك، وعقد النكاح، ونثر سيف الدولة في مضربه على الحاضرين ثلاثين ألف دينار، ونثر خارج المضرب أربعمائة ألف درهم. وحمل إلى الحسن بن طاهر مالاً كثيراً وخلعا وحملانا».

فسار الإخشيذ إلى دمشق وعاد سيف الدولة إلى حلب؛ وتوفي الإخشيذ بدمشق في ذي الحجة، من سنة أربع وثلاثين، وقيل: في المحرم من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

وملك بعده ابنه أبو القاسم أُنُوجُور؛ واستولى على التدبير أبو المسك كافور الخادم.

وكان سيف الدولة، فيما ذكر، قد عمل على تخلية الشام. فلما مات الإخشيذ سار كافور بعساكر مولاه إلى مصر من دمشق، وكان قد استولى على مصر رجل مغربي[1]، فحاربه كافور، وظفر به.

وخلتْ دمشق من العساكر، فطمع فيها سيف الدولة، وسار إليها فملكها؛ واستأمن إليه يانس المؤنسي في قطعة من الجيش.

وأقام سيف الدولة بدمشق، وجبى خراجها؛ ثم أتته والدته «نُعم» أمّ سيف الدولة إلى دمشق؛ وسار سيف الدولة إلى طبرية.

---

١ ـ ترجم المقريزي في المقفى ج٢ ص٣١٣ ـ ٣١٩ لأونوجور، أنه عندما مات الإخشيذ بدمشق كان أونوجور بمصر، وقد لحق به كافور فيما بعد، فخلت الشام من جيوش الاخشيذ فاستغل الفرصة هذه سيف الدولة فاستولى على دمشق وسار إلى طبرية، فما كان من أونوجور إلا أن «ندب العساكر إلى الشام، وعليها أبو المظفر ـ عم أونوجور ـ وكافور فسارا في جمع عظيم ومعهما الوزير أبو علي الحسين بن محمد بن علي الماذرائي إلى الشام، وقاتلا ابن حمدان، ودخلا دمشق» وفي أثناء غياب الجيش بالشام ورد الخبر بخلاف غلبون بن سعيد المغربي متولي اخميم وخروجه عن الطاعة، فندب لقتاله شادن الصقلبي فانهزم منه... فأخرج إليه عسكر آخر، ثم خرج أونوجور فلقيه فانهزم منه، وملك غلبون دار الامارة... ثم عاد أونوجور فانهزم غلبون، ولحق بالصعيد، فخرجت إليه العساكر، وأحضر رأسه».

وكان سيف الدولة في بعض الأيام يساير الشريف العقيقي بدمشق، في الغوطة بظاهر البلد، فقال سيف الدولة للعقيقي: «ما تصلح هذه الغوطة تكون إلا لرجل واحد»، فقال له الشريف العقيقي: «هي لأقوام كثير». فقال له سيف الدولة: «لئن أخذتها القوانين ليتبرأن أهلها منها». فأسرّها الشريف في نفسه، وأعلم أهلَ دمشق بذلك.

وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودائع الإخشيذ وأسبابه؛ فكاتبوا كافوراً فخرج في العساكر المصرية، ومعه أنوجور بن الإخشيذ.

فخرج سيف الدولة إلى اللَّجُّون، وأقام أياماً قريباً من عسكر الإخشيذ بـ«أَكْسَاك»[1]، فتفرق عسكر سيف الدولة في الضياع لطلب العلوفة، فعلم به الإخشيذية، فزحفوا إليه. وركب سيف الدولة يتشرف، فرآهم زاحفين في تعبئة، فعاد إلى عسكره فأخرجهم، ونشبت الحرب فقُتل من أَصحابه خلق وأسر كذلك.

وانهزم سيف الدولة إلى دمشق فأخذ والدته، ومن كان بها من أهله وأسبابه؛ وسار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين.

وجاء سيف الدولة إلى حمص؛ وجمع جمعاً لم يجتمع له قط مثله، من بني

---

١ ـ تبعد أكساك عن الناصرة ستة كم في اتجاه الجنوب الشرقي. ويجاورها من الشرق جبل الطور. معجم بلدان فلسطين لمحمد شراب.

عقيل، وبني نمير، وبني كلب، وبني كلاب؛ وخرج من حمص. وخرجت عساكر ابن طغج من دمشق، فالتقوا «بمرج عذراء» وكانت الوقعة أَولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه، فانهزم، وملكوا سواده؛ وتقطع أَصحابه في ذلك البلد، فهلكوا؛ وتبعوه إلى حلب، فعبر إلى الرّقة، وانحاز يانس المؤنسي من عساكر سيف الدولة إلى أنطاكية[1].

ووصل ابن الإخشيد حلب، في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة. فأقام بها وسيف الدولة في الرّقة فراسل أنوجور يانس المؤنسي وهو بأنطاكية، وضمن هو وكافور ليانس أن يجعلاه بحلب في مقابلة سيف الدولة، وضمن لهما يانس بأن يقوم في وجه سيف الدولة بحلب، وأن يعطيهم ولده رهينة على ذلك فأجابوه.

وانصرف كافور وأنوجور بالعسكر عن حلب إلى القبلة، وأتاها يانس فتسلمها. وقيل: إنَّ الإخشيدية عادوا.

وأقام سيف الدولة بحلب، فخالف عليه يانس والساجية، وأَرادوا القبض عليه، فهرب وكُتابه، وأَصحابه، إلى الرّقة. وملك يانس حلب.

ولم يقم يانس بحلب إلا شهراً، حتى أسرى إليه سيف الدولة إلى حلب، في شهر ربيع الآخر، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة؛ فكبسه، فانهزم يانس إلى سَرْمين[2] يريد الإخشيد. فأنفذ سيف الدولة في طلبه سرية مع

١ ـ انظر المقفى للمقريزي ج٢ ص٣١٦ .

٢ ـ سرمين الآن قرية تتبع ناحية قرى مركز ومنطقة أدلب، تبعد عن ادلب ٩كم إلى الجنوب الشرقي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

ابراهيم بن البارد العُقيلي، فأدركته عند ذاذيخ[١]؛ فانهزم، وخلّى عياله، وسواده، وأولاده. وانهزم إلى أخيه بميّافارقين.

وكان ابن البارد قد وصل إلى سيف الدولة، في سنة خمس وثلاثين؛ وكان في خدمة أخيه ناصر الدولة، ففارقه، وقدم على سيف الدولة.

ثم إنَّ الرّسل ترددتْ بين سيف الدولة وابن الإخشيد وتجدّد الصلح بينهما على القاعدة التي كانت بينه وبين أبيه، دون المال المحمول عن دمشق.

وعمر سيف الدولة داره بالحلبة[٢]، وقلّد أبا فراس ابن عمه منبج، وما حولها من القلاع. واستقرت ولاية سيف الدولة لحلب من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. وهذه هي الولاية الثالثة.

وجرى بينه وبين الروم وقائع أكثرها له وبعضها عليه.

فمنها: أنه فتح حصن بَرْزُويه[٣] في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة من ابن اخت أبي الحجر الكردي[٤]. ووقع بينه وبين الروم وقعة فكانت الغلبة للروم

١ ـ ذكر ياقوت قرية ذا ذيخ وعدها من قرى سرمين.

٢ ـ من المعتقد أن موقع الحلبة، وكان خارج حلب، حيث الآن مركز انطلاق السيارات إلى المحافظات.

٣ ـ وصف ابن العديم حصن برزويه وذكر أنه كان يعرف في أيامه باسم حصن برزيه. بغية الطلب ج١ ص٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، وبرزية الآن قلعة في السفوح الشرقية لجبال اللاذقية، حملت قديما اسم ليزياس، على بعد ٣كم شرق مضيق سلمى، مساحتها ثلاثة هكتارات، يحيط بها سور محصن بعشرة أبراج مربعة أو مستطيلة، وظلت مقطونة حتى القرن الرابع عشر م. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ـ ط. طرابلس ١٩٩٠ ص٧٧ ، «وفيه يومئذ أبو تغلب الكردي».

وملكوا مرعش ونهبوا طرسوس. وسار إلى ميّافارقين، واستخلف على حلب ابن أخيه محمد بن ناصر الدولة؛ وخرج لاون الدمستق إلى «بوقا»[1] من عمل أنطاكية. وخرج إليه محمد[2] فكسره الدمستق، وقَتَلَ من عسكره خلقاً، في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

ومنها: أنه غزا، سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ومعه خلقٌ عظيمٌ، فظفر فيها، وغنم غنيمة كثيرة. فلما رجع إلى درب الجوزات[3]، وفارقه أهل الثغور، فاجتمع الروم في الدّرب على سيف الدولة، فقتل خلق عظيم من المسلمين؛ وأسر كذلك.

وما سلم إلا سيف الدولة على ظهر فرسه، وعرفوه فطلبوه، ولزّوه إلى جبل عظيم، وتحته واد، فخاف أن يأسروه إن وقف أَو رجع، فضرب فرسه بالمهماز، وقبله الوادي، لكي يقتل نفسه، ولا يأسروه فوقع الفرس قائماً[4].

وخرج سيف الدولة سالماً. وسمّيت هذه الغزاة غزاة المصيبة[5]، وأخذ

١ ـ بوقا حصن إلى الشمال من أنطاكية. معجم البلدان. بغية الطلب ج١ ص٢٢٩.

٢ ـ محمد بن ناصر الدولة الحمداني. تاريخ يحيى بن سعيد ص٧٨.

٣ ـ حصن الجوزات بينه وبين طرسوس ثمانية فراسخ وهو بين البذندون وطرسوس، وهو حصن مذكور موصوف بالقوة. بغية الطلب ج١ ص٢١٢ ـ ٣١٣.

٤ ـ كانت أسس الاستراتيجية البيزنطية في حروب الامبراطورية مع سيف الدولة هي السماح له بقطع الممرات الصعبة في الجبال، والتحرش به في الداخل واشغاله حتى تتمكن قوات البند من الرجالة من الانتشار بالممرات الجبلية وإقامة كمائن، وفي طريق العودة كانت هذه القوات تعمل على حصر قوات سيف الدولة في الممرات وابادتها، هذا وتمركز في الجبال دوما قوات للانذار البيزنطي استخدمت المرايا العاكسة والنيران وشارات الدخان.

٥ ـ من المرجح أن تاريخ يحيى بن سعيد هو مصدر ابن العديم، انظر ص٧٨ ـ ٧٩.

له من الآلات، والأموال، مالايحصى حتى أنه ذكر أنه هلك منه من عرض ما كان معه في صحبته خمسة آلاف ورقة بخط أبي عبيد الله بن مقلة ـ رحمه الله ـ وكان منقطعاً إلى بني حمدان، وكان قد بلغ سيف الدولة إلى سمندو[١] وأحرق صارخة[٢] وخرشنة[٣].

ومنها: أنَّ سيف الدولة بنى مرعش في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وأتاه الدمستق بعساكر الروم ليمنعه منها فأوقع به سيف الدولة الوقعة العظيمة المشهورة[٤].

ومنها: أنَّ سيف الدولة دخل بلد الروم، في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وأغار على زبطره[٥] والتقاه قسطنطين بن بَرْدَس الدّمستق على دَرْبِ مَوْزار[٦] وقتل من الفريقين خلق. ثمّ تم سيف الدولة إلى الفرات، وعبره، وقصد بطن هِنْزِيط[٧]، ودخل سيف الدولة سميساط[٨]، فخرج الدمستق إلى

١ ـ سمندو: بلد في وسط بلاد الروم في شمالي طريق مرعش إلى قيصرية. معجم البلدان.
٢ ـ ذكر ياقوت صارخة وأن سيف الدولة غزاها سنة ٣٣٩هـ.
٣ ـ خرشنة بلد قرب ملطية بين سيواس وقيصرية. معجم البلدان.
٤ ـ أفرد ابن العديم في بغية الطلب باباً لذكر مرعش، وذكر هذه الوقعة التي قال فيها المتنبي:
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
٥ ـ زبطرة: بلدة قريبة من الحدث، بينها وبين الحدث ثمانية عشر فرسخاً. بغية الطلب ج١ ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.
٦ ـ على مقربة من ملطية. تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٣. معجم البلدان.
٧ ـ من ثغور الروم، ورد ذكره في شعري المتنبي وأبي فراس. معجم البلدان.
٨ ـ مدينة صغيرة على الفرات ولها قلعة حصينة. بغية الطلب ج١ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ناحية الشام؛ فرجع سيف الدولة، فلحقّهُ وراء مرعش، فأوقع به، وهزم جيشه، وقتل لاون البطريق في الحرب، وأسر قسطنطين ولد الدمستق، وحمّله الإبريق إلى بيت الماء؛ وكان أمرد، فخرج فوجده قائماً يبكي، ولم يزل عنده حتى مات من علة اعتلها[1].

وكان الدمستق استتر في تلك الوقعة في القناة ودخل فترهب، ولبس المُسُوحَ؛ ففي ذلك يقول المتنبي:

فَلَوْ كَان يُنْجِي مِنْ «عَليٍّ» تَرَهبٌ ... تَرَهَّبَتِ الأمْلاكُ مَثْنَى وَمَوْحَدَا[2]

وقال أبو العباس أحمدُ بنُ مُحَمَّدٍ النَامي[3]:

لَكِنَّهُ طَلَبَ التَّرَهُّبَ خِيفَةً ... مِمَّنْ لَهُ تَتَقَاصَرُ الأعْمَارُ
فَمَكَانُ قَائِمِ سَيْفِهِ عُكَّازُهُ ... وَمَكَانُ مَا يَتَمَنْطَقُ الزُّنَّارُ

١ ـ نقل ابن العديم في بغية الطلب ص٢٥٣٢ عن «تاريخ أبي اسحق ابراهيم بن حبيب السقطي صاحب كتاب الرديف في حوادث سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة في ذكر من توفي فيها قال: وفيها، أو في سنة ثلاث وخمسين مات أبو العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ببلد الروم في أسره مسموما، وكان السبب في سمه أن ملك الطاغية بلغه أن علي بن حمدان فسق بابن قسطنطين، كان في أسره فأنفذوا من بلد الروم من سمه فهلك، وسمّوا هم أبا العشائر بن حمدان حنقا لما جرى من قتلهم ابن قسطنطين». وجاء في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ـ ط. دمشق ١٩٩١ ج١ ق٢ ص٣١٢ عن ابن أبي طي الحلبي: «أن قسطنطين المأسور كان في غاية الحسن، فبذل أبوه فيه ثمانمائة ألف دينار، وثلاثة آلاف أسير، فاشتط سيف الدولة، فسير الدمستق إلى عطار كان بحلب، نصرانيا، وأمره أن يسقي ولده سما ففعل فمات، وعدت هذه من غلطات سيف الدولة».

٢ ـ ديوان المتنبي ص٩٤.

٣ ـ أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي، المعروف بالنامي، كان من خواص سيف الدولة، وعدّ بالمرتبة التالية للمتنبي. يتيمة الدهر ج١ ص٢٤١ ـ ٢٤٩.

وبنى سيف الدولة الحدث[1]، وقصده الدمستق بردس، فاقتتلا سحابة يومهما. وكان النصر للمسلمين، وذلك في سنة ثلاث وأربعين، وأسر صهر الدمستق على ابنته اعورجرم[2]، بعد أن سلمها أهلها إلى الدمستق.

ومنها: أن سيف الدولة غزا سنة خمس وأربعين بطن هنزيط ونزل شاطىء أرسناس[3]، وكبس يانس ابن شمشقيق[4] على تل بطريق[5] فهزمه وفتحها.

وقتل في هذه الوقعة رومانوس بن البلنطس صهر ابن شمشقيق، وأسر ابن قلموط[6]، وانثنى سيف الدولة قافلاً إلى درب الخياطين[7]، فوجد عليه

١ ـ وتعرف بالحدث الحمراء لحمرة أرضها، وهي مدينة كثيرة الماء والزروع. بغية الطلب ج١ ص٢٣٩ .

٢ ـ في بغية الطلب ج١ ص٢٤٢ : «وكان أسر قودس ـ أي Theodose الأعور بطريق سمندو وابن ابنة الدمستق» انظر أيضاً.
Cambridge Medieval History, Vol 4, PartI, PP 719—20.

٣ـ هو نهر «مرادصو» اليوم، ويعد من فروع الفرات، وقال عنه ياقوت. «نهر ببلاد الروم يوصف ببرودة مائه».

٤ ـ يوحنا تذمسيس، وكان من أصل أرمني، وهو بالأرمنية Gemezkig ومعناه «قصير القامة» أعلن امبراطورا سنة ٩٦٩م واستمر حتى سنة ٩٧٦م. أوربا العصور الوسطى لعاشور ـ ط. القاهرة ١٩٦٦ ص٤٢٣ .

٥ ـ يقع تل بطريق على الطرف الغربي للفرات، بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ. معجم البلدان.

٦ ـ انظر نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني، لموريس كنار ـ ط. الجزائر ١٩٣٤ ص٣٧٨ .

٧ ـ حدده كنار ص١١٦ بأنه قريب من آمد.

كذو بن الدمستق فأوقع به وهزمه.

وخلف ابن عمه أبا العشائر الحسين بن عليّ عَلَى عمارة عرنداس فقصده ليون بن الدمستق فهزمه، وأسره، وحمله إلى قسطنطينية، فمات بها[1]. وغزا في هذه السنة في جمادى الآخرة مع أهل الثغور وخرب مواضع من بلاد الروم مثل خرشنة وصارخة. وأسر الرُست بن البلنطس؛ وأسر لاون بن الاسطراطيغوس، وابن غُذال بطريق مقدونية؛ وهرب الدمستق وبركيل بطريق الخالديات؛ فلما قفل سيف الدولة فكَّ قيود الأسارى، وخلع عليهم، وأحسن إليهم[2].

وفي جمادى الأولى من سنة ست وأربعين كاتب الروم جماعة من غلمان سيف الدولة بالقبض عليه، وحمله إلى الدمستق عند شخوصه لمحاربته؛ وبذل لهم مالاً عظيماً على ذلك. فخرج سيف الدولة عن حلب وقد عزموا على ذلك، فصار بعض الفراشين إلى ابن كيغلغ فأخبره بما عزموا عليه؛ فأعلم سيف الدولة، فجمع الأعراب والدّيلم؛ وقتل منهم مائة وثمانون غلاماً، وقبض على زهاء مائتي غلام، فقطع أيديهم وأرجلهم وألسنتهم، وهرب بعضهم.

وعاد إلى حلب وقتل من بها من الأسرى، وكانوا زهاء أربعمائة أسير؛

---

١ ـ لأبي العشائر ترجمة جيدة في بغية الطلب ص٢٥٢٧ ـ ٢٥٣٢ ، فيها تفاصيل ما أوجز هنا.
٢ ـ انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٧ .

وضيّق على ابن الدمستق، وزاد في قيده، وصيّره في حجرة معه في داره، وأحسن إلى ذلك الفراش، وقلّد ابن كيغلغ أعمالاً، وتنكر على سائر غلمانه.

ومنها: أن يانس بن شمشقيق خرج إلى ديار بكر، ونزل على حصن اليماني[1]. وعرف سيف الدولة خبره، فسيّر إليه نجا الكاسكي في عشرة آلاف فارس، فالتقاه فانهزم نجا، وقُتل من أصحابه خمسة آلاف فارس؛ وأُسر مقدار ثلاثة آلاف راجل؛ واستولى على سواد نجا كله.

وسار ابن شمشقيق والبراكموس[2] إلى حصن سميساط، وفتحاه؛ ثم سارا إلى رعبان[3]، وحصراها؛ وسار سيف الدولة إليهما، ولقيهما؛ فاستظهر الروم عليه استظهاراً كثيراً.

وعاد سيف الدولة منهزماً وتبعه الروم وقتلوا، وسبوا من عشيرته وقواده مايكثر عدده؛ وذلك في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة[4].

وفي هذه السنة قدم ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بن حمدان[5] أخو

---

١ ـ انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٨ . حيث قال: «ونزل على حصن يقال له اليماني من عمل آمد».

٢ ـ Basile le parakimaumene الابن الطبيعي للامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ ـ ٩٦٣م) والذي سيكون الامبراطور باسيل الثاني سفاح البلغار [٩٧٦ ـ ١٠٢٥م].

٣ ـ رعبان مدينة صغيرة، قديمة البناء، ولها قلعة حسنة، بينها وبين الحدث سبعة فراسخ. بغية الطلب ج١ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

٤ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٨ ـ٨٩ .

٥ ـ لناصر الدولة ترجمة في بغية الطلب ص٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٧ .

سيف الدولة مستنجداً بأخيه سيف الدولة إلى حلب ومعه جميع أولاده عندما قصد معز الدولة الموصل. وتلقاه سيف الدولة على أَربع فراسخ من حلب، ولما رآه ترجل له. وأَنفق سيف الدولة عليه وعلى حاشيته؛ وقدم لهم من الثياب الفاخرة والجوهر ماقيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وكان يجلس ناصر الدولة على السرير؛ ويجلس سيف الدولة دونه. ولما دخل دار سيف الدولة وجلس على السرير؛ جاء سيف الدولة لينزع خفه من رجله؛ فمدَّهما إليه، فنزعهما بيده. وصعب على سيف الدولة لأنه قدّر أَنه إذا خفض له نفسه إلى ذلك رفعه عنه، فلم يفعل ذلك إظهاراً لمن حضر أنه وإن ارتفعت حاله، فهو كالولد والتبع. وكان يعامله بأشياء نحو ذلك قبيحة كثيرة فيحتملها على دخن. وتحمل عنه سيف الدولة لمعز الدولة مائتي ألفاً من الدراهم حتى انصرف عنه[1].

وفي هذه السنة مات قسطنطين بن لاوي[2] ملك الروم، وصيّر نفقور بن الفقَّاس دمستقاً على حرب المغرب، وأخاه ليون بن الفقاس دمستقاً على حرب المشرق؛ فتجهّز ليون إلى نواحي طرسوس[3]، وسبى، وقتل، وفتح

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٩ ـ ٩٠ . أخبار الدولة الحمدانية لعلي ابن ظافر الأزدي ـ ط. دمشق ١٩٨٥ ص١٨ ـ ١٩ .

٢ ـ هو عند يحيى بن سعيد ص٩١ «ابن لاون».

٣ ـ ماتزال طرسوس تحمل الاسم نفسه في تركيه، وكانت أهم مدن الثغور، «بها كان يقوم سوق الجهاد، وينزلها الصالحون والعبّاد، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد». اهتم بها ابن العديم وأودع كتابه بغية الطلب مواداً ثمينة عنها ج١ ص١٧٥ ـ ٢٠٤ .

الهارونيّة[1]، وسار إلى ديار بكر.

وتوجّه إليه سيف الدولة فرحل الدمستق راجعاً إلى الشام؛ وقتل من أهله عدداً متوافراً، وأخرب حصوناً كثيرة من حصون المسلمين؛ وأسر محمد بن ناصر الدولة.

ومنها: غزوة مغارة الكُحل[2]: غزا سيف الدولة في سنة ثمان وقيل تسع وأربعين وثلاثمائة بلاد الروم، فقتل، وسبى. وعاد غانماً يريد درب مغارة الكحل؛ فوجد ليون بن الفقاس الدّمستق قد سبقه إليه، فتحاربوا؛ فغُلب سيف الدولة. وارتجع الروم ماكان أخذه المسلمون؛ وأخذوا خزانة سيف الدولة وكراعه وقُتل فيها خلق كثير.

وأُسر أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وترك بخرشنة. وأُسر علي بن منقذ بن نصر الكناني فلم يؤخذ له خبر. وأُسر مطر بن البلدي، وقاضي حلب أبو حصين الرقي، وقتلا. وقيل: إنَّ أبا حصين قُتل في المعركة فداسه سيفُ الدولة بحصانه، وقال: «لارضي الله عنك، فإنَّك كنتَ تفتحُ لي أبوابَ الظلم». وقيل: إنهم لما أخذوا الطرق على سيف الدولة وثب به حصانه عشرين ذراعاً. وقيل: أربعين؛ فنجا في نفر قليل.

وولى سيف الدولة، بعد قتل أبي حصين، أحمد بن محمد بن ماثل

---

١ ـ الهارونية حصن صغير غربي جبل اللكام، بناه هارون الرشيد. بغية الطلب ج١ ص٢١٩ .

٢ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٤ «مغارة الكحك» ويستدل من روايته أن هذا الموقع كان على مقربة من المصيصة.

قضاء حلب، وكان قد عزله بأبي حصين حين ملك. وذلك أنه لما قدم حلب خرج للقائه أبو طاهر بن ماثل فترجل له أهل حلب، ولم يترجل القاضي لأحد، فأغتاظ سيف الدولة وعزله.

ثم قدم سيف الدولة من بعض غزواته فترجل له ابن ماثل مع الناس. فقال له: «ماالذي منعك أولاً، وحملك ثانياً؟». فقال له: «تلك المرة لقيتُك وأَنا قاضي المسلمين، وهذه الدفعة لقيتُك، وأَنا أَحد رعاياك». فاستحسن منه ذلك.

فلما قتل أَبو حصين أعاده إلى القضاء. وولّى سيف الدولة أَيضاً قضاء حلب أبا جعفر أحمد بن اسحاق بن محمد بن يزيد بن الحلبي المعروف بالجرد، وكان حنفي المذهب.

ونقل الملك رومانوس إلى حرب المشرق نقفور بن الفقاس الدمستق؛ فسار إليه رشيق النسيمي أمير طرسوس في حميّة من المسلمين؛ فبرز إليه نقفور فقاتله؛ وانهزم رشيق وقُتل من المسلمين زهاء تسعة آلاف رجل[1].

وعاد نقفور فضايق عين زربه[2] وفتحها بالأمان في ذي القعدة سنة خمسين وثلاثمائة؛ وهدم سورها فانهزم أهلها إلى طرسوس. وفتح حصن دلوك، ومرعش، ورعبان، في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة[3].

---

١ ـ لرشيق النسيمي ترجمة غنية بالمعلومات في بغية الطلب ص٣٦٥٦ ـ ٣٦٥٨.
٢ ـ مدينة من الثغور الشامية، بينها وبين المصيصة ثمانية عشر ميلا. بغية الطلب ج١ ص١٦٧.
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٦ ـ ٩٧.

ثم إنّ نقفور بن الفقاس الدمستق ويانس بن شمشقيق قصدا مدينة حلب في هذه السنة، وسيف الدولة بها، وكانت موافاتُها كالكبسة. وقيل: إنَّ عدة رجاله مائتا ألف فارس، وثلاثون ألف راجل بالجواشِن، وثلاثون ألف صانع للهدم وتطريق الثلج، وأربعة آلاف بغل عليها حسك حديد يطرحه حول عسكره ليلاً.

ولم يشعر سيف الدولة بخبرهم، حتى قربوا منه. فأنفذ إليهم سيف الدولة غلامه «نجا» في جمهور عسكره، بعد أن أشار عليه ثقاته ونصحاؤه بأن لايفارق عساكره. فأبى عليهم ومضى نجا بالعسكر إلى الأثارب[١]. ثم توجه منها داخلاً إلى أنطاكية فخالفه عسكر الروم؛ ووصل إلى دلوك؛ ورحل منها إلى تل حامد[٢]، ثم إلى تُبّل[٣].

واتصل خبره بسيف الدولة فعلم أنه لايطيقه مع بُعد جمهور العسكر عنه، فخرج إلى ظاهر حلب وَجَمع الحلبيين وقال لهم: «عساكر الروم تصل اليوم، وعسكري قد خالفها؛ والصواب أن تغلقوا أبواب المدينة، وتحفظوها؛ وأمضي أنا ألتقي عسكري، وأعود إليكم وأكون من ظاهر البلد، وأنتم من باطنه، فلا يكون دون الظفر بالروم شيء».

---

١ ـ تعرف الآن بالأتارب، وهي بلدة ومركز ناحية تتبع منطقة جبل سمعان وتبعد عن حلب ٣٠كم نحو الجنوب الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.
٢ ـ تل حامد المذكور هنا واقع إلى الجنوب من دلوك. نخب تاريخية لكنار ص٣٨٤ .
٣ ـ تبل من قرى عزاز وتبعد عنها ٨كم. انظرها في معجم البلدان.

فأبى عامة الحلبيين وغوغاؤهم، وقالوا: «لاتحرمنا أيها الأمير، الجهاد؛ وقد كان فينا من يعجز عن المسير إلى بلد الروم للغزو، وقد قربت علينا المسافة». فلما رأى امتناعهم عليه، قال لهم: «اثبتوا فإنّي معكم».

وكان سيف الدولة على بانقوسا[١]، ووردت عساكر الروم إلى الهزازة[٢]، فالتقوا فانهزم الحلبيون، وقُتل وأسِر منهم جماعة كثيرة وقُتل أبو داود بن حمدان، وأبو محمد الفياضي كاتب سيف الدولة[٣]، وبشرى الصغير غلام سيف الدولة؛ وكان أسْنَدَ الحرب ذلك اليوم إليه، وجعله تحت لوائه.

ومات في باب المدينة المعروف بباب اليهود[٤] ناس كثير لفرط الزحمة. وكان سيف الدولة راكباً على فرس له يعرف بالفَحّى؛ فانهزم مشرقاً حتى بعد عن حلب. ثم انحرف إلى قنّسرين فبات بها.

وأقام الروم على ظاهر البلدة أربعة أيام محاصرين لها، فخرج شيوخُ حلب إلى نقفور يسألونه أن يهب لهم البلد، فقال لهم: «تُسلّمون إليَّ ابنَ

١ ـ بانقوسا الآن من أحياء حلب، وقال عنها ياقوت: جبل في ظاهر مدينة حلب.

٢ ـ الهزازه الآن من أحياء الشمال الغربي من حلب.

٣ ـ له ترجمة في يتيمة الدهر، حيث قال عنه الثعالبي: أبو محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض، كاتب سيف الدولة ونديمه، أخذ بطرفي النظم والنثر، وكان سيف الدولة لايؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً، لحسن عبارته وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد. يتيمة الدهر ج١ ص١١٧ ـ ١١٩.

٤ ـ هو الباب الشمالي لمدينة حلب، سمى بذلك لأن محال اليهود كانت من داخله، غيره السلطان الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين، وإثر ذلك «سمي الباب باب النصر، ومحي عنه اسم باب اليهود» بغية الطلب ج١ ص٥٥.

حمدان». فحلفوا أن، ابن حمدان ما هو ف البلد. فلما علم أن سيف الدولة غائب عنها طمع فيها وحاصرها.

وقيل: إنَّ نقفور خرج إليه شيوخُ حلب باستدعاءٍ منه لهم، يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة من السنة. وكان نزوله على المدينة، يوم السبت العشرين من ذي القعدة. وجرى بينه وبينهم خطابٌ آخره على أن يؤمنهم، ويحملوا إليه مالاً، ويمكِّنوا عسكره أن يدخل من باب ويخرج من آخر، وينصرف عنهم عن مقدرة. فقالوا له: «تمهلنا الليلة حتى نتشاور، ونخرج غداً بالجواب». ففعل، ومضوا، وتحدّثوا، وخرجوا بكرة الثلاثاء إليه، فأجابوه إلى ماطلب. فقال لهم نقفور: «أظنكم قد رتبتم مقاتلتكم في أماكن مختفين بالسلاح حتى إذا دخل من أصحابي من يمكنكم أن تطبقوا عليه وتقتلوه فعلتم ذلك». فحلف له بعضهم من أهل الرأي الضعيف أنه مابقي بالمدينة من يحمل سلاحاً، وفيه بطش، فكشفهم نقفور عند ذلك، فعند ذلك قال لهم: «انصرفوا اليوم واخرجوا إليَّ غداً»؛ فانصرفوا.

وقال نقفور لأصحابه: «قد علمتم أنه مابقي عندهم من يدفع، فطُوفوا الليلة بالأسوار ومعكم الآلة، فأي موضع رأيتموه ممكناً فتسوَّروا إليه، فانكم تملكون الموضع.

فطافوا، وكتموا أمرهم، وأبصروا أقصر سور فيها مما يلي الميدان بباب قنّسرين، فركبوه، وتجمعوا عليه؛ وكان وقت السحر، وصاحوا، ودخلوا المدينة.

وقيل: إنَّ أَهل حلب قاتلوا من وراء السور، فقُتل جماعة من الروم بالحجارة والمقالع؛ وسقطت ثلمةٌ من السور على قوم من أهل حلب فقتلتهم. وطمع الروم فيها فأكبوا عليها، ودفعهم الحلبيون عنها؛ فلما جنَّهم الليل اجتمع عليها المسلمون، فبنوها، فأصبحوا وقد فرغت، فَعَلَوْا عليها وكبّروا؛ فبعُد الروم عن المدينة إلى جبل جوشن[1].

فمضى رجّالة الشرط وعوام الناس إلى منازل الناس، وخانات التجار، لينهبوها. فاشتغل شيوخ البلد عن حفظ السور، ولحقوا منازلهم. فرأى الروم السور خالياً فتجاسروا، ونصبوا السلالم على السور، وهدموا بعض الأبدان، ودخلوا المدينة من جهة برج الغنم، ليلة الثلاثاء لثمان بقين من ذي القعدة من سنة إحدى وخمسين. وقيل: يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة، في السحر.

وأخذ الدمستق منها خلقاً من النساء والأطفال؛ وقتل معظم الرجال، ولم يسلم منه إلا من اعتصم بالقلعة من العلويين، والهاشميين والكُتَّاب، وأَرباب الأموال. ولم يكن على القلعة يومئذ سورٌ عامرٌ فإنها كانت قد تهدَّمت، وبقي رسومها. فجعل المسلمون الأُكُف[2] والبراذع بين أيديهم.

وكانت بها جماعة من الديلم الذين ينسب إليهم درب الدَّيلم[3]

١ ـ جبل جوشن في ظاهر حلب غربيها.
٢ ـ جمع أكاف، أي البراذع.
٣ ـ على مقربة من باب الجامع الشرقي. الأعلاق الخطيرة ج١، ق١، ص٣٤٤.

بحلب، فزحف إليها ابن أخت الملك، فرماه ديلميّ فقتله فطلبه من الناس فرموه برأسه، فقَتل عند ذلك من الأسرى اثني عشر ألف أسير. وقيل أكثر من ذلك، وقيل أقلّ؛ والله أعلم.

وأقام نقفور بحلب ثمانية أيام ينهب، ويقتل، ويسبي باطناً وظاهراً. وقيل: إنّه أخرب القصر الذي أنشأه سيف الدولة بالحلبة، وتناهى في حسنه، وعمل له أسواراً، وأجرى نهر قويق فيه من تحت الخناقية[1]، يمر من الموضع المعروف بالسقايات حتى يدخل في القصر من جانب، ويخرج من آخر، فيصب في المكان المعروف بالفَيْض[2]، وبنى حوله اصطبلاً ومساكن لحاشيته.

وَقِيل: إنَّ ملك الروم وجد فيه لسيف الدولة ثلاثمائة وتسعين بدرة دراهم؛ ووجد له ألفاً وأربعمائة بغل، فأخذها. ووجد له من خزائن السلاح ما لايحصى كثرة فقبض جميعَها، وأحرق الدار فلم تعمر بعد ذلك؛ وآثارها إلى اليوم ظاهرة.

ويقال: إنَّ سيف الدولة رأى في المنام أَنَّ حيَّةً قد تطوقتْ على داره فعظُم عليه ذلك، فقال له بعض المفسرين: الحيّة في النوم ماء. فأمر بحفرٍ يُحْفَرُ بين داره وبين قويق، حتى أدار الماء حول الدار.

وكان في حمص رجل ضرير من أهل العلم يفسر المنامات، فدخل على

---

١ ـ من منتزهات حلب، وسلفت الاشارة إلى تحديد مكان قصر سيف الدولة في أنه حيث مركز انطلاق السفريات إلى المحافظات.

٢ ـ من منتزهات حلب. تاريخ حلب لابن الشحنه ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص٢٤٥ .

سيف الدولة فقال له كلاماً معناه: أَنَّ الروم تحتوي على دارك. فأمر به فدفع، وأُخرج بعنف. وقضى الله سبحانه أَنّ الروم خرجوا، ففتحوا حلب، واستولوا على دار سيف الدولة، فذكر معبّر المنام أنه دخل على سيف الدولة بعدما كان من أَمر الروم، فقال له: ماكان من أمر ذلك المنام الملعَّن؟.

وكان المعتصمُون بالقلعة والروم بالمدينة تحت السماء ليس لهم ما يظلهم من الهواء والمطر، ويتسلَّلون في الليل إلى منازلهم فإن وجدوا شيئاًمن قوت أَو غيره أخذوه وانصرفوا.

ثم ان نقفور أحرق المسجَد الجامعَ وأَكثرَ الأسواق، والدارَ التي لسيف الدولة، وأَكثرَ دور المدينة. وخرج منها سائراً إلى القسطنطينية بعد أَن ضرب أَعناق الأسارى من الرجال، حين قتل ابن أُخت الملك؛ وكانوا ألفاً ومائتي رجل[١].

وسار بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التي حولها. وقال: «هذا البلد قد صار لنا، فلا تقصروا في عمارته؛ فَإنَّا بعد قليل نعود إليكم».

وكان عدة من سبى من الصبيان والصبايا بضعة عشر أَلف صبي وصبية؛ وأَخذهم معه.

وقيل: إنَّ جامع حلب كان يُضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء ـ وهي الفص المذهب ـ إلى أن أَحرقه الدمستق ـ لعنه الله ـ وإنَّ

١ ـ تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٧ ـ ٩٩.

سليمان بن عبد الملك اعتنى به كما اعتنى أخوه الوليد بجامع دمشق[1].

وسار الدمستق عنها، يوم الأربعاء مستهل ذي الحجة من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

واختلف في السبب الذي أوجب رحيل نقفور عن حلب، فقيل: إنه ورد إليه الخبر أن رومانوس الملك وقع من ظهر فرسه في الصيد بالقسطنطينية، وانهم يطلبونه ليملكوه عليهم.

وقيل: سبب رحيله أن نجا عاد بجمهور العسكر إلى الأمير سيف الدولة فاجتمع به. وجعل يُواصل الغارات على عسكر الروم، وتبلغ غاراته إلى السَعْدِي[2]؛ وأنه أخذ جماعة من متعلقة الروم. واستنجد سيفُ الدولة بأهل الشام، فسار نحوه ظالم بن السلال العقيلي[3] في أهل دمشق؛ وكان يليها من قبل الإخشيذية. فكان ذلك سبباً لرحيله عن حلب.

وكان هذا نقفور بن الفقاس الدمستق، قد دوّخ بلاد الإسلام، وانتزع من أيدي المسلمين جملة من المدن، والحصون، والمعاقل؛ فانتزع الهارونية،

---

١ ـ نقل ابن شداد في الأعلاق الخطيرة ج١ ق١ ص١٠٣ ـ ١٠٥ عن ابن العديم وصف المسجد الجامع في حلب.

٢ ـ من منتزهات حلب. ابن الشحنة ص٢٤٥.

٣ ـ يرجح أن المشار إليه هنا هو ظالم بن موهوب العقيلي الذي ولي دمشق للفاطميين سنة ٣٦٠هـ، حيث يبدو أنه عمل من قبل مع الاخشيذية ثم تعاون مع القرامطة. انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ـ تحقيقي ـ ط. دمشق ١٩٨٣ ص٩.

وعين زربه ـ كما ذكرناه ـ وكذلك دلوك، وأذنة[١]، وغير ذلك من الثغور.

ونزل على أذنه في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين، ولقيه نفير طرسوس فهزمهم وقتل منهم مقدار أربعة آلاف، وانهزم الباقون إلى تلٍّ بالقرب من أَذنة؛ فأَحاط الروم بهم وقاتلوهم وقتلوهم بأسرهم.

وهرب أَهل أَذنة إلى المَصِّيصَة[٢] وحاصرها نقفور مدة فلم يقدر عليها بعد أن نقب في سورها نقوباً عدة. وقلت الميرة عندهم فانصرف، بعد أَن أَحرق ماحولها.

وورد في هذا الوقت إلى حلب انسان من أَهل خراسان ومعه عسكر لغزو الروم؛ فاتفق مع سيف الدولة على أَن يقصدا نقفور وكان سيف الدولة عليلاً فحمل في قبَّة؛ فألفياه وقد رحل عن المصّيصة.

وتفرقت جموع الخراساني لشدة الغلاء في هذه السنة بحلب والثغور؛ وعظم الغلاء والوباء في المصيصة وطرسوس حتى أكلوا الميتة.

وعاد نقفور إلى المصيصة وفتحها بالسيف في رجب سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة. وفتح أَيضاً كَفَرْبَيَّا في هذه السنة ومرعش. وفتح طرسوس من أَيدي المسلمين في شعبان سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة[٣].

---

١ ـ هي أضنه الحالية في تركيا، أفرد لها ابن العديم بابا في كتابه بغية الطلب ج١ ص١٦٩ ـ ١٧١.

٢ ـ من مدن الثغور، تشتمل على مدينتين بينهما نهرجيجان: مدينة المصيصة من الجانب الغربي من النهر، ومدينة كفربيا من الجانب الشرقي. بغية الطلب ج١ ص١٥٣ ـ ١٦١.

٣ ـ المادة التي رواها ابن العديم عن سقوط طرسوس وثائقية آخرها: «أن نقفور لما صالح أهل =

وكان المسلمون يخرجون في كل سنة ويزرعون الزرع فيأتي بعساكره فيفسده.

فضعفت، وتخلّى ملوك الإسلام عن أهل الرباط بها؛ وكان فيها فيما ذكر أربعون ألف فارس، وفي عتبة بابها أثر الأسنّة إلى اليوم. فلما رأى أهلها ذلك راسلوا نقفور المذكور، فوصل إليهم، وأجابوه إلى التسليم. وقال لهم: «إنّ كافوراً الخادم قد أرسل إليكم غلة عظيمة في المراكب، فان اخترتم أن تأخذوها وأنصرفُ عنكم، في هذه السنة، فعلتُ». فقالوا: لا. واشترطوا عليه أن يأخذوا أموالهم. فأجابهم إلى ذلك إلا السلاح.

ونصب رمحين جعل على أحدهما مصحفاً، وعلى الآخر صليباً. ثم قال لهم: «من اختار بلد الاسلام فليقف تحت المصحف؛ ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب». فخرج المسلمون فحزروا بمائة ألف مابين رجل وأمرأة وصبي؛ وانحازوا إلى أنطاكية.

ودخل نقفور إلى طرسوس، وصعد منبرها، وقال لمن حوله: «أين أنا؟» فقالوا: «على منبر طرسوس» فقال: «لا؛ ولكّني على منبر بيت المقدس؛ وهذه كانت تمنعكم من ذلك».

= طرسوس، وخرجوا منها وتسلمها صعد على منبرها وقال: يامعشر الروم أين أنا؟ قالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا بل أنا على منبر بيت المقدس، وهذه البلدة التي كانت تمنعكم من بيت المقدس» وجعلت الروح الدينية المتعصبة التي أظهرتها حملات نقفور والذين تقدموه المؤرخين يطلقون عليها اسم صليبية القرن العاشر. بغية الطلب ج١ ص١٩٤ ـ ١٩٧ .

واستولى بعد موت سيف الدولة في سنة سبع وخمسين على كفر طاب، وشيزر، وحماة، وعِرْقَة[1]، وجبلة، ومعرّة النعمان، ومعرة مصرين، وتيزين[2]، ثم فتح أَنطاكية في سنة ثمان وخمسين؛ على مانذكره بعدُ ـ إن شاء الله تعالى.

وصارت وقعاته للروم والنصارى كالنُزَه والأعياد. وحكم في البلاد حكم ملوك الروم. ولما رجع عن حلب سار إلى القسطنطينية مغذاً، فدخلها في صفر سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة؛ فوجد رومانوس قد مات وجلس في الملك ولداه باسيل وقسطنطين وهما صبيان ووالدتها «تفانو»[3] تدبرهما.

فلما وصل نقفور سلّموا الأمر إليه فدبّرهما مدة. ثم رأى أَنَّ استيلاءه على الملك أصوب، وأَبلغ في الهيبة فلبس الخف الأحمر، ودعا لنفسه بالملك، وتحدَّث مع البطريرك في ذلك، فأشار عليه أن يتزوج تفانو أم الصبيَّين، وأن يكون مشاركاً لهما في الملك؛ فاتفقوا على ذلك وألبسوه التاج.

ثم خافت على ولديها منه؛ فأعملت الحيلة، ورتّبتْ مع يانس بن شمشقيق أن تتزوج به. وبات نقفور في البلاط في موضعه الذي جرت عادته به. فلما ثقل في نومه أدخلت يانس ومعه جماعة، وشكلت رجل نقفور. فلما

١ ـ عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينها أربعة فراسخ. معجم البلدان.

٢ ـ تيزين الآن خربة أثرية في جبل باريشا تتبع منطقة حارم، محافظة أدلب، تشرف على سهل العمق، مهجورة منذ قرون طويلة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ أرخ لهذه الأحداث وما تلاها المؤرخ البيزنطي ميخائيل بزللوس Michael Psellus الذي ترجم كتابه إلى الانكليزية وطبع تحت عنوان «أربعة عشر حاكم بيزنطي» لندن ١٩٦٦ .

دخل يانس قام نقفور من نومه ليأخذ السيف فلم يستطع فقتله. ولم يتزوَّج بها يانس خوفاً منها.

ونعود إلى بقية أخبار سيف الدولة:

فإنه لما رحل الروم عن حلب، عاد إليها ودخلها في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة. وعمر ماخرب منها؛ وجدّد عمارة المسجد الجامع؛ وأقام سيف الدولة إلى سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة.

وسار إلى ديار بكر بالبطارقة الذين كانوا في أَسره ليفادي بهم؛ وأخذهم نجا، وسار إلى ميافارقين فاستولى عليها.

فلما وصل سيف الدولة قال: «أروني نجا»؛ فأروه أيَّاه على برج، فوقف تحته، وقال: «يانجا» فقال: «لبيك يامولانا» فقال: «انزل». فنزل في الوقت، وخدمه على رسمه، وخلع عليه، وسلم إليه البلد والبطارقة. وقُتل نجا، قتله غلامٌ لسيف الدولة اسمه قبجاج بحضرته؛ وكان سيف الدولة عليلاً، فأمر به فقُتل قبجاج في الحال.

وسار سيف الدولة بالبطارقة إلى الفداء، ففدى بهم أَبا فراس ابن عمه، وجماعة من أَهله، وغلامه «رقطاش»، ومن كان بقي من شيوخ الحمصيين والحلبيين. ولما لم يبق معه من أَسرى الروم أَحد اشترى بقية المسلمين من العَدوّ كل رجل باثنين وسبعين ديناراً؛ حتى نفد ماكان معه من المال. فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنَّته الجوهر المعدومة المثل وكاتبه أَبا

القاسم الحسين بن علي المغربي جد الوزير[1]، وبقي في أيدي الروم إلى أن مات سيف الدولة، فحمل بقية المال وخلّص ابن المغربي.

ولما توجّه سيف الدولة إلى الفداء ولّى في حلب غلامه وحاجبه قرغويه الحاجب في سنة أربع وخمسين، فخرج على أعمال سيف الدولة مروان العقيلي، وكان من مستأمنة القرامطة.

وكان مروان مع سيف الدولة حين توجّه إلى آمد. وأقام سيف الدولة بكل مايحتاج إليه عسكره، وأنفذ إليه ملك الروم هدية سنيّة، فقتل مروانُ القرمطيُّ رجلاً من أصحاب الرسول، فتلافى سيف الدولة ذلك؛ وسيَّر إلى ملك الروم هديَّة سنيَّة؛ وأفرد دية المقتول؛ واعتذر أن مروان فعل ذلك على سكر، فرد الهدية والتمس إيفاد القاتل، ليقيده به أو يصفح عنه؛ فلم يفعل؛ وانتقضت الهدنة؛ وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. وولّى بعد ذلك مروان السواحل.

فلما توجّه سيف الدولة إلى الفداء سار إلى ناحية حلب، فأنفذ إليه قرغُويه غلاماً له اسمه بدر فالتقيا غربي كفرطاب؛ فأخذه مروان أسيراً؛ وقتله صبراً؛ وكسر العسكر وملك حلب. وكتب إلى سيف الدولة بأنه من قِبَله، فسكن إلى ذلك، وأخذ مروان في ظلم الناس بحلب، ومصادرتهم. فلم تطل مدته؛ وتوفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، من ضربة ضربه بها بدر

١ ـ ترجم ابن العديم للحسين بن علي بن محمد المغربي، ورجح أنه توفي في حياة سيف الدولة، وأن ابنه علي حل محله. بغية الطلب ٢٥٣٢ ، ٢٧٠٢ ـ ٢٧٠٦ .

حين التقيا بلتّ[١] في وجهه. وعاد الحاجب قرغويه إلى خلافة سيف الدولة.

وكان بأنطاكية رجل يقال له الحسن بن الأهوازي يضمن المستغلات لسيف الدولة، فاجتمع برجل من وجوه أَهل الثغر يقال له رشيق النسيمي ـ وكان من القواد المقيمين بطرسوس ـ فاندفع إلى أَنطاكية حين أَخذ الروم طرسوس، وتولى تدبير رشيق وأَطمعه في أَن سيف الدولة لايعود إلى الشام. فطمع واتفق مع ملك الروم على أَن يكون في حيزه، ويحمل إليه عن أَنطاكية في كل سنة ستمائة أَلف درهم.

وكان بأنطاكية من قبل سيف الدولة تنج[٢] اليمكي أو الثملي؛ فسار رشيق[٣] نحوه، فوثب أَهل أَنطاكية على تنج؛ فأخرجوه؛ وسلموا البلد إلى رشيق. فأطمع ابن الأهوازي رشيقاً بملك حلب، لعلمه بضعف سيف الدولة، واشتغاله بالفداء. وعمل له ابن الأهوازي كتاباً ذكر أنه من الخليفة ببغداد، بتقليده أَعمال سيف الدولة، فقُرىء على منبر أَنطاكية.

واجتمع لابن الأهوازي جملة من مال المستَغَلّ، وطالب قوماً بودائع ذكر أَنها عندهم، واستخدم بتلك الأموال فرساناً ورجالة؛ واستأمن إليه دزبر بن أونيم الديلمي[٤] وجماعة من الديلم الذين كانوا مع الحاجب قرغويه بحلب.

١ ـ اللتب بالفارسية: عمود، مطرقة، هراوة، فأس.
٢ ـ هو في تاريخ يحيى بن سعيد «فتح» ص١٠٨.
٣ ـ لرشيق ترجمة مفيدة المعلومات في بغية الطلب ص٣٦٥٦ ـ ٣٦٥٨.
٤ ـ لدزبر بن أونيم ترجمة غنية في بغية الطلب ص٣٤٩٥ ـ ٣٤٩٦.

فحصل مع رشيق نحو خمسة آلاف رجل، فسيّر إليه الحاجب غلامه يُمن في عسكر. فخرج إليه رشيق من أنطاكية، والتقوا بأرتاح[١]؛ فاستأمن يُمن إلى رشيق؛ ومضى عسكره إلى حلب، وتوجّه رشيق إلى حلب، ونازل حلب، وزحف على باب اليهود، فخرج إليه بشارة الخادم في جماعة؛ فقاتل إلى الظهر؛ وانهزم بشارة ودخل من باب اليهود؛ ودخلت خيل رشيق خلفه.

واستولى رشيق على المدينة في اليوم الأول من ذي القعدة سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة. ونادوا بالأمان للرعية؛ وقرأوا كتاباً مختلقاً عن الخليفة بتقليد رشيق أعمال سيف الدولة؛ وأَقام رشيق يقاتل القلعة ثلاثة أَشهر وعشرة أَيام. وفُتح باب الفرج[٢]؛ ونزل غلمان الحاجب من القلعة فحملوا على أَصحاب رشيق، فهزموهم، وأَخرجوهم من المدينة. فركب رشيق ودخل من باب أَنطاكية، فبلغ إلى القلانسيين؛ وخرج من باب قنّسرين، ومضى إلى باب العراق. فنزل غلمان الحاجب، وخرجوا من باب الفرج وهو الباب الصغير.

ووقع القتال بينهم وبين أَصحاب رشيق، فطعن ابنُ يزيد الشيباني[٣]

---

١ ـ أرتاح: حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. معجم البلدان.

٢ ـ قال ابن العديم: «وكان لحلب باب يقال له باب الفرج إلى جانب حمام القصر، كان إلى جانبه القصر المشهور الذي يلي قلعة حلب، فخربه الملك الظاهر» بغية الطلب ج١ ص٥٧ .

٣ ـ هو في بغية الطلب ص٣٦٥٧ «أبو يزيد الشيباني» «وقيل إن أبا يزيد طعن رشيقاً فوقع إلى الأرض، وضربه حسنش الديلمي واحتز رأسه عبد الله التغلبي».

رشيقاً فرماه؛ وكان ممن استأمن من عسكر سيف الدولة إلى رشيق؛ وأَخذ رأسه، ومضى به إلى الحاجب قرغُويه، وعاد الحاجب إلى حالته في خلافة الأمير سيف الدولة.

وعاد عسكر رشيق إلى أَنطاكية فرأَسوا عليهم دَزبر بن أونيم الديلمي، وعقدوا له الإمارة، واستوزر أَبا علي بن الأهوازي، وقبل كل من وصل إليه من العرب والعجم.

وسار إليه الحاجب قرغُويه إلى أَنطاكية، فأَوقع به دَزبر، ونهب سواده، وانهزم قرغُويه وقد استأمن أَكثر أَصحابه إلى دَزبر، فتحصّن بقلعة حلب، وتبعه دَزبر فملكها في جمادى الأولى من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وأَقام بها وابن الأهوازي بعسكره في حاضر قنّسرين، وجمع إليه بني كلاب، وجبى الخراج من بلد حلب وحمص؛ وفوّض إلى القضاة، والولاة، والشيوخ، والعمال الأعمال والولايات.

وجاء سيف الدولة فدخل حلب وعسكره ضعيفٌ فبات بها وخرج إلى دَزبر وابن الأهوازي. وكان سيف الدولة قد فُلج وبطل شقه الأيسر فالتقوا شرقي حلب بـ «سبعين»[1].

فغدرت بنو كلاب بدَزبر وابن الأهوازي حين نظروا إلى سيف الدولة؛

---

١ ـ اسمها الآن تل سبعين، وهي قرية من سبخة الجبول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري. وانظر أيضاً بغية الطلب ص١٩٥٦ ـ ١٩٥٧.

واستأمنوا إليه، فآمنهم؛ ووضع السيف في عسكر دَزبر وضع مُحْنَقٍ مغيظ؛ فقَتل جمعاً كثيراً، وأَسر خلقاً، فقتلهم صبراً. وكان فيهم جماعة ممن اشتراه بماله من الروم، فسبقوه إلى الشام، وقبضوا الرزق من ابن الأهوازي، وجعلوا يقاتلونه، فما أَبقى على أَحد منهم. وحصل دَزبر وابن الأهوازي في أَسره. فأما دَزْبَر فقتله ليومه؛ وأَما ابن الأهوازي فاستبقاه أَياماً ثم قتله.

ثم إنّ سيف الدولة قويت علّته بالفالج، وكان بشيزر، فوصل إلى حلب فأَقام بها يومين أَو ثلاثة. وتوفي يوم الجمعة العاشر من صفر من سنة ست وخمسين وثلاثمائة[1]. وقيل: تُوفي بعسر البول وحُمِل تابوته إلى ميافارقينْ فدفن بها في تربته.

وكان على قضاء حلب إذ ذاك ـ في غالب ظني ـ أَبو جعفر أَحمد بن اسحاق بن محمد بن يزيد الحنفي، بعد أَحمد بن محمد بن ماثل.

ويُنسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة، لايصح منها له غير بيتين، ذكر أَبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه ـ وهو جدّ الوزير أَبي القاسم المغربي ـ أَنهما لسيف الدولة. ولم يعرف له غيرهما. وكتب بهما إلى أَخيه ناصر الدولة وقد مدَّ يده إلى شيء من بلاده المجاورة له، من ديار بكر، وكانت في يد أَخيه:

لَسْتُ أَجفو وإن جُفِيتُ ولا أَتـ ـرِكُ حقاً عَلَيَّ في كل حالِ

---

١ ـ بهامش الأصل: وفات سيف الدولة سنة ٣٥٦، ٩٥٦.

إنَّما أَنتَ والدُ والأبُ الجا   في يُجَازى بالصبر والإحتمالِ

ووزر لسيف الدولة أَبو اسحاق القراريطي[1]؛ ثم صرفه وولى وزارته أَبا عبد الله محمد بن سليمان بن فهد؛ ثم غَلَبَ على أَمره أَبو الحسين علي بن الحسين المغربي أبو الوزير أَبي القاسم ووزر له.

---

١ ـ هو محمد بن أحمد بن ابراهيم الاسكافي الكاتب، وزر لمحمد بن رائق، ثم وزر للمتقي لله مرتين، وصودر، وصار إلى الشام، وكتب لسيف الدولة، وكان ظلوماً غشوماً، عاش ستا وسبعين سنة» وتوفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. العبر للذهبي ـ ط. الكويت ١٩٨٤ ج٢ ص٣١٥ .

[عهد سعد الدولة][1]

وقام بالأمر بحلب الحاجب قرغُويَه غلام سيف الدولة، من قِبل ابن سيف الدولة؛ فبقي بها إلى أن مضى غلمانُ سيف الدولة إلى ميَّافارقين، فأحضروا ابنه: سعد الدولة أبا المعالي شريف بن علي بن عبد الله بن حمدان، وكان مع والدته أم الحسن ابنة أبي العلاء سعيد بن حمدان بها.

فدخل حلب، يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل، من سنة ست وخمسين وثلاثمائة؛ وزُيّنتْ له المدينة؛ وعُقدت له القِباب؛ وجلس على سَرير أبيه، وَجَلس الحاجبُ قرغُويه على كرسيّ، والمدِّبرُ لدولته وزيرُه أبو اسحاق محمد بن عبد الله بن شهرام كاتب أبيه.

وقبض أبو تغلب بن ناصر الدولة بن عبد الله بن حمدان على أبيه ناصر الدولة، في هذه السنة[2]؛ فامتعض حمدان بن ناصر الدولة لذلك وعصى على

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .
٢ ـ اعتقله بقلعة الموصل حتى توفي «يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثلاثمائة» وقد تجاوز الثمانين. بغية الطلب من ٢٤٣٦ ـ ٢٤٣٧ .

أَخيه بالرقة والرَّحبة[1].

فسار أَبو تغلب إليه إلى الرقة، وحصره فيها إلى أَن صالحه على أَن يقتصر على الرّحبة، ويسلم إليه الرّقة والرافقة. وكُتب لأبي تغلب توقيعٌ بتقليدِهِ أَعمال ناصر الدَّولة وسيف الدَّولة من المُطيع، وهو بالرِّقة.

وكان قرغويه قد جاء إلى خدمته، وهو يحاصر أَخاه؛ فلما صالح أَخاه قدم حلب جَرِيدةً، وزار ابن عمه سعد الدولة، وعاد إلى الموصل.

---

١ ـ لم تكن هذه محاولة التمرد الوحيدة في صفوف الحمدانيين فقد روى المقريزي في ترجمته لبشارة الاخشيدي مايلي:

«فلما مات سيف الدولة بن حمدان بحلب سار بتابوته إلى ديار بكر بشارة الخادم، وتقي، في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وكان بينهما منافرة، فأذاع تقي عن بشارة أنه كاتب حمدان بن ناصر الدولة، وكان قد غلب على الرقة عند وفاة عمه سيف الدولة، وحثه على أخذ حلب، وكتب تقي إلى قرغويه القائم بضبط حلب نيابه عن سعد الدولة أبي المعالي شريف ابن سيف الدولة، فقبض قرغويه على أسباب بشارة بحلب.

فلما بلغ ذلك بشارة داخل تقي وانسه، فأنس به، وصفي بنيته له، وأطلعه على أنه يريد ديار بكر ليعمل على أبي المعالي شريف ابن مولاه، ويقبض عليه، ويملك التدبير، وضمن لبشارة أنه يسلم له ميافارقين، فأظهر له بشارة القبول، وسار بمسيره إلى قريب من ميافارقين، فكتب بشارة مع من يثق به إلى أبي المعالي يحذره الخروج إلى لقاء تابوت أبيه، ويعرفه ماعزم عليه تقي.

فلما قرب تقي كتب إليه بخبر التابوت وأن يخرج لتلقيه، فأظهر أبو المعالي علة وامتنع عن الركوب، وأخرج كل من في البلد لتلقيه، وضرب تقي مضاربه ولم يدخل المدينة، ووكل بأبوابها الرجال، فطلع بشارة على السور، وغلق الأبواب، وخاطب أصحابه عن الأمير أبي المعالي بكل جميل، فانقلبوا عن تقي، وبطل مادبره، وسلمه إلى بشارة فقتله». الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ـ ط. دمشق ١٩٩٥ ج١ ص٣٠٠.

وأَقام سعد الدولة إلى أن تجدّد بينه وبين ابن عمه أَبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ـ وهو خاله ـ وَحْشَة وكان بحمص.

فتوجَّه سعدُ الدولة إليه، فانحاز إلى «صدد»[1]، ونزل سعدُ الدولة بسَلمية، وجمع بني كلاب وغيرهم.

وقدَّم الحاجب قرغُويه وبني كلاب على مقدّمته، مع قطعة من غلمان أَبيه، فتقدّموا إلى صدد. فخرج إليهم أَبو فراسٍ وناوشَهم، واستأمن أَصحابُه؛ واختلط أَبو فراس بمن استَأمَن، فأمر قرغُويه بعض غلمانه بالتّركية بقتلِه، فَضَربه بَلتٍ مُضرَّسٍ، فسقط؛ ونزل فاحتز رأسَهُ؛ وحَملهُ إلى سعد الدولة.

وبقيت جثتُهُ مطروحةً بالبرية، حتى كفَّنهُ رجلٌ من الأعراب، وذلك في شهر ربيع من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. ولطمت أمُّه سخِيَّة حتى قلعت عينها عليه؛ وكانت أم ولد.

وخرج في هذه السَّنة فاثورٌ[2] للرُّوم في خمسة آلاف فارس وراجل؛ فصار إلى نواحي حَلَب؛ فواقعه قرغُويه بعسكر حلب، فأُسِرَ قرغويه، ثم أَفلتَ، وانهزم أَصحابُهُ؛ وأَسر الرُّومُ جماعة من غِلمانِ سيف الدَّولةِ.

ثم إنَّ نقفور ملك الروم خرج إلى معرة النُّعمان ففتحها، وأَخرب

١ ـ صدد الآن مركز ناحية تتبع حمص وتبعد عنها ٦٠كم باتجاه الجنوب الشرقي، تكثر فيها الكنائس الأثرية، في وسطها تل اثري. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ الفاثور: الجماعة في الثغر يذهبون خلف العدو في الطلب. القاموس.

جامِعَهَا وأَكثَرَ دورها؛ وكذلك فعل بمعرّة مصرين؛ ولكنه أَمَّنَ أَهلها من القتل، وكانوا أَلفاً ومائتي نفس، وأَسرَهم، وسَيَّرهُمْ إلى بلد الرومِ.

وسار إلى كفرطاب وشيزر، وأَحرق جامعها؛ ثم إلى حماة ففعل كذلك؛ ثم إلى حمص، وأَسر من كان صار إلى تلك الناحية من الجفلةِ.

ووصل إلى عرقة ففتَحها وأَسرَ أهلَها؛ ثم نفذ إلى طرَابلس وكان أَهلها قد أَحرقوا ربضَها، فانصرف إلى جَبَلة ففتحها؛ ومنها إلى اللاذقيّة؛ فانحدر إليه أَبو الحسين علي بن إبراهيم بن يوسف الفُصيص. فوافقه على رهائن تُدفع إليه منها، وانتَسَب له فعرف نقفور سَلَفَهُ، وجعله سردغُوس[1]. وسلَّم أَهل اللاذقية.

وانتهى إلى أَنطاكية، وفي يده من السبي مائة ألف رأس، ولم يكن يأخذ إلا الصبيان والصَّبَايا والشباب؛ فأما الكهول والمشايخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من تركه. وقيل بأَنه فتح في هذه الخرجة ثمانية عشر منبراً. وأَما القرى فلا يُحصى عدد ما أَخْرَبَ منها وأَحرَقَ؛ ونزل بالقُرب من أَنطاكية، فلم يقاتلهم، ولم يراسِلْهُم بشيء.

وبنى حصن بَغْرَاس[2] مقابل أَنطاكية ورتَّب فيه ميخائيل البرجي، وأَمر أَصحاب الأطراف بطاعته.

---

١ ـ أي ستراتيغوس، وهو الحاكم العسكري للمدينة.

٢ ـ من أشهر القلاع وأكثرها حصانة، تقع على الطريق المؤدية إلى مضيق بيلان فالاسكندرونه. بغية الطلب ج١ ص١٥١ ـ ١٥٢ . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وتحدَّث الناس أنه يُريد أن يُنازِلَ أنطاكية طول الشتاء، وينفذ إلى حلب أيضاً من يُنازلها. فأشار الحاجب قرغُويه على سعد الدولة أن يخرج من حلب، ولا يتحاصرَ فيها؛ فخرج إلى بالِس فسَيَّر إليه قرغُويه، وقال له: «امضِ إلى والدتك، فإنّ أهل حلب لا يُريدونك، ولا يتركُونَك تعود إليهِم».

وحالف قرغُويَه أهل حلب على سعد الدَّولة؛ وتقرَّب إليهم بعمارة القلعة وتحصينِها، وعمارة أسوار البلدة وتقويَتِهَا؛ فيَئسَ سعدُ الدولة من حلب؛ ومضى أكثرُ أصحابه إلى أبي تغلب بن ناصِر الدَّولة.

وقطع قرغُويه الدعاء لسعد الدَّولة، فعمل على قصد حرَّان والمقام بها؛ فمنَعهُ أهلها منها، وراسَلَهُمْ، وَوَعَدهُمْ بالجميلِ فلم يَسْتجيبُوا له؛ فسألهم أن يتزوَّدَ منها يومَيْنْ، فأَذنوا له في ذلك. فمضى إلى والدته إلى مَيَّافارقين، وحَرَّان شاغرةٌ يدبّرها أهلها، ويخطبون لأبي المعالي سعد الدولة.

ولما قرب أبو المعالي من ميَّافارقين بَلَغَ والدَتَهُ أن غلمانه وكُتَّابَهُ عملوا على القبض عليها وحملها إلى القلعة، كما فعل أبو تغلب بناصر الدولة؛ فطردَتِ الكُتَّابَ، وأغلقت أبواب المدينة في وجه ابنها ثلاثة أيّام حتى استوثقتْ منه؛ وفتحت له.

وحين علم ملك الروم بتقوية قرغُويه لحلب دخل بلاده.

وأما قرغُويَه فاستولى على حلب في المحرّم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة؛ وأمّر غلامَهُ بكجور؛ وشاركه في الأمر؛ ودُعي لهما على المنابر في عَمَلِهِ. وكتب اسم بكجور على السّكة. وكان يُخاطَبُ قرغُويه بالحاجب، وغلامه بكجور بالأمير.

وحصل زهير غلام سيف الدَّولة بمعرَّة النُّعمان، وكان واليها؛ وانضاف إليه جماعة من غلمان سيف الدَّولة. فأقاموا الدَّعوة بالمعرّة لسعد الدولة؛ وكاتبوا مولاهم سعد الدولة أبا المعالي واستدعوه إلى الشَّام؛ فسار ونزل منبج؛ فاجتمعوا معه. ونزلوا على حلب في شهر رمضان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة؛ وحاصروا قرغُويه وبكجور. وجرت بينهم حروب يطول ذكرها.

وكتب قرغُويه إلى الرُّوم، فاستَدْعى بطريقاً كان في أَطراف بلد الرُّوم لنجدته، وهو خادم كان لنقفور ويعرف بالطُّرْبازي[1]؛ فسار نحوه، ثم عدل إلى أَنطاكية، وذلك أَنَّ ملك الروم لما نزل ببوقا، ومعه السبي والغنائم ـ على ماذكرناه ـ تَوَافَقَ هو وأَهلها، وكانوا نصارى في أَن ينتقلوا إلى أَنطاكية، ويُظهروا أَنَّهم إنّما انتقلوا خوفاً من الرُّوم، حتى إذا حصلوا بها، وصار الرُّوم إلى أَنطاكية وافقوهم على فتحها. ففعلوا ذلك ووافقوا نصارى أَنطاكية، وكاتبوا الطّرْبازي حين خرج بأن أنطاكية خالية، وليس بها سلطان.

وكان أَهلُها من المسلمين قد ضيّعوا سورها، وأَهملوا حراسَتهَا؛ فجاء الروم إليها مع الطَربازي ويانس بن شمشقيق، في أَربعين ألفاً. فأحاطوا بأَنطاكية؛ وأَهلُ بوقا على أَعلى السور في جانبٍ منه، فنزلوا وأَخلوا السّور، فصعده الرُّوم وملكوا البلد، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين.

---

١ ـ هو في تاريخ يحيى بن سعيد ص١٣٥ «بطرس الاصطراطوبودرج» ـ السستراتيجوس.

ودخَلَ الرُّوم فأحرقوا وأَسَروا وكانت ليلة الميلاد. فلمّا طلَعَ الروم على جبلها، جعلوا يأخذون الحارس فيقولون له: «كبّر وهلّل»؛ فمن لم يفعل قَتَلُوه؛ فكان الحرّاس يهلّلون ويكبّرون، والناس لايعلمون بما هم فيه، حتّى ملكوا جميع أَبرجتها، وصاحوا صيحةً واحدةً، فمن طلب بابَ الجنان قُتل أَو أُسِرَ.

واجتَمع جماعة إلى باب البحر فبردُوا القُفل فسلموا، وخرجوا وبنَوا قلعةً في جبلها، وجعلوا الجامعَ صيرةً للخنازير[1]؛ ثم ان البطرك جعله بُستاناً.

ثم إنَّ الطَّرْبازي سار إلى حلب، منجداً لقرغويه وبكجور، وأَبو المعالي محاصر لهما؛ فانحاز أَبو المعالي شريف عن حلب إلى خناصرة، ثم إلى معرَّة النُّعمان.

فطمع الرُّوم بحلب فنَازَلُوها؛ وهجَمُوا المدينة من شماليها، وحصروا القلعَة.

فهادنهم قرغُويه على حمل الجزية، عن كل صغير وكبير من سكّان المواضع التي وقعت الهُدنة عليها، دينار، قيمته سِتَّة عَشَر دِرْهما إسلاميَّة؛ وأَن يحمل إليهم، في كل سَنَةٍ عن البلاد التي وقعت الهُدنة[2] عليها سبعمائة أَلف درهم.

١ ـ الصيرة: الحظيرة.

٢ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد ص١٣٥ : «وترددت المراسلات بينه وبين أهلها إلى أن تقرر الأمر =

والبلاد: حمص، وجوسية[١]، وسلمية، وحماة، وشيزر، وكفرطاب، وأفامية، ومعرة النّعمان، وحلب وجبل السُّمّاق[٢]، ومعرّة مصرين، وقنّسرين، والأثارب إلى طرف البلاط[٣] الذي يلي الأثارب وهو الرصيف، إلى إرحاب[٤]، إلى باسوفان[٥]، إلى كيمار[٦]، إلى برصايا[٧]، إلى المرج الذي هو قريب عزاز؛ ويمين الحدِّ كلّه لحلب؛ والباقي للرُّوم.

= على صلح وهدنه مؤبدة، ومال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم عن حلب وحمص وجميع أعمالها من المدن والقرى، وهي ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، وسبعة قناطير ذهب عن خراج هذه الأعمال، وعن كل رجل حالم دينار واحد في السنة، سوى ذوي العاهات، وأن يكون لملك الروم صاحباً مقيما بحلب يستخرج أعشار الامتعة الواردة إليها من البلاد، ويرفعه إلى الملك».

١ ـ اسمها الآن جوسيه الخراب، تقع قرب الحدود اللبنانية، وهي تابعة لمنطقة القصير ـ محافظة حمص، تبعد عن القصير ١١كم إلى الجنوب. وتبعد عن حمص ٣٨ كم إلى الجنوب الغربي منها. المعجم الجُغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ هو جبل الأربعين الآن.

٣ ـ الطريق الروماني المرصوف، ويوجد الآن مزرعة في منطقة حارم اسمها البلاط. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ إرحاب قرية في جبل سمعان، تتبع ناحية دارة عزة، وتتصل بها بطريق مزفته طولها ٩كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٥ ـ على مقربة من دير سمعان.

٦ ـ تقع كيمار على بعد ١٢ كم من باسوفان.

٧ ـ جبل برصايا: «جبل عال شامخ شمالي عزار، يشرف على بلد عزاز وكورة الأرتيق، وهو من أبهى البقاع منظرا، وأرقها هواء». واسم هذا الجبل الآن برصة، ويقع على بعد ٥كم شمال مدينة أعزاز، يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بطول ٥كم وعرض أقصى ٣,٥كم. بغية الطلب ج١ ص٤٣٧ . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

ومن برصايا يميل إلى الشّرق، ويتصل وادي أَبي سليمان إلى فج سُنياب[١]، إلى نافوذا، إلى أَوانا، إلى تلّ حامد[٢]؛ إلى يمين السَّاجُور، إلى مسيل الماءِ إلى أَن يمضي ويختلط بالفرات.

وشرطوا أَن الأمير على المسلمين قرغُويه؛ والأمر بعده لبكْجور؛ وبَعْدَهُما ينصب ملك الروم أميراً يختارُه من سكّان حلب. وليس للمسلمين أَن ينصبوا أحداً، ولايؤخذ من نصراني جزية في هذه الأعمال، إلا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة.

وإن ورد عسكر إسلاميّ يريد غزو الرومَ منعه قرغُويَه، وقال له: «امضِ من غير بلادنا، ولاتدخل الهُدنة». فإن لم يسمع أَمير ذلك الجيش قاتله، ومنعه؛ وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازي لينفذ إليه من يدفعه.

ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر، وأَعلموهما به لينظروا في أَمرهما.

وإن عزم الملك أَو رئيس العسكر على الغزاة إلى بَلَد الاسلام، تلقَّاهُ

---

١ ـ تحدث ابن العديم عن مخارج نهر قويق فقال: «والمخرج الآخر يجتمع من عيون ماء من سنياب» وقال ياقوت: وسألت عن سنياب «بحلب فقالوا: لا نعرف هذا الاسم، انما مخرجه من شناذر، قرية على ستة أميال من دابق». بغية الطلب ج١ ص٣٤٧. معجم البلدان ـ مادة قويق.

٢ ـ تل حامد: حصن في ثغور المصيصة، ويرجح أن «حامد» تصحيف «خالد» وتل خالد من القلاع الهامة القريبة من حلب. معجم البلدان.

بكجور إلى المكان الذي يؤمر بتلقيه إليه؛ وأَن يشيّعه في أَعمال الهُدنة؛ ولايهرب مَنْ في الضّياع ليبتاع العسكر الرّومي ما يحتاجون إليه، سوى التبن؛ فانه يؤخَذُ منهم على رسم العساكر بغير شيء.

ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرُّوميَّة إلى الحدّ؛ فإذا خرجت من الحدّ عاد الأمير إلى عمله؛ وإن غزا الرومُ غير ملّة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره، وغَزَوْا معه كما يأمرُ.

وأَيّ مسلم دخل في دين النصرانيّة فلا سبيل للمسلمين عليه؛ ومن دخل من النصّارى في مِلَّة الإسلام فلا سبيل للرّوم عليه.

ومتى هرب عبدٌ مسلمٌ أَو نصراني، ذكراً كان أَو أَنثى، من غير الأعمال المذكورة إليها، لايستره المسلمون، ويُظْهِرونَه، ويُعطى صاحبُه ثمنَه: عن الرَّجُل ستّة وثلاثون ديناراً؛ وعن المرأة عشرون ديناراً رومية؛ وعن الصبيّ والصبيَّة خمسّة عَشَر ديناراً؛ فان لم يكن له مايشتريه أَخذ الأميرُ من مولاه ثلاثة دنانير؛ وسلَّمه إليه. فإن كان الهارب معمداً فليس للمسلمين أَن يمسكوه؛ بل يأْخذ الأميرُ حقّه من مولاه؛ ويسلّمه إليهِ.

وإنْ سرق سارقٌ من بلاد الرُّوم، وأخفى هارباً أنفذَهُ الأميرُ إلى رئيس العسكر الروميّ ليؤدِّبَهُ.

وإن دخل رُوميّ إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاكى.

وإنْ دخل من بَلَد الإسلام جاسوسٌ إلى بلد الروم أُخذ، وحُبس. ولايخرب المسلمون حصناً؛ ولايحدثوا حصناً؛ فإنْ خرب شيء

أعادُوه. ولايقبل المسلمون أميراً مسلماً؛ ولايكاتِبوا أحداً غير الحاجب وبكجور. فإنْ توفّيا لم يكن لَهُمْ أن يقبَلُوا أميراً من بلاد الإسلام؛ ولايلتمسوا من المسلمين معونةً؛ بل ينصبُ لهم مَنْ يختارهُ من بلاد الهدنة.

وينصب لهم الملكُ بعدَ وفاة الحاجب وبكجور قاضياً منهم، يُجري أحكامهم على رسمهم.

وللرّوم أن يعمروا الكنائس الخربة في هذه الأعمالِ، ويسافر البطارقَةُ والأساقفةُ إليها، ويكرمهم المسلمون.

وإنّ العُشْرَ الذي يؤخَذُ من بلد الرّوم، يجلس عشّار الملك مع عشّار قرغُويه وبكجور فمهما كان من التجارة من الذهب، والفضة، والديباج الروميّ، والقزّ غير معمول، والأحجار، والجوهر، واللؤلؤ، والسندس عشّره عشّار الملك. والثياب، والكتّان، والمزبون[1]، والبهائم، وغير ذلك من التجارات يعشّره عشّار الحاجب وبكجور بعده؛ وبعدّهما يعشّر ذلك كلّه عشّار الملك.

ومتى جاءت قافلةٌ من الرُّوم، تقصد حلب، يكتب الزروار[2] المقيم في الطرف إلى الأمير؛ ويخبره بذلك لينفذ من يتسلّمها، ويوصلها إلى حلب. وإن

١ ـ ثوب على تقطيع البيت كالحجلة. القاموس.

٢ ـ تحدث ابن الحوقل عن المراتب في القسطنطينية فقال: «ثم الدمستق من بعده، ثم البطارقة وهم اثنا عشر رجلاً لاينقصون ولايزيدون بوجه، وإذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له، ثم الزراورة وهم كثرة لايحصون كالقواد اللاحقين بالأمراء، ثم الطراخنة» صورة الأرض ـ. بيروت، دار مكتب الحياة ص١٧٨ .

قطع الطريق عليها بعد ذلك، فعلى الأمير أن يعطيهم ماذهب. وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون في بلد الأمير، فعلى الأمير غرامة ذلك.

وحَلَفَ على ذلك جماعةٌ من شُيوخ البلد مع الحاجب وبكجور؛ وسلم إليهم رهينة من أهل حلب: أبو الحسن بن أبي أسامة؛ وكسرى بن كسور؛ وابن أخت ابن أبي عيسى، وأخو أبي الحسن الخشّاب، وأبو الحسن بن أبي طالب، وأبو الطّيب الهاشميّ، وأبو الفرج العَطّار، ويُمن غلام قرغويه. وكان المتوسّط في هذه الهُدنة رجلٌ هاشميٌّ من أهلِ حلب يقال له طاهر.

وعادت الروم عن حلب؛ وبقي الحاجب قرغُويه في ولايتها، والتدبير إليه وإلى غلامه بكجور؛ وذلك في صفر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وأقام سعد الدولة أبو المعالي بمعرّة النّعمان ثلاثَ سنين؛ وراسله الحاجب وبكجور ومشايخ حلب، في سنة ثمان وخمسين، على أن يؤدي إلى الروم قسطاً من مال الهُدنة، وكان القيّم بأمر أبي المعالي وعسكره رقطاش غلام سيف الدولة؛ وكان قد نزل إليه من حصن برزويه؛ وحمل إليه غلّة عظيمةً وعلوفةً وطعاماً؛ ووسّع على عسكره بعد الضّائقة.

ولم يؤدِّ سعد الدولة ما هو مقرَّر من مال الهدنة على البلاد التي في يده، فخرج الروم وهجموا حمص على غفلة.

وقيل: إن سعد الدولة استولى على حلب في سنة ثلاث وستين، ووصله في شهر ربيع الأول رسول العزيز وأبو القاسم أَحمد بن إبراهيم الرسي من مصر؛ فأقام الدعوة له بحلب في هذه السنة؛ وأَرسل معه إلى مصر في

جواب الرسالة قاضي حلب؛ وأظنه ابن الخشاب الهاشمي.

ووصل إليه بكجور من حلب وهو بحمص؛ فخلع عليه أبو المعالي؛ وولاه حلبّ؛ وأقيمت له الدعوة فيها وفي سائر عملها؛ فوافق بكجور وغلمانَ سيف الدولة على القبض على مولاه قرغويه وقصد أبي المعالي، وقلعه من حمص؛ فقَبَضَ عليه. وسار أبو المعالي إلى حلب.

وقيل: دام الأمر بحلب مردوداً إلى قرغُويه وبكجور، فأحبَّ الأمير أبو الفوارس بكجور الحاجبيّ الكاسكّي التفرد بالأمر دون مولاه؛ وحَدَّث نفسه بالقبض عليه، فقبض عليه وغدرَ به، في ذي الحجة من سنة أربع وستين وثلاثمائة. واستولى على حلب، وانفردَ بالأمر، وجعل الحاجب محبوساً بقلعةِ حلب.

وكان سعد الدولة إذ ذاك بحمص، فحين علم بذلك طمع بحلب، فتوجَّهَ إليها ومعه بنو كلاب، بعد أن أَقطعهم بحمص الاقطاع المعروف بالحمصيّ؛ فنزل بهم على معرّة النعمان، وبها زهير الحمدّاني، وقد استولى عليها، وعَصىَ على مولاه؛ ففتح باب حُناك[1]؛ ودخلوا منه فقاتلهم زهير، وأخرجهم. ثم أَحرَقوا بابَ حمص؛ فخرج زهيرٌ مسلماً نفسه بعد أن حلف له كبار الحمدانيَّة انّهم لايمكنوا أبا المعالي منه. فلمّا حصل معه غدر بِهِ فتَغيّرت

١ ـ نسبة إلى بلدة اسمها حُناك، هي الآن خربة أثرية في جبل الزاوية،تابعة لمنطقة معرة النعمان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وُجوه الحمدانيَّة؛ فأمرهم بنهب الحصن فنهبوا ما فيه؛ وأنفذ زهيراً إلى حصن أفامية؛ فقُتِل هناك.

وسار أَبو المعالي؛ ونزل بهم على باب حلب؛ وحاصرها مدةً فاستنجد بكجور بالرّوم؛ وضمن لهم تسليم حلب وأموالاً كثيرةً؛ فتخلّوا عنه. وكان نقفور ـ لعنه الله ـ قد قُتل على ماشرحناه.

وَجَدَّ سعد الدولة في حصارها والقتالِ، فسلم إليه بعض أَهل البلد المرتَبين في مراكز البلد برج باب الجنان؛ ورُميت أبواب الحديد، وفتحها بالسيف فلم يُرق فيها دماً وأَمنَ أَهلها.

وانهزم بكجور إلى القلعة فاستعصى بها، وذلك في رجب من سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ثم أَقام سعد الدولة يحاصِر القلعة مدة حتى نفد ما فيها من القُوت؛ فسلّمها بكجور إليه، في شهر ربيع الآخر من سنة سبع وستين وثلاثمائة.

وولّى سعدُ الدولة بكجور حمص وجندها؛ وكان تقرير أَمر بكجور بين سعد الدّولة وبينه، على يد أَبي الحسن عليّ بن الحسين بن المغربي الكاتب، والد الوزير أبي القاسم.

واستقر أَمر سعد الدَّولة بحلب؛ وجَدَّد الحلبيون عمارة المسجد الجامع بحلب؛ وزادوا في عمارة الأسوار في سنة سبع وستين.

وغيّر سعد الدّولة الأذانَ بحلب؛ وزاد فيه: «حيّ علي خير العمل؛

مُحمَّد وعليٌّ خير البَشر». وقيل: إنه فعل ذلك في سنة تسعٍ وستين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثمان وخمسين.

وسيّر سعد الدّولة في سنة سبع وستين وثلاثمائة الشريف أَبا الحسن اسماعيل بن النَّاصر الحسنّي يهنىء عضد الدّولة بدخوله مدينة السلام، وانهزام بختيار بين يديه؛ فوجّه إليه بتكنية الطائع؛ ووصلته خلعة منه ولقب بسعد الدولة فلبس الخلعة.

ووصل معها خلعٌ من عضد الدَّولة أَيضاً؛ وخاطبه في كتابه: «بسيدي، ومولاي، وعدتي» فمدحه أبو الحسن محمّد بن عيسى النَّأمي بقصيدةٍ أَوّلها:

هوىً في الْقَلْبِ لا عِجُهُ دَخِيلُ

وكان أَبو صالح بن نانا الملقّب بالسّديد قد وزر لسعد الدَّولة، فانفصَل عنه في سنة إحدى وسبعين؛ ومضى إلى بغداد فاستوزر مكانه أَبا الحسن بن المغربي.

ونزل فردس الفقاس الدمستقُ على حلب، في شهر جُمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين، ووقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله.

وطالب سعدَ الدَّولة بمال الهدنة، وتردّدت المراسلةُ بينهما، واستقرّ الأمر على أَن يحمل إلى الروم كلّ سنة أَربعمائة أَلف درهمٍ فضّة، ورحل في اليوم الخامس من وصوله.

وفي يوم الخميس السَّابع عشر من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، نزل بردس الدمستق على باب حلب في خمسمائة ألف مابين فارس وراجل؛ وكان قد ضمن لباسيل وقسطنطين ملكي الروم الأخَوين أن يفتتح حلب، وينقض سورها حجراً حجراً؛ وأنه يحمل سبيها إلى القسطنطينيَّة.

واحتفل جمعاً وحشد من المجانيق والعَرَّادات ما لايُحصى كثرةً. وأقام بالحدث أيَّاماً، يُرهب الناس، ويهوّل عليهم؛ وسعد الدولة بحلب غير محتفلٍ به.

ثم إنّه أقبل وعلى مقدمته ملك الجزرية تريثاويل[1]؛ وعلى ميمنته وميسرته البطارقه في الحديد السابغ؛ فارتاعَ النَّاسُ لذلك؛ وبثّ سراياهُ، وسعد الدّولة قد أمر الغلمان بلبس السلاح؛ فدام على هذا ثلاثة أيام؛ ثم صَفّ لِقتال البلد؛ وسعد الدولة لايُخرج إليه أحداً حتى استحكم طمعُه.

ثم إنَّه أمَرَ غلمانَهُ بالخروج إليهم في اليوم السابع، فحملوا حملةً لم يُر أشد منها؛ وقتلوا فيها ملك الجزرية تريثاويل؛ وكان عمدة عسكرهم؛ فعند ذلك اشتدَّ القِتَال.

وأمر سعد الدولة عسكره بالخروج إليه، فالتقَوْا في الميدان فرجع عسكره أقبح رجوع، وعليهِ الكآبة؛ وسيّر سعدُ الدَّولة جيشَهُ خلفَه حتَّى بلغت عَسَاكِرُه أنطاكية.

١ ـ كتب بهامش الأصل Taritaouil.

وكان الجيش مع وزيره أبي الحسن عليّ بن الحسين بن المغربي؛ فافتتح في طريقه دير سمعان عنوةً بالسيف؛ وخرّب دير سمعان؛ وكان بنية عظيمةً وحصناً قوياً؛ وقد ذكر ذلك الواسانيّ في بعض شعرِهِ.

وقيل: إنَّ الدمستُق رأى في نومه المسيح، وهو يقول له مهدّداً: «لاتحاوِل أخذَ هذه المدينة، وفيها ذلك الساجد على الترس». وأشار إلى موضعه في البرج الذي بين باب قنّسرين، وبرج الغَنَم، في المسجد المعروف بمشهد النُّور. فلمَّا أصبح ملكُ الرّوم سَأَل عنه فوجده ابن أَبي نمير عبد الرزاق بن عبد السلام العابد الحلبيّ، وكان ذلك سبباً لرحيله عن حلب[1].

وقيل: إنَّه صالح أهل حلب ورَحَل.

---

١ ـ قال ابن العديم في بغية الطلب ج١ ص٤٦١ ـ ٤٦٢ : «هذا مشهد النور إنما سمي بذلك لأنه رئـي النور ينزل عليه مراراً، قال: وكان ابن أبي نمير العابد يتعبد فيه، فاتفق أن نزل ملك الروم على حلب محاصراً لها، فجاء الحلبيون إلى ابن أبي نمير العابد، فقالوا: ادع الله لنا أيها الشيخ، قال: فسجد على ترس كان عنده، ودعا الله تعالى، وسأله دفع العدو عن حلب، فرأى ملك الروم في منامه تلك الليلة قائلاً يقول له: ارحل عن هذه البلدة، وإلا هلكت، أتنزل عليها وفيها الساجد على الترس في ذلك البرج، وأشار إلى البرج الذي فيه مشهد النور ـ وهو بالقرب من باب قنسرين في برج من أسوار حلب، فيما بين برج الغنم وباب قنسرين.

فانتبه ملك الروم، وذكر المنام لأصحابه، وصالح أهل حلب، وقال: لا أرحل حتى تعلموني من كان الساجد على الترس في ذلك البرج، فكشفوا عنه فوجدوه ابن أبي نمير، ورحل ملك الروم عن حلب. . . وهذا ابن أبي نمير هو أبو عبيد الله عبد الرزاق بن عبد السلام بن عبد الواحد بن أبي نمير العابد الأسدي».

وقيل: هذا كان في نزول أرومَانُوس على تبّل، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وكان ابن أبي نمير من الأولياء الزهّاد والمحدّثين العلماء؛ وتوفي بحلب في سنة خمس وعشرين وأربعمائة؛ وقبرُه بباب قنّسرين.

ويحتمل أن يكون في سنة إحدى وسبعين، حين نزل فردوس على حلب ورحل عنها عن صلحٍ، في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة؛ فطلب من العزيز أن يوليه دمشق؛ وكاتب العزيز[1] في إنفاذِ عسكرٍ ليأخذ له حلب؛ فأنفذ إليه عسكراً، فنزل على حلب إلى أن نزل الدمستُق أنطاكية؛ فخاف أن يكبسَهُ، فَرَحَل عنها.

ولما يئس الدمستق مِن حلب، وخاف على نفسِهِ أن يقتلَهُ ملك الروم، خرج إلى جهةِ حمص، فَهَرَب بكجور من حمص إلى جوسية، فكاتب الدمستقُ أهل حمص بالأمان؛ وأظهر لهم أنّه يسيرُ إلى دمشق، وأنّه مهادنٌ لجميع أعمال سعد الدَّولة، فاطمأنوا إلى ذلك؛ وأمرهم بإقامةِ الزادِ والعلوفة.

وهجم حمص في ربيع الآخر من سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائةٍ؛ وأحرَقَ الروم الجامع، وكثيراً من البلد.

وكان استوحش أبو المعالي من بكجور، فأمره أن يترك بلده ويمضي. وصعد بكجور إلى دمشق فوليها في هذه السنة - أعني سنة ثلاث - من

١ - العزيز الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر [٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥ - ٩٩٦م].

قِبَل المصريين، وجار على أهل دمشق، وظلّم، وجمع الأموال لنفسه، فجرد إليه عسكر من مصر مع منير الخادم في سنة ثمان وسبعين.

وكان بكجور يخاف من أهل دمشق لسوء سيرته؛ فبعَثَ بعض عسكره؛ فكسره منير، فأرسل إليه بكجور وَبَذل له تسليم دمشق، والإنصراف عنها؛ فأجابه إلى ذلك؛ فرحل عن دمشق متوجهاً إلى حُوَّارين، في شهر رجب من سنة ثمان وسبعين.

ومضى إلى الرقة؛ وأقام فيها الدعوة للمصريين[1]. وكان سعد الدَّولة قد انتمى إلى المصريين؛ وأقام الدعوة لهم بحلب، في سنة ستٍّ وسبعينَ وثلاثمائةٍ، ووصلته خِلَعُ العزيز أبي المنصور، في شعبان من هذه السنة فلبسها.

ومات الأمير قرغُويه بحلب في سنة ثمانين وثلاثمائة.

ثم إنَّ بكجور قوي أمره واستفحل؛ وأخذ إليه أبا الحسن عليَّ بن الحسين المغربيّ؛ واستوزره لمباينةٍ حصلت بينَه وبين سعد الدَّولةِ. وعاث على أعمالِ سعدِ الدَّولة؛ وجَمَعَ إليهِ بني كلابٍ؛ واستغوى بني نميرٍ؛ فبرز مضرب الأمير سعد الدولة، يوم السبت الثاني والعشرين من محرّم سنة إحدى وثمانين، إلى ظاهر باب الجنان.

وسار يوم السّبت سلخ المحرّم، على أربع ساعاتٍ؛ وقد كان بكجور

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص٥٠ ـ ٥٤ .

سار إلى بالس، وحاصر من كان بها فامتنعوا عليهِ؛ فَقَصدهُ سعدُ الدَّولة، والتقوا على النَّاعورة، في سلْخ المحرّم من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائةٍ.

وهزم بكجور، وهرب، واختفى عند رحا القديمي[1] على نهر قُويْق، وبثَّ سعد الدَّولة الناس خلفَهُ، وضَمِنَ لمن جاءَ به شيئاً وافِراً، فظفر به بعضُ الأعراب، وأتى به إلى سعد الدولة، فضرب عنقه صبراً بين يديه، بِبَنْدَرِ النَّاعورة، وصلبه على سبع ساعات مِن يوم الأحد مستهلّ صفر.

ورحل سعد الدّولة يوم الثلاثاء إلى بالس فوجد بكجور قد أَخرب ربضها، فأقام بها أربعة أيّام.

ورحل حتّى أَتى الرقة، وبها حرم بكجور وأمواله وأولاده، فتلقّاهُ أهل الرّقّة بنسائِهم، ورجالِهم، وصبيانِم، فأقام بها بقيّة يومه.

ونزل أهل الرقة، فاحتاطوا بحرم بكجُور وأولاده، فآمنهم سعد الدولة، في اليوم التَّاسع من صفر، وتنجَّزت أمورهم إلى يوم الخميس الثَّاني عشر منه. ورضي عن أَولاده، واصطنعهم، ووهب لهم أموال بكجُور، وحلف لهم على ذلك، فمدحَهُ أبو الحسن محمد بن عيسى النَّامِي بقصيدةٍ أوّلُها:

غَرَائِزُ الجودِ طَبْعٌ غَيْرُ مَقْصُودِ وَلَسْت عَنْ كَرَمٍ يُرْجَى بِمَصْدُودِ

---

١ ـ تفاصيل ماأوجزه ابن العديم هنا متوفر عند ابن القلانسي ص٥٨ ـ ٦٥ ، وعنده «ووافى بكجور إلى رحا تعرف بالقيريمي على فرسخ من حلب مما يلي قنسرين».

ولَمَّا خَرَج أَولاد بكجُور بأموالِهم وآلاتهم استكثرها سعدُ الدَّولة، فقال له وزيره أبو الهيثم بن أَبي حصين: «أَنتَ حلفتَ لهم على مال بكجُور، ومن أين لبكجُور هذا المال؟ بل هذه أموالك». فغدر بهم، ونَكثَ في يمينه، وقبضَ مالَ بكجُور إليه، وكان مقداره ثمانمائة ألف دينار، وصادر نواب بكجُور، واستأصل أموالهم.

ثم عاد إلى حلب فأصابه الفالج في طريقه. وقيل: أَصابه في طريقه قولنج فدخل إلى حلب، وعُولج فبرىء. ثم جامَعَ جارية له، فأَصابه الفالجُ، واستدعى الطبيب، وطلب يَده ليجُسَّ نبضَهُ، فناولَهُ اليُسرى، فقال: «اليمين» فقال: «ماأبقتِ اليمينَ يميناً» يُشير إلى غدره، ونكثِهِ في اليمين التي حلفها لأصحاب بكجُور.

وكان مبدأ علّته لأربع بقين من جُمادى الأولى، ومات ليلة الأحد لأربع بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وحُمل في تابوتٍ إلى الرّقة، ودُفن[1] بها.

وكان قاضي حلب في أَيامه أبا جعفر أَحمد بن اسحاق قاضي أَبيه؛ ثم ولي قضاءها رجلٌ هاشميٌّ يقال له ابن الخشاب؛ ثم ولي الشَّريف أبو عليّ الحسن بن محمد الحسيني والد الشَّريف أَبي الغنائم النسَّابة؛ وكان زاهداً عالماً ولاه سعدُ الدَّولة قضاء حلب وعَزَلَ ابن الخشَّاب عنه في سنة ثلاث وستّين؛

١ - في ابن القلانسي ص٦٧ : «وحمل تابوته ودفن في المشهد ظاهرها» والمشهد هو للامام علي كرم الله وجهه وبعض شهداء صفين، وهو بجوار مايعرف الآن بباب بغداد في مدينة الرقة.

ودام في ولايته إلى تسع وسبعين وثلاثمائة؛ وولي بعده أبو محمد عُبيد الله بن محمد.

وكان العزيز أرسل إلى سعد الدولة يسأله إطلاق أَولاد بكجور وتسييرهم إلى مصر فأهان الرسول، ولم يقبل الشفاعة، ورد عليه جواب متوعد متهدّد.

[عهد سعيد الدولة][1]

ثم إنَّ غلمان سعد الدولة ملَّكوا ابنه أَبا الفضائل سعيداً؛ ولقبوه سعيد الدَّولة؛ ونصبوه مكان أَبيه في يوم الأحد. وصار المدبّر له وصاحب جيشه من الغلمان الأمير أَبو محمد لؤلؤ الكبير إِلسيفي، فاستولى على الأمور وزوّج ابنته سعيدَ الدولة، فرفع المظالم والرسوم المقرَّرة على الرعيّة من مال الهُدنة. وردّ الخراج إلى رسمه الأوّل؛ وردَّ على الحلبيين أملاكاً كان اغتصبها أبوه وجدُّه.

وطمع العزيز صاحب مصر في حلب؛ فاستصغر سعيد الدولة بن سعد الدولة، فكتب إلى أَمير الجيوش بنجوتكين التركي؛ ـ وكان أَميرُ الجيوش والياً بدمشق من قبل العزيز ـ وأَمره بالمسير إلى حلب وفتحها، فنزل في جيوشٍ عظيمةٍ، ومدّبر الجيش أَبو الفضائل صالح بن عليّ الرُّوذْبَارِي.

فنزل على حلب في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة؛ وفتح حمصَ وحماةَ في طريقه، وحصر حلب مدةً، فبذل له سعيدُ الدَّولة أَموالاً كثيرة على أَن يرحل عنه وعلى أَن يكون في الطَّاعة، ويقيم الدعوة، ويضرب السكّة باسم العزيز، ويكتب اسمه على البنود في سائر أَعماله.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

فامتنع من قبول ذلك وقاتل حلب ثلاثة وثلاثين يوماً، وَضَجِر أَهل حلب فقالوا لابن حمدان: «إمَّا أَن تُدبِّر أَمر البلد وإلا سلّمناه». فقال: «اصبروا عليَّ ثلاثةَ أيَّام، فإنَّ البرجي والي انطاكية قد سار إلى نصرتي في سبع صلبان»[١]. فبلغ ذلك بنجوتكين، فاستخلف بعضَ أَصحابه وهم: بشارة القلعي، وابن أَبي رمادة، ومعضاد بن ظالم، في عسكر معهم كبير على باب حلب.

وسار فالتقى البرجي عند جسر الحديد، وبنجوتكين في خمسة وثلاثين أَلفاً والروم في سبعين أَلفاً، فانهزم البرجي؛ وأَخذ بنجوتكين سوادَه وقتل مِنْ أَصحابِهِ مقتلةً عظيمةً، وأَسر خلقاً كثيراً[٢].

فانحاز ابن أخت البرجيّ إلى حصن عِمّ[٣]، فسار بنجوتكين إلى «عِمّ»، فقاتل حصنها، وفتحه بالسيف؛ وأَسر منها ابن أخت البرجي، ووالي الحصن، وثلاثمائة بطريق، وحصل عنده أَلفا فارس وغَنِمَ من «عِمّ» مالاً كثيراً، وأَحرقها وماحولها؛ ووجد في «عِمّ» عشرة آلاف أَسير من المسلمين فخرجوا وقاتلوا بين يديه.

وسار إلى أَنطاكية فاستاق من بلدها عشرة آلآف جاموس، ومن البقر

١ ـ الصليب الراية لحملها شارة الصليب، وقصده هنا أنه توجه نحوه في سبع قطع عسكرية.

٢ ـ قدم ابن القلانسي ص٧٠ ـ ٧١، تفاصيل زائدة على ماأوجزه ابن العديم.

٣ ـ عم الآن في تركيه واسمها يني شهر، وهي مزرعة تتبع قضاء الريحانية لواء الاسكندرونه، تكثر فيها الينابيع التي تشكل بركة عم إلى الجنوب من مدينة الريحانية بـ ٣كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

والمواشي عدداً لايحصى؛ وسار من ظاهر أنطاكية في بلاد الروم حتى بلغ مرعش؛ فقتل، وأسر، وغنم، وخرّب، وأحرق.

وعاد إلى عسكره على باب حلب المعروف بباب اليهود، وقاتلها من جميع نواحيها، وكان هذا في جمادى الأولى وجمادى الآخرة، فأقام على حلب إلى انقضاء سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وعاد إلى دمشق.

ثم إنَّه عاد، وخرج من دمشق في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، ومدّبرُ الجيش أبو سهل منشا بن ابراهيم اليهودي القزّاز؛ فنزلوا شيزر وقاتلوها، وفتحوها، وأمّنوا سوسن الغلام الحمداني ـ وكان والياً بها ـ وجميعَ من كان معه.

وسار بنجوتكين إلى أفامية، فتسلمها من نائب سعيد الدولة ثم [سار] أمير الجيوش بمن انتخبه من العسكر إلى أنطاكية، فغنموا بقراً وغنماً، ورماكاً[1] وجواميس؛ وبلغوا نواحي بوقا، وقطعوا بغراس؛ وعاد العسكر إلى الرّوج[2] ثم إلى أفامية.

وسار إلى دمشق، وسيّر العزيزُ أبا الحسن علي بن الحسين بن المغربيّ الكاتب، الذي كان وزيراً لسعد الدولة أبي المعالي مرة، وفارقه عن وحشة ـ وهو والد الوزير أبي القاسم بن المغربي ـ في المحرم من سنة أربع وثمانين

١ ـ جمع رمكة وهي الفرس تتخذ للنسل.

٢ ـ في معجم البلدان: الروج: كورة من كور حلب المشهورة في غربيها وبين المعرة، ولها ذكر في الأخبار». وأرجح أن يقال: في جنوبي أنطاكية بينها وبين أفامية.

وثلاثمائة، من مصر إلى بنجوتكين ليجعله مدبّر جيشه والناظر في أَعمال الشام إنْ فُتِحَتْ، لِخِبْرَتِهِ بتلك الناحية. وسار معه عسكرٌ كثيرٌ فوصل إلى دمشق.

وسار منها بنجوتكين وابن المغربي في ثلاثين أَلف مقاتل، فوصلوا إلى ظاهر حلب في شهر ربيع الآخر، وضيّق عليها بالحصار، فاستنجد سعيد الدولة ولؤلؤ بالروم، فخرج البطريقُ البرجيّ والي أَنطاكية بعساكر الروم فنزل بالأرواج؛ على المقطعات على المخاض، وبَثَّ سراياه؛ ورتّب قوماً يغيرون على أَعمال حلب ويمنعون المتعلّفة.

وسار بنجوتكين فنزل مقابلهم، وسار عسكرُ حلب وفيهم الأمير رباح الحمدانيّ وكبار الحمدانية، فنزلوا مع الرّوم على مخاضة أُخرى؛ فقطع المغاربة الماءَ، وعبروا إليهم، وأَنفذ بنجوتكين العرب مع قطعة من عسكره للقاء الحلبيين؛ فحين أشرفوا عليهم انهزموا عن المخاضة، ونهبتهم العرب.

فحين شاهد الروم ذلك انهزموا، وتخلّوا عن البرجي؛ واضطروه إلى الهزيمة؛ وتبعهم المغاربة مع بنجوتكين في يوم الجمعة لست خلت من شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة؛ فظفر بهم، وغنم الأموال والرجال والخيل التي لاتحصى؛ وقتل خلقاً كثيراً، وأسر خلقاً كثيراً من الروم، وسار فنزل على عزاز فأخذها.

ثم عاد إلى حصار حلب فبنى مدينة بازائها وشتى بها؛ وآثار العمارة التي تظهر حول نهر قويق هي آثار تلك العمائر؛ ولم يزل على حلب إلى أن انقضت سنة أربع وثمانين؛ وكان حصارهم حلب أحد عشر شهراً، وأكلوا الخيل والحمير.

وأنفذ أبو الفضائل سعيدُ الدولة ولؤلؤ: أبا عليّ بن دُريس إلى باسيل ملك الروم بالقسطنطينية، يستنجدانه؛ وكانت له على حلب قطيعة تُحمل إليه؛ وقالا له: «مانريد منك قتالاً دائما نريد أن تجفله».

فخرج باسيل في ثلاثة عشر ألفاً، وعسكر بنجوتكين لاخبر معهم لباسيل فسير باسيل جواسيس، وقال لهم: «امضوا إلى العسكر، وأعلموهم بي». وكانت دوابّ أمير الجيوش بمرج أفامية، في الربيع؛ فلما أَخْبَرَ الجواسيسُ عسكر أمير الجيوس بوصول باسيل إلى العمق[1]، ضرب جميع آلته بالنار، ورحل إلى قنّسرين، فصار هزيمة.

وجاء باسيل ملك الروم، فنزل موضعهم، فلم يمله؛ وكان قد خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم؛ وشكره على مافعل من رحيل بنجوتكين، ومعه هديّة جليلة القدر؛ فقبلها منه، ثم أعادها إلى حلب ووهب له القطيعة التي كانت له على حلب في تلك السنة، فقال قسطنطين لأخيه الملك باسيل: «خذ حلب؛ والشام مايمتنع منك». فقال: «ما تسمعُ الملوكُ أني خرجتُ أُعِينُ قوماً فغدرت بهم». فقال له بعضُ أصحابه: «ليست حلب غالية بغدرة». فقال الملك: «بلى ولو أنها الدنيا»[2].

---

١ ـ العمق سهل داخلي في لواء اسكندرونه يقع بين جبال حلب وسمعان وحارم شرقاً، وجبال الأمانوس أو اللكام غربا، وبين اللجة ووادي نهر الأسود شمالاً، وهضبة القصير جنوبا، يبلغ أقصى امتداد له ٣٠كم بين الشمال والجنوب و٢٥كم بين الشرق والغرب، كان يشغل مستنقع العمق منه مساحة ٢٢ ألف هكتار، وبحيرة أنطاكية ١٠ آلاف هكتار، ويجري بالسهل عدة أنهار. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ كان الامبراطور باسيل الثاني عندما سمع بأخبار حصار حلب معسكر بعيداً عن القسطنطينية =

وكان إذا خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم أقام لؤلؤ بحلب؛ وإذا خرج لؤلؤ أقام أبو الفضائل. وكان قد ضاق صدر أبي الفضائل لطول الحصار، وأراد تسليم حلب إلى بنجوتكين.

فتوجَّع لؤلؤ فركب إليه أبو الفضائل يعودُهُ، فحجبه ساعةً، فشقّ عليه، وانصرف مغضبا فلحقه لؤلؤ وقال له: «ماكنتُ عليلاً، وإنَّما أردتُ أن أعلمك أنك متى مضيتَ إلى غير هذا البلد انك تحجب على أبواب الناس، وقد شَقَّ عليك أني حجبتُكَ، وأنا عبدك، والبلد بلدك». فرجع إلى قول لؤلؤ.

وعصى رباح السيفيّ بالمعرّة على مولاه أبي الفضائل؛ فخرج إليه مع لؤلؤ في سنة ست وثمانين، وانحاز إلى المغاربة، فخرج أبو الفضائل ولؤلؤ وحصراه مدةً، فورد بنجوتكين لنجدته فانهزما ودخلا حلب.

وخرج بسيل إلى أفامية بعد وقعةٍ جرت للروم مع المغاربة فجمع عظام القتلى من الروم، وصلّى عليهم ودَفَنَهم، وسار إلى شيزر ففتحها بالأمان من المغاربة، وذلك في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

وسار ملك الروم إلى وادي حيران[1]، فسبى منه خلقاً عظيما من

= يحارب البلغار، فترك أرض المعركة، وحث الخطا نحو حلب بمن خف معه من قواته، فقطع مسافة ثلاثمائة فرسخ في ستة عشر يوماً حتى وصل إلى حلب، حيث أخذ القوات الفاطمية على حين غرة وأجبرها على رفع الحصار والانسحاب... انظر كتابي إمارة حلب ـ ط. دمشق، دار الكتاب العربي ص٣٧.

١ ـ كذا بالأصل وأرجح أنها تصحيف حيلان، هذا وقال ياقوت: حيران: كأنه جمع حير، وهو مجتمع الماء، واسم ماء ما بين سلمية والمؤتفكة، ذكره ابو الطيب المتنبي.

المسلمين؛ وخرج إليه أبو الفضائل من حلب إلى شيزر، فأكرمه وقال له: «قد وهبتُ لك حلب». ووهب لأبي الفضائل في جملة ما وهبه سُطَيل ذهب، وقال له: «اشرب بهذا».

ومات أبو الفضائل سعيدُ الدَّولة، ليلة السبت النصف من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، سَقَتْهُ جاريةٌ سماً، فمات. وقيل: إنَّ لؤلؤ دسَّ عليه ذلك وعلى ابنته زوجة أبي الفضائل، فماتا جميعاً.

وكان قاضي حلب في أيامه عبيد الله بن محمد بن أحمد القاضي أبا محمد.

وملَّك لؤلؤ السيفي ولديه:

أبا الحسن علياً وأبا المعالي شريفاً ابني سعيد الدولة. واستولى لؤلؤ على تدبير ملكهما، وليس إليهما شيء.

وخاف لؤلؤ على حصن كفر روما[1]، وحصن عار، وحصن أَروَح، أن يقفز[2] فيها، فهدمها جميعاً سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وأحب لؤلؤ التفرد بالملك، فسيّر أبا الحسن وأبا المعالي ابني سعيد الدولة عن حلب إلى مصر مع حرم سعد الدولة، في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة. وحصل الأمر له ولولده مرتضى الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ.

١ ـ كفر روما: من أشهر حصون منطقة معرة النعمان، وكذلك كما يبدو الحصنين الآخرين. معجم البلدان.

٢ ـ أي يستولي عليها خلسة أوبطريقة ما، وهذه طريقة للتعبير عرفها عصر ابن العديم.

وقبض لؤلؤ على أحمد بن الحسين الأصفر بخديعة خدعه بها؛ وذلك أنه طلب أن يدخل إليه إلى حلب، وأوهمه أن يصير من قبله؛ فلما حصل عنده قبض عليه، وجعله في القلعة مكرماً، لأنه كان يهوّل به على الروم[1].

وكان هذا الأصفر قد عبر من الجزيرة إلى الشام مظهراً غزو الروم[2]، فتبعه خلقٌ عظيمٌ، وكان يكون في اليوم في ثلاثين أَلفاً ثم يصير في يوم آخر في عشرة آلاف وأكثر وأَقل.

ونزل على شيزر وطال أمرُه فاشتكاه باسيل ملك الروم إلى الحاكم، فسيّر إليه والي دمشق في عسكر عظيمٍ فطرده عنها؛ ودام الأصفر معتقلاً في قلعة حلب إلى أن حصلت للمغاربة في سنة ست وأربعمائة.

وتوفي قاضي حلب أبو طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحي الهاشمي[3]، مؤلف كتاب «الحنين إلى الأوطان»، في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة. وكان فاضلاً؛ وأظن أنَّ ولايته القضاء كانت بعد أيام سعيد الدولة، بعد القاضي أبي محمد عبيد الله بن محمد بن أحمد.

---

١ ـ من أنواع المهدي المنتظر، وظهر هذا بين قبائل حلب سنة ١٠٠٣/٣٩٤م ودعا إلى الجهاد ضد الروم، مما سبب اضطراباً في الأراضي البيزنطية، فأوعز الامبراطور باسيل الثاني إلى لؤلؤ بالقبض عليه فغرر به وتخلص منه. انظر كتابي امارة حلب ص٣٦.

٢ ـ كان هناك أصفر آخر نشط في أراضي الجزيرة وقد قبض عليه نصر الدولة ابن مروان حاكم ميافارقين. إمارة حلب ص٣٦.

٣ ـ له ترجمة في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ج١٢ ص٣٢.

وَوَلَّى لؤلؤ قضاءَ حلب في هذه السنة أبا الفضل عبد الواحد بن أحمد بن الفضل الهاشمي.

وتوفي لؤلؤ الكبير بحلب في سلخ ذي الحجة من سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. وقيل: ليلة الأحد مستهل المحرّم سنة أربعمائة؛ ودفن بحلب، في مسجده المعروف به، فيما بين باب اليهود وباب الجنان؛ وكانت داره القصر بباب الجنان؛ وله منها إلى المسجد سربٌ يدخل فيه إلى المسجد، فيصلي فيه.

وكان لؤلؤ يعرف بلؤلؤ الحجراجي[1]؛ ويعرف بذلك لأنه كان مولى حجراج، أحد غلمان سيف الدولة؛ فأخذه منه وسمّاه لؤلؤ الكبير. وكان عاقلاً، محباً للعدل، شهماً؛ وظهرتْ منه في بعض غزوات سيف الدولة شهامة، فتقدَّم على جماعةِ رفقته من السيفية والسعدية.

١ ـ في أخبار الدولة المنقطعة ـ الدولة الحمدانية ـ ص٥٧ : لؤلؤ الحمداني، لؤلؤ الجراحي.

[عهد منصور بن لؤلؤ][1]

وتقرّرتْ إمارة حلب بعده لابنه:
أَبي نصر منصور بن لؤلؤ ولقّب مرتضى الدولة.

وكان ظالماً عسوفاً، فأبغضه الحلبيّون وهجوه هجواً كثيراً فمما قيل فيه:

لَـمْ تُلَقَّب وَإِنَّما قِيل فَـألا مُرْتَضَى الدَّوْلَةِ التي أَنْتَ فِيهَا

وسيّر مرتضى الدولة ولديه أبا الغنائم وأبا البركات إلى الحاكم وافدين عليه، فأعطاهما مالاً جسيماً؛ وأقطعهما سبع ضياع في بلد فلسطين، ولقّب أباهما مرتضى الدولة، وكان ذلك قبل موت لؤلؤ بسنة[2].

وكان لسعد الدولة بن سيف الدولة بحلب ولدٌ يقال له أبو الهيجاء، وكان قد أوصى سعدُ الدولة لؤلؤاً لما مات به؛ فلما أن ملك لؤلؤ خاف منه، وضيّق عليه لؤلؤ ومرتضى الدولة؛ وكان قد صاهر ممهد الدَّولة أبا منصور أحمد بن مروان صاحب ديار بكر على ابنته؛ وأظن ذلك كان في أيام أبيه.

١ - أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ - انظر كتابي إمارة حلب ص٣٩.

فخاف أبو الهيجاء من لؤلؤ وابنه مرتضى الدولة، فتحدّث مع رجل نصراني يعرف بملكونا كان تاجراً وبَزّازاً لمرتضى الدولة، فأخرجه من حلب هارباً، والتجأ إلى ملك الروم فلقبه الماخسطرس.

فلما كثر ظلمُ منصور وعسفُه رغب الرعية وبنو كلاب المتدبّرون ببلد حلب في أبي الهيجاء بن سعد الدولة؛ وكاتبوا صهرهَ مُمَهِّدَ الدّولة ابنَ مروان في مكاتبة باسيل ملك الروم في إنفاذه إليهم.

فأنفذ إلى الملك يسأله تسيير أبي الهيجاء إليه ليتعاضدا على حلب، ويكون من قبله من حيث لايكلفه إنجاده برجال ولا مال.

فأذن باسيل لأبي اليهجاء في ذلك، فوصل إلى صهره بميّافارقين، فسيّر معه مائتي فارس وخزانه؛ وكاتَبَ بني كلاب بالانضمام إليه.

وسار قاصداً حلب في سنة أربعمائة فخافه منصور، ورأى أن يستصلح بني كلاب ويقطعهم عنه، لتضعف مُنّتُهُ؛ فراسلهم ووعدهم بإقطاعات سنية؛ وحلف لهم أن يساهمهم أعمال حلب البرّانيَّة.

واستنجد مرتضى الدولة بالحاكم، وشرط له أن يقيم بحلب والياً من قبله، فأنفذ إليه عسكر طرابلس مع القاضي عليّ بن عبد الواحد بن حيدرة قاضي طرابلس، وأبي سعادة القائد والي طرابلس، في عسكر كثيف فالتقوا بالنقرة.

وتقاعد العرب عن أبي الهيجاء لِما تقدّم من وعود مرتضى الدولة لهم،

فانهزم أبو الهيجاء راجعاً إلى بلد الروم ونُهِبَتْ خيامهُ وجميعُ ما كان معه.

ثم دخل إلى القسطنطينية فأَقام بها إلى أن مات[1].

وكان الحاكم قد كتب لمنصور بن لؤلؤ في شهر رمضان من سنة أربع وأربعمائة سجلاً، وقُرىء في القصر بالقاهرة، بتمليكه حلب وأعمالها؛ ولقّب فيه بمرتضى الدولة.

وكان في قلعة عزاز غلام من غلمان مرتضى الدولة فاتهمه في أمر أبي الهيجاء، فطلب مرتضى الدولة منه النزول فلم يفعل، وخاف منه وقال: «ماأسلّمها إلا إلى القاضي ابن حيدرة» فسلمها إليه.

وكتب القاضي فيها كتاباً إلى الحاكم، وسلّمها إلى مرتضى الدولة، فنقم عليه، وقتله بعد ذلك.

وأما أبو الهيجاء فأقام بالروم إلى أن مات.

وعاد قاضي طرابلس إلى منصور يطلب منه ما كان وعده به، فدافعه، فرجع إلى طرابلس خائباً..

وكان أبو المعالي بن سعيد الدولة بمصر، فسيَّره الحاكم بعساكر المغاربة إلى حلب، فوصل معرَّة النُّعمان في سنة اثنتين وأربعمائة؛ وأرادت العربُ الغدر به، وبيعَه من مرتضى الدولة، لأنهم أغاروا. وركب يريدهم، فأخذه مضيء الدولة نصر الله بن نزَّال وردَّه إلى العسكر، ورجع فمات بمصر[2].

١ - عالجت هذا الموضوع في كتابي إمارة حلب ص٣٩ - ٤٢ .
٢ - إمارة حلب ص٤٢ .

[قيام الدولة المرداسية][1]

وأما بنو كلاب فانهم طلبوا من مرتضى الدولة ماشرطه لهم من الإقطاع، فدافعهم عنه، فتسلطوا على بلد حلب، وعاثوا فيه، وأفسدوا، ورَعوا الأشجار وقطعوها، وضيّقوا على مرتضى الدولة، فشرع في الاحتيال عليهم، وأظهر الرغبةَ في استقامة الحال بينهم وبينه وطلبهم أن يدخلوا إليه ليحالفهم ويُقطعهم ويحضروا طعامه، واتخذ لهم طعاما.

فلما حصلوا بحلب مدّ لهم السماط وأكلوا وغُلِّقت أبواب المدينة، وقُيِّد الأمراء: وفيهم صالح بن مرداس، وفيهم أبو حامد وجامع ابنا زائدة. وجعل كبار الأمراء بالقلعة، ومن دونهم بالهُرْي. وقَتَلَ منهم أكثر من ألف رجل، وذلك لليلتين خلتا من ذي القعدة من سنة اثنتين وأربعمائة[2].

فجمع مقلِّد بن زائدة مَنْ كان من بني كلاب خارج حلب، وأجفل بالبيوت، ونزل بهم كفر طاب وقاتلها، فرماه ديلميٌّ اسمه بندار فقتله، في

---

١ - أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

٢ - يعد هذا الحادث مقدمة لنهاية الدولة الحمدانية واسبابها وبداية لقيام الدوله المرداسيه. انظر المعالجة المفصلة لهذه المسألة في كتابي إمارة حلب ص٤٢ - ٤٥ .

أوائل سنة ثلاث وأربعمائة. وكان مرتضى الدولة قد أخرج أخويه أبا حامد وجامعاً وغيرهما؛ وجعلهم في حجرة، وجعل فيها بسطاً، وأكرمهم لأجل مقلّد. فلما جاءه خبر قتله أنفذ إليهم يعزّيهم به فقال بعضهم لبعض: «اليوم حبسنا».

وسيّر مرتضى الدَّولة إلى صالح بن مرداس، وهو في الحبس، وألزمه بطلاق زوجته طرود، وكانت من أجمل أهل عصرها؛ فطلَّقها، وتزوجها منصور، وهي أم عطية بن صالح، وإليها ينسب مشهد طرود، خارج باب الجنان، في طرف الحلبة. وبه دفن عطية ابنها؛ ومات أكثر المحبّسين بالقلعة في الضُرّ، والهوان، والقلة، والجوع.

وكان مرتضى الدولة في بعض الأوقات إذا شرب يعزم على قتل صالح، لحنقه عليه من طول لسانه، وشجاعته. فبلغ ذلك صالحاً، فخاف على نفسه، وركب الصعب في تخليصها؛ واحتال حتى وصل إليه في طعامه مبردٌ؛ فبرد حلقة قيده الواحدة، وفكّها وصعبت الأخرى عليه، فشدَّ القيد في ساقه، ونقب حائط السجن؛ وخرج منه في اللَّيل؛ وتدلّى من القلعة إلى التلّ، وألقى نفسه فوقع سالماً ليلة الجمعة مستهل المحرم سنة خمس وأربعمائة.

واستتر في مغارة بجبل جوشن، وكثر الطلب له والبحث عنه، عند الصباح؛ فلم يوقف له على خبر، ولحق بالحّلة؛ واجتمعت إليه بنو كلاب؛ وقويتْ نفوسُهم بخلاصه، وبعد ستة أيام ظفر صالح بغلام لمنصور كان قد

أعطاه سيف صالح، فاستعاده منه وأيقن بالظفر، وتفاءل بذلك[١].

ولما كان في اليوم العاشر من صفر نزل صالح بتلّ حاصد[٢] من ضِياع النقرة يريد قسمتها، بعد أن جمع العرب واستصرخهم؛ وكان يعلم صالح محبة مرتضى الدولة لتل حاصد.

فحين علم منصور بنزول صالح على تلّ حاصد، رأى أن يعاجله قبل وصول المدد إليه، فجمع جُنْدَهُ، وحَشَد جميعَ مَنْ بِحلب من الأوباش، والسُّوقةِ، والنَّصارَى، واليهود؛ وألزَمَهُم بالسَّيرِ معهُ إلى قتالِ صالح؛ فخرجوا ليلة الخميس ثاني عَشَر صفر من سنةِ خمس وأربعمائةٍ.

وبلغني: أنَّ مرتضى الدَّولة لما وَصَل إلى جبرين[٣] تطَيَّر وقال: جُبِرْنا؛ فلمَّا وصَلَ بوشَلا[٤] قال: شُلِلنَا؛ فلمّا وَصَل تَلَّ حَاصِد قال: حُصِدْنا.

وأصبح عَلَيْهِم يومٌ شديدُ الحرّ فماطلهم صَالح باللّقاء، إلى أن عطش العوام وجَاعُوا؛ وسيَّر جاسُوسا إلى العَسْكر فجاء وأخبره أَنَّ مُعْظم عسكره

١ ـ المرجح أن هروب صالح تمَّ على غير هذه الصورة، وأن الأمر دُبّر مع متولي قلعة حلب أو سواه. انظر إمارة حلب ص٤٥ .

٢ ـ في منطقة السفيرة ـ محافظة حلب، قرية اسمها الآن تل حاصل واقعة شمال جبل الأحص، فلعلها هي التي عرفت من قبل باسم تل حاصد. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ جبرين مزرعة قرب حلب تبعد عنها مسافة ٨ كم نحو الشرق. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ في منطقة أريحا ـ محافظة ادلب ـ معلم أثري اسمه «بشلله»، فلعله المقصود هنا، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

من اليهود، والنَّصارى؛ وأنَّه سمع يهُودياً يقول لآخر بلُغتهم: «والك حفيظه اطعَزه واتأخَّر، وإيَّاك يكون خَلفه آخر يطعزك بمطعازه، يخعّبْ بيتك للدَّواغِيث»[1].

فقوِيَ طمع صالح فيهم، وحمل عليهم فكَسرهم؛ وأَسَرَ مرتضى الدَّولة وسالمَ بن مُسْتفاد، أبا المرجَّا[2] الحمدانيّ، وخلقاً غيرهما.

وقُتل جمعٌ كثيرٌ من العسكر ومقدار ألفي راجل من العوام؛ وآثار عظامهم إلى اليوم مدفونة في أرجام حجارة شبيهة بالتلال، فيما بين تلّ حاصد وبُوشلا.

وانهزم أبو الجيش وأبو سالم أخو مرتضى الدَّولة؛ وقصد القلعةَ فَضَبطَها أبو الجيش المفلُول، وضبط البلد أخوه أبو الجيش وأُمّهُ.

وحدّث بنو كلاب أنَّهم لم يرَوْا ولم يسمَعوا بأشجعَ من مرتضى الدَّولة، وأنه لو لم يقِف به الحصان ما وَصَلُو إليه، وأنَّه لما وقف به الحصان لم يُقدم عليه أحدٌ حتى جاءه صالح، فقال: «إليَّ يامولانا». فَرَمى السَّيف من يده؛ فلما رماه تَقَرّبوا منه؛ وأخذه صالح فقيَّده بالقيد الذي كان في رجله.

وكان بين هرب صالح وأسره مرتضى الدَّولة أحد وأربعونَ يوماً.

ورأى صالح أنّه لاقدرة له على أخذ البلد لضبطه بأبي الجيش، فرأى

---

١ ـ اطعزه: اطعنه، اضربه، ادفعه. يخعب: يخرب. الدواغيث = الدواويث جمع ديوث فيما أرجحه.

٢ ـ لسالم بن مستفاد ترجمة في بغية الطلب ص٤١٦١ ـ ٤١٦٣.

أن يُوقع الصلح؛ فتراسلوا في ذلك؛ وأَشركوا أَبا الجيش في تقرير ذلك؛ فخرج مشايخ من أَهل حلبَ من أَبي الجيش في حديث الصلح وتقريره.

فلما وصلوا إلى صالح سَلّموا عليه غير هائبين له ولا مبجّلين، لقرب عهدهم برؤيتهِ أَسيراً حقيراً؛ وكلَّموه بكلام جافٍ؛ ورادوه في شروطٍ شرطها عليهم؛ فأحسّ منهم بذلك، فقال لهم: «قبل أَن نتفرق بيننا أَمر، اجتمعوا بأَميركم، وشاوروه فيما تتحدثون به معي من الشروط».

قال: فقاموا، ودخلوا على مرتضى الدَّولة، وفيهم الشاهدان اللَّذان شهدا على صالح بطلاق طرود، فوجدوا مرتضى الدَّولة على أَقبح صورة مكشُوف الرأس، على قطعة من كساء خلق، والقيد قد أَثّر في ساقَيْهِ فاحتقروه؛ وعظم صالحٌ في أَعينهم؛ فهنأوه بالسَّلامة؛ فقال: «سلامةٌ العطبُ أَصلحُ منها»؛ ثم قال: «إنَّ الأمير صالح يطلب مِنّي طلاق طرُود، فاشهدوا عليّ أَنها طالق؛ ويطلب مِنّي تسليم حلب؛ ولستُ الآن مالكها، فدبّروا الأمرَ على حسب ما تَرَوْنه ويستصوبه أَخي أَبو الجيش، الذي هو الآن المسَتوْلي على القلعةِ والمدينةِ».

فلم يزالُوا يتردَّدون بينهما؛ ويدخلون إلى حلب، ويُشاورون أَبا الجيش إلى أَن استقرّ الأمر مع صالح بعد التضرّع إليهِ وسؤالهِ باللُّطف في كلام خلاف مابدأوه به على أن يُطلق منصور؛ على أن يحمل إليه خمسين أَلف دينار عيناً؛ ومائة وعشرين رطلاً بالحلبيّ فضةً؛ وخمسمائة قطعة ثياب أَصنافاً مختلفة؛ ويُطلق جميع مَنْ في المحبُوس من بني كلاب وحرمِهم؛ وأَن يُقاسمه

باطن حلب وظاهرها شطرين؛ ويجعل ارتفاع ذلك نِصفين؛ وأن يزوجِهُ مرتضى الدولة بابنته.

فأجاب إلى ذلك ووقعتِ اليمينُ عليه؛ وأَخرج إلى صالح أُمه بجيلا، وزوجتَه أُم الكرم ابنة رباح السَّيفي، وأولاده منها: أَبا الغنائم، وأبا علي، وأباالحسن، وأَبا البركات، رهائن على المال.

وأطلق مرتضى الدَّولة فدخل إلى حلب يوم السبت لسبع بقين من صفر سنة خمسٍ وأربعمائة، فلمَّا حمل المال إلى صالح، خلَّى سبيل الرهائن؛ وباع كلّ واحدٍ من العرب ماحصل في يده من الغنيمة والأسارى من الجند وغيرهم من الرعيَّة المسلمين وأَهل الذِّمة لأهاليهم بما اتفق؛ واستَغنى العرب وقويت شوكتُهم.

ولما حصل منصور إلى حلب عاد إلى عادته الأولى في الغدر، ومنع صالحاً ما صالحه عليهِ من ارتفاعِ البلاد والتزوُّج بابنتِهِ؛ فضيّق صالح عليه، وحارَبَهُ، ومنع الميرة أن تدخل إليه حتى ضاقَتْ على الرَّعيّة فكرهوه[1].

وانضاف إلى ذلك أنه وقعت التّهمة بين مُرتضى الدَّولة وبين غلامه فتح القَلعي ـ وكان والي القلعة ـ في العاشر من شهر رجب من سنة ست؛ فاتهمهُ بأنَّه هو الذي هرَّب صالحاً، وتتابع لَوْمُهُ له، وقال: لولا قلَّة تحفُّظِهِ وتضجيعه

١ ـ تطور الصراع بين صالح بن مرداس ومنصور بن لؤلؤ، إلى درجة عرضه على الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني. انظر امارة حلب من ٤٥ ـ ٤٧.

في الاحتياط على صالح لما هرب من السّجن؛ وهذه المحن كُلّها بسببه. وتواعده.

وعزم على أَن يوّلي قلعة حلب صاحباً له يعرف بسرور، فأسرَّ ذلك إليه؛ فنمَّ الخبر من سرور إلى رجل يقال له ابن غانم صديق لفتح، فأطلعه على ذلك؛ فخاف فتح القلعيّ منه، فوافق المقيمين معه على العصيان؛ فأجابوه إلى ذلك.

وطلب نزوله فتعلَّل، وأخذ حذره منه؛ ثم كاشفه بالعصيان؛ فصعدت إليه بجيلا والدة مرتضى الدولة وعنَّفته، فلم يُصغ إلى قولها، فقالت له: «كيف تفعل هذا مع ابن سيدك؟» ـ لأنه كان مولى لؤلؤ السّيفي ـ فقال: «كما فعل هو وأبوه بأولاد سيّده» ـ يعني بولدي سعد الدّولة أبي الفضائل وأبي الهيجاء ـ.

ثم أنفذ فتح إليه وقال له: «إمَّا أن تخرج من حلب، وإلا سلمتُ القلعة إلى صالح». فبينا مرتضى الدولة في قصره سنة ست وأربعمائة، إذ ضربت البوقات والطبول على القلعة، وصاح من فيها: «الحاكم يامنصور؛ صالح يامنصور» فظنّ منصور أن صالحاً قد حصل في القلعة، ففتح باب الجنان؛ وهَرَب هو وأخوه وأَولادُه، ومن تبعه من غلمانه إلى أَنطاكية؛ وأخذ معه ماقدر على حمله من المال.

فلما علم أهل حلب بخروجه قصدوا داره؛ فأخذوا منها من الذّهب والفضّة والمراكب والأثاث ثمانين ألفاً من الدّنانير.

وأُخذ في جملة ما نُهبَ له ثمانية وعشرون ألفاً من الدّفاتر المجلَّدة، وكانت مُفهرسَةً بخطّه في دَرْج؛ ونَهبُوا دُور إخوته ودُور بعض النّصارى واليهود[١].

وَوَصل مرتضَى الدَّولة إلى أَنطاكية لخمسٍ بقين من شهر رجب، فطالع قطبانُ[٢] أنطاكية الملكَ باسيل بهرب منصور إليه؛ فأَنفذ إليه يأمره باكرامهِ، وأَن يواصلة براتب وإقامةٍ، وكذلك برزقِ أجنادهِ وأَصحابهِ؛ ففعل ذلك، وكان جملتهم سبعمائة رجل من فارسٍ وراجل؛ وأَن لاينقصه في المخاطبةِ والكرامة من الرسم الذي كان يخاطبه به في أَيَّام امارتِه، وأَمر أَن يلقَّب بالماخسطرس.

واستدعى الملك إخوته وابنيّه: أبا الغنائم، وأبا البركات؛ فخلع عليهم؛ وأَنفذ على أَيديهم توقيعاًباقطاع عدّة ضياع له ولهم؛ وكان من جملتها شيح لَيْلُون[٣]؛ فعمر مرتضى الدولة حصنها، وسكن فيه ليقرب عليه ما يحتاج إلى معرفته من أمور حلب.

أما مرتضى الدولة فانه عمر إلى أَن قدم أَرمانوس من القسطنطينية؛ ونزل على تبّل في سنة إحدى وعشرين وأَربعمائة، وكان معه إذ ذاك، وتوفي بعد ذلك[٤].

١ ـ بهذه الواقعة انتهى حكم الدولة الحمدانية فعليا من حلب، ويعتقد أن للخلافة الفاطمية دورها في عصيان فتح على منصور بن لؤلؤ. امارة حلب ص٤٨ ـ ٥٠ .
٢ ـ Catapan أي حاكم.
٣ ـ هي في بغية الطلب ج١ ص٢٣٣ «شيح اللون»، في منطقة أنطاكية.
٤ ـ سترد أخبار حملة الامبراطور رومانوس الثالث على حلب بعد مقتل صالح بن مرداس.

[الحكم الفاطمي لحلب][1]

وأما فتح القّلعي أبو نصر فإنه نادى بشعار الحاكم صاحب مصر؛ وصالَحَ صالِحَ بن مرداس على نصفِ الارتفاع ظاهراً وباطناً؛ وسلَّم إليه حرم منصور وحرم إخوتهِ وأولاده، ليسيّرهم إلى ابن لؤلؤ إلى أنطاكية؛ وفي الجملة بُنته التي وعده أن يزوّجه بها؛ فأخرجهم صالح إلى الحلَّة وضبط عنده بنتَه التي وَعَدُه بتزويجها منه؛ ودخل إليها وأنفذ إليه بقيَّة الحرم.

وتسلّم صالح الأعمال والضّيَاع التي تقرَّر مع ابن لؤلؤ أن يدفعها إليه. واستدعى والي أفامية أبا الحسن عليّ بن أحمد العجميّ المعروف بالضَّيف، فأنزله بالمدينة بالقصر بباب الجنّانِ، في أوائل شعبان من سنة ستّ وأربعمائة.

وبقي «فتح» بالقلعة فأحسن «الضّيفُ» السيرةَ؛ وردّ على الحلبيّين ما كان قد اغتصبه سيف الدولة وولده من أملاكهم؛ وبالغ في العدل[2].

---

١ ـ أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ كان صالح بن مرداس معاديا لسقوط حلب للفاطميين، وكذلك فعلت الامبراطورية البيزنطية، مما سيؤدي إلى تطورات سريعة تقود نحو تأسيس حكم الدولة المرداسية. امارة حلب ص٥٠ ـ ٥١.

وكاتب «فتح» الحاكم يخبره بما فعل، فوردت مكاتبةُ الحاكم إليه يتضمَّن شكره على مافعل، ولقّبه مبارك الدولة وسعيدها.

وكتب إلى أبي الحسن الضَّيف يأمره بمعاضدتِهِ، ولقّبه سديد الدولة، وكتب إلى صالح بن مرداسٍ يأمره بالاتفاق معهما، ولقَّبه أسد الدولة.

وكتب لأهلِ حلب توقيعاً باطلاق المُكوس والمظالم، والصفح عن الخراج؛ وهو عندي متوّج بعلامة الحاكم عليه: «الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ». ونسخته:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هذا مِن أَمْرِ الإمام الحاكمِ بِأَمْرِ الله أَميرِ المُؤْمنين لجميع أهل حلبَ وأعمالها..

إنَّه لَمَّا انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظُّلْمة المُدلهمّة، وقبيح ظفر[1] من يتولّى أموركم في المعاملات وزيادتهم عليكم في الخراج والجبايات، إضعافاً لكم، وعُدُولاً عن سَنَنِ الحقّ بكم، أمر ـ زادَ الله أَمْرَهُ عَلُواً وَنَفَاذاً ـ بإطلاقِ المُؤَن مِنْ دَارِكُورَه ونَظَائِرِها؛ والصّفْحِ عَن الواجب عليكمِ مِنْ مَالِ الْخَراج لاسْتِقْبَال سْنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعمائَة، لِتَعْلَمُوا أَن ضِيَاءَ الدّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ قَدْ لَمَعَ وَظَهَر، وأنَّ حندسَ الظلام قد انجَاب وَدَثَر».

وذكر تمامه.

---

١ ـ كذا بالأصل، وأراها تصحيف «نظر».

وَوَصَل من قبل الحاكم والي طرابلس مُختار الدولة ابن نزال الكُتَامي؛ ووالي صيدا مرهف الدّولة بجكم التركي؛ وكانوا جميعاً في البلد من قبل الحاكم.

ثم كتب الحاكم إلى حسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائي[1] وعشيرته، وسنان بن عُليان الكلبيّ وعشيرته[2]، بالاحتياط على حفظ حلب، وأتبع ذلك بمكاتبة إلى «فتح»، يمنّيه ويعده الجميل إذا سلّم القلعة. فأجاب إلى تسليمها؛ وأخذ جميع ماكان بها من الذّخائر لمنصور من عَيْنٍ، وورقٍ، ومتاعٍ، وسلاح.

وكتب بولاية صور، فسلّم القلعة إلى الأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك، في شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة[3]. وكان الحاكمُ قد خَلَعَ عليه في جُمادى الأولى من سنة سبع وأربعمائة. وحمله على عدةٍ من الخيل بسروج محلاة بذهبٍ مصفّحة؛ وقلّده سيفاً ومنطقةً بمنطقة وسيّره إلى حلب.

وتوجّه «فتحُ» إلى صور. وولّى «الضّيف» بحلب في سنة سبع

---

١ ـ لحسان بن المفرج ترجمة في بغية الطلب ص ٢٢٣٩ ـ ٢٢٤١.

٢ ـ سترد بعد قليل أخبار الحلف الثلاثي فيما بين صالح بن مرداس وسنان بن عليان، وحسان بن المفرج ضد الخلافة الفاطمية.

٣ ـ بهامش الأصل: مطلب: «وقد كان صالح راسل فتحاً وأشار عليه أن يقيم بالقلعة ويكون هو خارج حلب وأن نتفق على إخراج المغاربة من حلب والاجتماع على حفظها. فعلم أهل حلب بذلك فاجتمعوا تحت القلعة، وقالوا: مانريد إلا المغاربة، ولا رغبة لنا في البادية. وصارت فتنة، فكتب الضيف إلى الحاكم يطلب منه أن يمده بالعساكر لتقوى يده على صالح؛ فسيّر إلى ولاة البلاد يأمرهم بالتوجه إليه هـ.».

وأربعمائة، حين تولّى، القاضي أبا جعفر محمد بن أحمد السمناني الحنفي القضاء بحلب.

وكان عزيز الدولة أرمنياً لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. وكان بنجوتكين شديد الشَّغَف به؛ وكان أديباً عاقلاً، كريماً، كبير الهمّة. فولاه الحاكمُ حلبَ وأعمالها؛ ولقّبه أمير الأمراء، عزيز الدولة، وتاج الملّة. ودخل حلب يوم الأحد الثاني من شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة.

وكان مُحبّاً للأدب والشّعر. وصَنَّفَ له أبو العلاء بن سليمان «رسالة الصَّاهل والشَّاحج» و«كتاب القائف».

وفيه يقول القائد أبو الخير المُفَضَّلُ بنُ سَعِيد العَزِيزِيُّ شاعرُه يَمْدَحُهُ، ويذكرُ وقود قلعة حلب ليلة الميلاد، وكان الغيمُ قد ستر النجُوم:

ابقَ للمَعْروفِ والأدَبِ ... آمِناً مِنْ صَوْلَةِ النُّوَبِ
يا عَزِيزَ الدَّوْلَةِ الملك الـ ... ـمنتضى للمجدِ والحسَبِ
كيْفَ يَخْشى الدِّينُ حادثةً ... وعزيزُ الدِّينِ في حلبِ
سُدَّ مِنْهُ ثَغْرُها بِفَتىً ... لا يشوبُ الجِدَّ باللَّعبِ
أضرَمَ العنقاءَ قَلْعَتَهُ ... فَبَدَتْ في منْظرٍ عَجَبِ
لزَّتِ الأرض السَّماء بها ... فَثَنَتْ كشحاً على وَصَبِ
ورمتْها بالشرار كما ... رَمَتِ الغبراء بالشُّهُبِ
أُوقِدتْ تحتَ الغَمَامِ فما ... يَلْقَها مِنْ مُزنَةٍ يَذُب
سخَنَتْ حَوْضَ الْحَيَا فَهَمَى ... بجحيم عَنْهُ مُنْسَكِبِ

لو تدومُ النَّارُ نَشّفَهُ حَرُّ ما يلقَى فلم يصبِ
طلعتْ شَمْسُ النَّهارِ بها والدُّجى مَسْدولَةُ الحُجَبِ
فلو أنَّ النار لاحِقَةٌ بالنُّجوم الزّهر من كَثَبِ
حكتِ الشمّاءُ غانيةً حُلِّيَتْ بالدُّر والذَّهَبِ
حاربتْها الريح فاضطَّرَمَتْ غضْبَة مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ
جاذبتْها في تغيُّظها شُعَلاً مُحْمَرَّةَ العَذَبِ
يا أَميرَ الآمرين ويا مُسْتَجارَ القصْدِ والطَّلَبِ
قَدْ نَفَيْتَ اللَّيْلَ عَنْ حَلَبِ نَفْيَ مَظلُوم بلا سَبَبِ
وَتَركْتَ الشَّمْسَ حائِرَةً في دُجى الظَّلْمَاء لم تَغِبِ

وعزيزُ الدولة هذا، هو الذي جدَّدَ القصر تحت قلعة حلب؛ وتناهى في عمارته؛ وحمّام القصر كانت له، وجعله ملاصقاً لسفح القلعة؛ وقصد بعمارته قربه إلى القلعة، خوفاً مما جرّى لمرتضى الدولة. وكان متّصلاً بالقلعةِ وهو الذي أمر بعمارة القناديل الفِضَّة للمسجد الجامع، وهي باقيةٌ إلى الآن واسمُهُ عليها.

وكلّف عزيزُ الدولة أسدَ الدَّولة صالحَ بن مرداس أَن يحمل والدته إلى حلب، لتسكن الأنفس ويعلم العوامّ التئام الكلمة والتضافر على الأعداء، ففعل ذلك في سنة ثمان وأربعمائة.

ثم إنَّ عزيز الدولة تغيّر عليه الحاكم فعصى عليهِ، وضَرَبَ الدينار والدّرهم باسمه بحلب، ودعا لنفسه على المنبر، فأرسل الحاكم إلى الجيوش، وأمرها أَن تتجهزّ إليه في سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

فلما بلغ عزيز الدولة ذلك أرسل إلى باسيل ملك الرم يستدّعيهِ ليَسَلّم إليه حلب، فخرج باسيلُ الملك؛ فلمَّا بلغَ موضعاً يعرف بمرج الدّيباج[١]، بلغ عزيز الدولة وفاة الحاكم، فأرسل إلى باسيل يعلمه أنَّهُ قد انتقض ما كان بينهما من الشرَّط، وأنّه إن ظهر كان هو وبنو كلابٍ حرباً له.

فعدل باسيل إلى مناز كرد[٢] فأخذها من الخزر، وكان الناس قد أجفلوا من ملك الرُّوم إلى حلب؛ فكانت هذه الجفلة تسمى جفلة عزيز الدولة لأنها بسببِهِ.

ولما اطمأنَ عزيزُالدَّولة بموت الحاكم، ووصَلتْهُ من الظّاهر الخِلَع من مصر؛ ودخل غلام له يدعى تيزون، وكان هِندياً؛ وكان يميل إليه؛ ودخل في أوّل الليل عليه، وهو نائم في المركز، وفي يده سيفٌ مُجرّد مستور في كمّه ليقتله، فوجد صبياً من رفقته يغمزه فلما رآه الصبيّ حرَّك مولاهُ ليوقِظَه، فبادر الهندي، وضربّ عزيزَ الدولة فقتله، وثّنى بالصبيّ، وقتل الهندي. وذلك كله لأربع ليالٍ خلت من شهر ربيع الآخر، سنى ثلاث عشرة وأربعمائة[٣].

وعَمِلَ شاعرُهُ المُفَضَّلُ بن سعيد:

لِحِمَـامِهِ المُقْضيِّ رَبَّى عَبْـدَهُ ولِنَحْـرِهِ المُفْرِيِّ حَـدَّ حُسَامَـهُ

١ ـ واد عجيب المنظر نزه بين الجبال، بينه وبين المصيصة عشرة أميال. معجم البلدان.

٢ ـ بلد مشهور قرب خلاط، كان يعد في أرمينية، ليس بعيداًعن بحيرة وان وفيه ستحصل المعركة الحاسمة بين السلطان ألب أرسلان والامبراطور البيزنطي رومانوس دايجينس.

٣ ـ عالجت ملابسات اغتيال عزيز الدولة في كتابي إمارة حلب ص٥٢ ـ ٥٤، ويبدو أنه كان للخلافة الفاطمية دورها الكبير.

وكان الوالي بالقلعة، من قِبَل عزيز الدولة، أَبا النجم بدراً التركيّ مملوكاً كان لبنجوتكين مولى عزيز الدولة فاتك؛ وكانت بينهما في أيام بنجوتكين صداقة ومودّة بحكم المرافقة[1].

فلما تقدّم عزيز الدَّولة قرَّبه واصطفاه، وولاه القلعة بحلب من قبَلِهِ. وقيل: إنه مملوك لعزيز الدّولة، ويعرف ببدر الكبير. وقيل: إنّه هو الذي حمل تيزون على قتلِ عزيز الدّولة؛ فلما قُتِل استولى على البلد، يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائةٍ، ولُقِّبَ وفيَّ الدولة وأمينَها. وكان كاتب بدر رجلاً يقال له ابن مدبّر إلى أن وردت العساكر المصرية من جهةِ الظّاهر؛ وزعيمها سديد الدولة علي بن أحمد الضّيف؛ فتسلّم حلب من وفيّ الدّولة بدر.

ولما دخل الضَّيف على بدر بكتابِ الظَّاهر، لَطَفَ به، واسترسل إليه، وطرح القيدَ في رجله، وقبضَ عليه، وانزله من القَلْعة، وتسلَّمها منه، فسلَّمها إلى صفيّ الدّولة أبي عبد الله محمد ابن وزير الوزراء أبي الحسن عليّ بن جعفر بن فلاح الكُتَامِيّ، يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر رجب سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

وكان صفيّ الدولة هذا شاعراً أديباً؛ وأبوه عليّ وزر للحاكم؛ وجدّه جعفر بن فلاح أحد قواد المصريين؛ ووليت القلعة يمن الدّولة سَعَادة الخادم

١ ـ بهامش الأصل: «وأظن أن عزيز الدولة ولـىّ قضاء حلب في أيامه أبا علي أحمد بن أبي ابراهيم الشريف الحسيني، وأقطعه اللجينة والله أعلم».

المعروف بالقلانسيّ، وكان خادماً بلحيةٍ بيضاء؛ وكان من أفاضِلِ المسلمين؛ فيه الدّينُ والعلمُ؛ وجعل الظّاهر في المدينة والياً، وفي القلعة والياً خوفاً أن يبدو من والي حلب ما بدا مِن عزيز الدّولة فاتك.

وعزل صفيّ الدولة بن فلاح عن حلب، يوم الاثنين النصف من المحرّم سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وولّى حلب الأمير سند الدولة أبو محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامي الجَيْمُليّ، وكان وأهله من وجوه كُتَامة، وكان والياً بحصن أفامية. وهو الذي كتب إليه أبو العلاء بن سليمان «الرسالة السَّنَدِّية» في مجلّدٍ واحدٍ، وكان وزيره أبو سعيد مُسْبح.

وتُوّفي سَنَدُالدّولة بمرضٍ ناله بحلب، يوم الخميس لثمانٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائةٍ.

وكان خبرُ مرضه قد وصل إلى الظّاهر، فكتب إلى أخيهِ سديد الملك أبي الحارث ثعبان بن محمد بن ثعبان إلى تنّيس[1]، وكان يليها، أن يسير والياً إلى حلب.

فخرج من تنّيس في البحر إلى طرابلس، وسار من طرابلس جريدةً فورد إلى حلب، وقد تُوّفي أخوه. وكان وصوله إلى حلب، يوم الأحد السابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وأربعمائة.

---

١ ـ تنيس بلدة مابين الفرما ودمياط. معجم البلدان.

وكان قاضي حلب، في سنة خمس عشرة وأربعمائة، أبا أسامة عبد الله بن أحمد بن علي بن أبي أسامة، نيابةً عن ابن أبي العوّام قاضي مصر عن الظّاهر. ووليّ القلعة أبو الحارث موصوف الخادم الصقْلابي الأبيض الحاكميّ، من قبل الظّاهر؛ وكان شجاعاً، عاقلاً؛ وأقاما فيها واليين أحدُهما بالمدينة، والآخرُ بالقلعة، إلى أن حالف الأميرُ أبو عليّ صالح مرداس بن ادريس الكلابي سنانَ بن عليان الكلبيّ، وحسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائي على الظّاهر؛ وتحالفوا على احتواء الشّام، وتقاسموا البلاد. فتكون: فلسطين وما برَسْمِها لحسّان؛ ودمشق ومايُنسب إليها لسنَان؛ وحلب وما معَها لصالح. فأنفذ الظّاهر إلى فلسطين أنوشتكين الدِّزبري[1] والياً، فاجتمع الأمراء الثلاثة على حربه، فهزموه إلى عَسْقَلان[2].

وفتح حسّان الرملة بالسّيف، في رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة. وأحرق أكثرها، ونَهَبَها، وسَبَى خلقاً من النّساء والصِّبيان[3].

١ ـ للدزبري ترجمة في المقفى للمقريزي ج٢ ص٣٠٢ ـ ٣٠٦ .
٢ ـ مدينة فلسطينية على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. معجم البلدان .
٣ ـ عالجت مسألة الحلف الثلاثي في كتابي إمارة حلب ص ٧٦ ـ ٨٣ .

[إمارة صالح بن مرداس][1]

وسيّر صالح بن مرداس كاتِبَهُ أبا منصور سليمان بن طَوق، فوَصَلَ إلى معرّة مصرين؛ وغَلَبَ عليها؛ وقبض واليها؛ وقيَّده؛ وسار إلى حلب في جماعةٍ من العرب، لسبع بقين من رجب. فجرى بينه وبين سديد الملك ثعبان وموصوف الخادم، حربٌ في أيامٍ متفرّقة.

وسار صالح بن مرداس إلى حلب، في جمعٍ كثير؛ ونزلها يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من سنة خمس عشرة وأربعمائة؛ على باب الجنان. وجاب الحلل يوم الاثنين؛ وحاصَرَها ستة وخمسين يوماً؛ فوقع خلفٌ بين موصوف الخادم وبين أبي المرجّا سالم بن مستفاد غلام سيف الدَّولة بن حمدان؛ وكان من كبار القوّاد بحلب؛ وداره بالزَّجاجين، وحَمامُه أيضاً، آثارها باقية إلى وقتنا هذا.

فعزَمَ موصوف على قتل سالمٍ هذا؛ فجمع سالم جمعاً، وفتح باب قنّسرين؛ وخرج إلى صالح، فأخذ منه الأمانَ لنفسه، ولجميع أهل المدينة. وسلمت المدينة إليه، يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القَعْدة.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

واحتمى سديدُ المُلك بن ثُعبان في القَصر الملاصق للقلعَة؛ ونُصِبت المنجنيقاتُ والعَرّادات عليهِ وعليها.

ثم إنَّ صالحاً رتّب أبا المرجّا سالم بن المستفاد، وكاتبه سليمان بن طوق على قتالِ القصر والقلعة بحلب.

وسار إلى فلسطين منجداً حسَّان بن المفرّج على الدّزبريّ، فإنه جمع، وعاد إليهِ في جيشٍ كثيفٍ، فالتقى الجيشان فكُسر الدّزبريّ، وعاد مفلولاً.

وأَما قلعةُ حلب فإنَّ الحلبيين نقبُوها؛ ووصل النقب إلى بئرها المعين؛ وقلّ الماءُ فيها؛ ودام الحصار عليها سبعة أَشهرٍ.

وراسل من في القلعة سالماً وسليمان في الصلح في عاشر ربيع الآخر؛ فلم يجيباهم. ونصبوا الصّلبان ثلاثة أيام؛ وَدَعَوْا لملك الرُّوم؛ ولعنوا الظّاهر؛ ونقر الناقوس؛ وقاتلوا القلعة، ثم نفروا يوم الجمعة ثاني عشر الشّهر، وحملوا المصاحف على أَطراف الرّماح في الأسواق؛ ونادوا النَّفير وزحفوا.

فاستأمن جماعة من المغاربة الذين في القلعة، فخلع عليهم، وطيف بهم في المدينة. وبسطت ثياب الدّيباج والسّقلاطون؛ وبدر المال مقابل القلعة، وبُذلت لمن ينزل إلى ابن مستفاد وسليمان مستأمِناً.

١ ـ السقلاطون: نوع من النسيج مصنع من الحرير الموشى بالذهب.

فلمّا يئس أَهلُ القلعة من النجدة نزل رجلٌ أسودُ يُعْرَفُ بأبي جُمعة، وكان عريف المصامِدة إلى المدينةِ، وبقي أياماً ينزل من القلعة ويصعَد فأفسده سالم بن مستفاد وسُليمان بن طَوق.

فلمّا جاء ليطلع القلعة في بعض الأيّام تقدّم موصوفُ الخادم والي القلعة بِرَدّ الباب في وجهه؛ فصاح إلى أَصحابه، فالتفتَ المصامدة والعبيدُ في القلعَة؛ ووقع الصوت إلى أَهل حلب، فطلعُوا إلى القلعَة من كلّ مكان[1].

ودخلَها ابن طَوق وابن مُستَفاد، يوم الاربعاء مستهلّ جمادى الأولى سنة ست عشرة وأربعمائة، وقدم صالح بن مرداس حلب عائداً من كسرة الدزبري. فدخلها يوم السبت ثامن شعبان من السنة، وقبض على موصوف الصقلبيّ وسديد الملك ثُعبان، وأبي الفضل بن أَبي أسامة.

فأما ثُعبان ففدَى نفسه بمالٍ دفعه إلى صالحٍ؛ وأمَّا موصوف فضرب رقبته صبراً بين يديه. وأمَّا القاضي أبو الفضل بن أبي أُسامة فدَفنه حيّاً في القلعة.

ولمَّا جدّد الملك العزيزُأبو المظفّر محمّد بنُ غازي ـ رحمه الله ـ الدار الكبرى التي ابتناها بقلعة حلب، وحفر أساسها؛ وجدوا مطمورة فيها رجلٌ في ساقيهِ لبنة حَديد، وهو جالسٌ فيها قد دُفن حيّاً ولم يبق إلا عظامُهُ، وهو على هيئة القاعد فيها. ولا أشكُّ في أنّه ابن أبي أسامة المذكور؛ والله أعلم.

١ ـ انظر بشأن سقوط حلب لصالح بن مرداس ودور بيزنطة في ذلك كتابي إمارة حلب ص٧٧ ـ ٨٠.

وملك صالح في هذه السنة: حمص، وبعلبكّ، وصَيْدا، وحصن ابن عكار بناحية طرابلس. وكان في يده الرّحبة، ومنبج، وبالس، ورفنّيه[١].

وكان، وهو محبوس بالقلعة عند مرتضى الدولة، قد رأى في المنام كأنّ انساناً قد دخل عليه، فألبسّه قلنسوة ذَهب، ففرّج الله عَنْهُ؛ وخرج من السّجن؛ وكان منه ماذكرنا.

ثمَّ إن الظّاهر سيّر عسكراً مع الدزبريّ وضَمَّ رافع بن أبي الليل إليهِ وقَدَّمَهُ على الكلبيّين[٢]، وجهزّه إلى محاربة حسَّان بن المفرّج الطّائي، لأنّه كان قد أخرب الشام، وعاث، وأفسد.

فلما علم حسّان بقربه استصرخ صالحاً، فتوجّه نحوه؛ فرأى صالحٌ ذلك الشّخص في المنام بعينه، قد دخل عليه وانتزع من رأسهِ القلنسوة الذَّهَب؛ فتطير من ذلك.

ولما وصل إلى حسّان ونشِبَت الحربُ بينهما وبين الدزبَري، وذلك بالموضع المعروف بالأقْحُوانة[٣] على الأرْدُنّ، طُعِنَ صَالحٌ فسقط عن فرسه،

---

١ ـ حلت محل رفنية بلدة بارين، التي يرسم اسمها الان «بعرين» وهي تتبع ناحية عوج وتبعد عنها ٨,٥ كم إلى الشمال، وتتبع عوج منطقة مصياف، وفي بعرين بقايا قلعتها التاريخية الشهيرة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ كان سنان بن عليان قد توفي، فتمزقت قبيلة كلب، وتحالف رافع بن أبي الليل مع الدزبري وصاهره، مما أخل بموازين القوى وأدى إلى انهيار الحلف الثلاثي. إمارة حلب ص٨١ ـ ٨٣.

٣ ـ كانت على شاطىء طبرية قرب عقبة أفيق. معجم البلدان.

طَعَنَهُ طريف الفزاري، فرآه رافِعُ بن أبي اللّيل فعرفه، فأجهز عليه، وقطع رأسه، وبادر به الدّزبري.

وقيل: طَعَنَهُ رجُلٌ يقال له ريحان. [وكان] أسد الدّولة صالح [على][1] فرس؛ فما زال يرمح حتى رماه، وجاءه رافع فأخذ رأسه؛ وكان مقتلُه لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة. وقيل: في يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى من السَّنة.

وكان قاضي حلب في أيامه القاضي أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان المعروف بالقاضي الأسود، بعد ابن أَبي أُسامة، ولي قضاءها سنة ست عشرة، واستمرّعلى القضاء في أيام ابنهِ شبل الدَّولة.

وكان وزير صالح تاذرس بن الحسن النصراني، فأُخذ في الوقعة وصُلب وكان هذا النصراني متمكِّناً عند صالح؛ وكان صاحبَ السَّيف والقلم.

وقيل: إنّه كان يترجَّل له ـ لعنه الله ـ الولاةُ والقُضاةُ، فمن دونهم إلا القاضي أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان قاضي حلب، والشيخ أبا الحسن المهذّب بن علي بن المهذّب فانه أراد أن يترجّلا له فحلف أن لايفعل.

---

١ ـ جاءت الجملة بالأصل مضطربة كما يلي «فرس أسد الدولة صالح، فما زال يرمح حتى» فأعيد تقويمها.

وقيل: إنَّ أهل «حاس»[٢] ـ قرية بمعرَّة النّعمان ـ قتلوا حَماه، وكان يقال له الخوري، وكان من أَهل تلمنّس لأذّيته لهم؛ فحين سمع تاذرس بقتل حَميه الخوري، خرج في عسكر حلب؛ وطلب أهل «حاس» في الجبال والضّياع؛ وهرب القاتلون إلى أفامية، فلحقهم، فسلّمهم إليه واليها.

فكتب إلى صالح يستأذنه في قتلهم، فأذن له فقتلهم، وصلبهم، فلما أنزلوا عن الخشب ليُصلَّى عليهم ويُدْفَنوا، صلَّى عليهم خلقٌ عظيم.

وقال الناس حينئذٍ، يكايدُون النَّصارى: «قدْ رأينا عليهم طُيوراً بِيضاً، وما هِي إلا الملائكة»، فبلَغَت هذه الكلمة تاذرس ـ لعنه الله ـ فَنَقمها على أهل المعرَّة، واعتدها ذنباً لهم.

فاتفق أن صاحت امرأةٌ في الجامع، يوم الجمعة، وذكرتْ أَنَّ صاحب الماخور أَراد أَن يغصبها نفسها، فنفر كلّ من في الجامع إلا القاضي والمشايخ؛ وهَدَمُوا الماخُور، وأخذوا خَشَبَه؛ وكان أَسدُ الدَّوْلَةِ صالح في صيدا، سنة سبع عشرة وأربعمائة.

فلمَّا توجَّه إلى حلب، سَنَة ثمان عشرة، لم يزل به تاذرس حتى اعتقل مشايخ المعرَّة وأماثلَها، فاعتقل منهم سبعين رَجُلاً، وقطع عليهم أَلْفَ

---

٢ ـ حاس: قرية في جبل الزاوية، تتبع ناحية كفرنبل، منطقة معرة النعمان، محافظة ادلب، تبعد آثارها عن المعرة ٩كم إلى الجنوب الغربي منها. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

دينارٍ. وقال له صالح حين لجَّ عليهِ: «أَأَقْتُلُ المُهَذَّبَ أو أَبا المجد، بسبب ماخور! ما أفعل!».

وقد بلغني أنه دُعِيَ لَهُمْ في آمد وميَّافارقين؛ فغلبه على رأيه، فبقوا في الاعتقال في الحصن، سبعين يوماً، إلى أن اجتاز صالح بالمعرَّة؛ واستدعى أبا العلاء بن سليمان بِظَاهر المعرَّة.

فلما حَصَل عنده بالمجلس قال له الشَّيخ أبو العلاء، ساعياً فيهم: «مَوْلانَا السَّيد الأجل أسد الدولة ومقدَّمها وناصحها، كالنَّهارِ المَاتِعِ، اشْتَدَّ هَجِيرُه، وَطَابَ أَبْرَدَاه، وَكَالسَّيفِ القَاطِعِ، لانَ صَفْحُه، وَخَشُنَ حَدَّاه، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عنِ الجاهِلِينَ﴾»[1] فقال صالح: «قَدْ وَهبْتُهُمْ لك أَيُّها الشَّيْخ». ولم يعلم أبو العلاء بما قطع عليهم من المال فأخِذ منهم. ثم قال أبو العلاء شعراً:

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْــزِلي بُــرْهَــةً ... سَتِيرَ العُيُوبِ فقيـدَ الحَسَدْ
فلمَّا مَضَى العُمْرُ إلا الأقَلَّ ... وحُمَّ لرُوحِي فِرَاقُ الجَسَدْ
بُعِثْتُ شَفِيعاً إلى «صَالِحٍ» ... وذاك مِنَ الْقَومِ رأيٌ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ مِنِّيَ سَجْعَ الحَمَامِ ... وأَسْمَـعُ منْـهُ زَئِـيرَ الأسَـدْ
فَـلا يُعْجِبَنِّيَ هَـذَا النِّفَــاقُ ... فَكَمْ نَفَقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ[2]

---

١ ـ سورة الأعراف ـ الآية ١٧٧.

٢ ـ لزوم مالا يلزم ـ ط. دمشق ١٩٨٦ ص٥٣٤. إمارة حلب ص٢٠٩ ـ ٢١١.

[إمارة نصر بن صالح][1]

وَلَمَّا قُتل صالح بن مرداس؛ مَلَك حَلَب بعده ابناه:

معز الدولة أبو علوان ثمال في القلعة، وشبل الدولة نَصر في المدينة.

وأوقعا في هذه السنة على قِيبّار[2] بِقَطَبان أنطاكية ميخائيل الخادم. وكان قَصَدَ بلَدَ حلب بغير أمر الملك ولاطفه ثمالٌ ونصرٌ؛ فلم يرجع عن قَصْد بلد حلب؛ فكبساهُ في قِيبار، وهو يُقاتل حصنها؛ وقتل جماعة من الفريقين؛ وانهزم عسكر الرّوم يوم الخميس لليلةٍ بقيت من جُمادى الآخِرة.

ثم استعطّفاهُ واستقامت الحالُ بينهم[3]؛ وداما على ذلك إلى أن جرى بين مُعزّ الدَّولة ثمالٍ وبين زوجته كلام؛ فَغَضبتْ عليه؛ وخرجتْ إلى الحلَّة بظاهر حلب؛ فأمر ثِمالٌ أن يُصاغ لها لالَكَةٌ[4] من ذهب مرصّعة بالجواهر؛

١ - أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ - القيبار: حصن بين أنطاكية والثغور. معجم البلدان.

٣ - إمارة حلب ص٨٨ - ٨٩.

٤ - لالك بالفارسية: حذاء، عرف الديك، تاج، اكليل. المعجم الفارسي الكبير لابراهيم الدسوقي شتا. ط. القاهرة - مكتبة مدبولي.

فلما استوت أخذها في كُمِّهِ وخَرَج.

فحين علم نصر ركب واجتاز تحت القلعة، كأنّه يُريدُ الخروج من باب العِراقِ، في جماعةٍ من أصحابِهِ؛ وجَذَبَ سَيْفَه لمّا قارَبَ بابَ القَلْعَة؛ وَهَجَمَها فلمْ يُمانِعْهُ أحدٌ من الأجناد لهيبتِهِ؛ وتبعه أصحابُه مُجرّدينَ سُيُوفَهُم؛ فجلس في المركز وقال: «إنَّ من قدَّم أخي عَليَّ فقد أساء؛ لأنّني أَوْلَى بمُدَاراةِ الرّجال؛ وهو أَوْلَى بمُدَارَاة النِّساء».

ومن ذلك اليوم جعِل لأبواب قلعة حلب سلسلة تمنع الرّاكب الصعود فجاءَةً، ورسم أن لايَدخلها أحدٌ مُتَقَلِّداً سيفاً، ولو أنَّه أقربُ النَّاس مودّة إلى مالكها.

فتفرَّد نصر بالأمر في القَلْعَة والبلد، وذلك في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة. وكان وزيرهُ أبا الفرج المؤمَل بن يوسف الشمّاس، الذي يُنْسَبُ إليه حمَّام الشمّاس بحلب؛ في الجلُّوم[1]؛ وكان نصرانياً وكان حسن التّدبير، مُحِبّاً لفعل الخير؛ وكان أخوه ناظراً في البلد البرَّاني، فعمره، وعمر المساجد البرَّانية.

فجمع أبو عُلوان ثمال بن صالح الأعراب؛ وعَزَم على منازلة أخيه نصر؛ فسيَّر نصر إلى ملك الرُّوم أرمانوس - وكان قد هلك باسيل في سنة

١ - من أحياء حلب القديمة، كان ينفذ إلى ظاهر المدينة بباب أنطاكية غربا وباب قنسرين جنوبا. أحياء حلب وأسواقها لخير الدين الأسدي - ط. دمشق ١٩٨٤ ص١٦٤ - ١٧٢ .

خمس عشرة، وولي أرمانوس ـ يستدعيه إلى حلب فَخَرج على ما قيل في ستّمائة ألف حتّى وصل إلى أنطاكية.

فتوسّط مقدّمو العرب بين نصر وثمالٍ؛ ووفقوا بينهما على أن يكون لنصر حَلَب؛ ولثمال بَالس والرَّحبَة؛ فرجع نصر عمَّا كان راسَلَ به ملك الرُّوم.

وأرسل ابن عمه مُقَلّد بن كامل بن مرداس إلى مَلِك الرُّوم، يسأله أن لايقصده، ويحمل إليه من القطيعة ما كان يحمله أولاد سيف الدولة إلى باسيل، فأبى واعتقل مُقَلّد بن كامل عنده؛ فحين تحقَّق رجوع نصر عن رأيه الأول جَبُن وضَعُفَ عن مُنازلة حلب.

وسار من أنطاكية إلى قيبار في بضعة عشر يوماً؛ وكسرت سريةٌ له عَرب حلب؛ وكانوا قد طاردوا عسكر الرُّوم، فاستظهر الرُّومُ عليهم، وكان معه ملك البُلغر، وملك الرُّوس، والأبخاز، والخَزَر والأرمن، والبجنَاك، والأفرنج.

ونزل الملك بجيوشه على تبّل قريباً من الجبل، في موضع بعيد عن الماء، وضرب على عسكره خَنْدَقاً؛ وكانت أموالُه على سبعينَ جمَّازة؛ وكان قدر موضع عسكره لمن يدور حوله مقدار يوم في يوم للمجدّ الرَّاكب على فرس.

ولقيه في طريقه أبو علوان دفاع بن نبهان الكلابيّ في خيلٍ قليلة؛ فنال من سَرَاياه كلَّ ما طلب؛ وأرسل الملكُ سريّة فيها صناديدُ عسكره إلى عزاز؛

فلقيتها بنو كلاب، فَظَفِروا بها، وقتلوا بَطَارقها، وأَسروا جماعةً من أولادِ الملوك الذين معهم، وجسرتْ عليهم بنو كلاب، فحاصروهم في الموضع الذِي نزلُوا فيه.

ولقد أخبرَ بعضُ من شاهدهُم أن مقْثاوة كانت قريبةً من العسكر بمقدار رمية سهم، وأن الرُّوم لم يقطعوا منها قثّاءة واحدةً، خوفاً من العرب أن تتخطّفهم.

ولمَّا كُسرت السريةُ التي أرسلها الملكُ أجمع رأيه على العود إلى بلادِهِ، واعتذر قائلاً: «لولا عَطَشُ عسكري لبلغْتُ مُرادي». وهجم نصر والعرب على سوقِ الملك فنهبُوه؛ وتأخَّر رحيلُ ملك الرُّوم من منزلتهِ ثلاثة أيام.

وأَقبل شِبل الدولة نصر في تسعمائة وثلاثة وعشرين فارساً، وقيل في سبعمائة فارس؛ فحين أشرف على الرُّوم ظنّوا أنّها كبسة؛ فانهزموا؛ ومنَحَ الله أكتافَهم يوم الاثنين لسبع ليالٍ خلتْ من شعبان سنة إحدى وعشرين.

ونزع ارمَانوس الملك خُفَّه الأحمر لئلا يُعرف؛ ولبس خُفّاً أَسود ـ ولا يلبس الخُفَّ الأحمر عندهم إلا الملك ـ وهرب. وأَخذ شِبل الدَّولة تاجه وبلاطَه ولُبَّادَهُ؛ وهرب في أرمنٍ كانوا معه حَمَوْه بالسّهام[1].

وأَخذ الرُّوم الطريق إلى الجبل منهزِمين وطلَعُوا فيه، وحصلوا في بلد

---

١ ـ عالجت هذه الأحداث في كتابي إمارة حلب ص٨٧ ـ ٩٦ ، معتمدا على مختلف المصادر، لاسيما البيزنطية منها.

قُورس[1]، وكان للرُّوم. ولَحِقَ بعضُهم بعضاً ولم يبق مع الملك إلا القليل. وقتل المسلمون من بطارقته وغيرهِم ما لا يُحصى، وأسرُوا مِنْ أولاد الملوك وغيرهم كذلك، واشتَغَل النَّاسُ بالنَّهب، وأَخَذُوا من الدَّواب والثياب والديباج والأمتعة وآلاتِ العسكر ما لايُوصَفُ.

وذُكِر أَنَّ طائفةً من بني قَطَنٍ من نُمَير وردتْ عند الهزيمة؛ فأخذت ثِقل الملك نحواًمن ثلاثمائة بغل محمَّلة،حتّى أَنَّهم تقاسموا الدنانير الأرمانُوسيّة بالقصعة؛ فَحَصَل لكلّ واحدٍ منهم ثماني عشرة حَفنه.

وكان ملك الرُّوم لما رحل طرح النَّار في المنجنيقات والعرَّادات والتّراس؛ ونهب النَّاسُ مِنها ما أَبقَتْهُ النَّار، حتى أَنَّ أَكثرَ سقوف بلد حلب جُعِلت التّراسُ عليها عوض الدُفُوف.

وقيل: إنَّ الناس بحلبَ باتوا على السّور قبل الوقعةِ بيوم، وفيهم ابن نمير العابد، فبات يُصَلِّي على السُّور، وسجد في آخر اللَّيل،فنامَ وهو ساجدٌ، فرأى في منامه عَلِياً ـ عليه السَّلام ـ راكباً، ولباسُهُ أَخضرُ،وبيدِهِ رُمحٌ ،وهو يقول له: «ارفع رأسك ياشيخ، فقد قضيتُ حاجَتَكَ». فانتَبهَ بقَوْلِهِ فحكى للنَّاس ذلك، فتباشَرُوا به.

وحكي عن مرتضى الدَّولة أنَّه قال: «استدعاني أَرمانوس في آخر تلك

---

١ ـ لعل قورس المعروفة الآن باسم كويري، وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم. وكانت قورس كالمسلحة لأنطاكية. بغية الطلب ج١ ص٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

الليلة التي رأى ابن نمير تلك الرؤيا فيها، فقال لي: لكُم بحلب راهِب. فعلمتُ أنَّه يعني ابن نُمَيْر، فقلتُ: نعم؛ فقال: صفْهُ لي! فوصَفْته، وحلّيْتُهُ. فقال لي: رأيتُ هذا الرجل بعينه في هذهِ السَّاعة، وكأني قد أشرفتُ على سور هذه المدينة؛ وهو قائمٌ عليه يومي إليَّ بيدِ ويقُول: ارجِعْ، فما تصل إلى هذا البلد. وتكرّر ذلك، ولا أَرى أنه يتمّ فيهِ شيء. فلمَّا كان من غدٍ كُسرت السَّرية التي أرسلها الملك إلى عزَاز، ثم كانت الوقعةُ والهزيمة بعدَ ذلك».

وقد ذكرنا عن ابن نُمير نحواً من هذه الحكاية، عند منازلة ملك الروم حلب.

وحكى بعض الكتَّاب بحلب: أنه كان في خدمة وثّاب بن محمود بن نصر، عند تاج الدَّولة تتش بن ألب أرسلان، وهو في نوبتيه على ظاهر حماة، فخلع على وَثاب فرجيّة وشقّ، وقال: «هذه مبَاركة أخذها أبي السلطان ألب أرسلان من ديوخانس ملك الرّوم لمَّا كسره»[1].

قال: فاستدعى وثّاب قحف مينا ظاهراً وباطناً، وقال: «هذا يامولانا مُبارك نشرب به لأن جدّي نصراً أخذه من الملك أرمانوس بناحية عزاز». فقال تاج الدولة: «ياوثّاب لم يكن بدٌ من مساواتي في الافتخار». فقال: «لا بل عرّفتُ مولانا كبر بيتي، وإنّني له كبعض العبيدِ الصِّغار». فقال له بالتركي: «بل أنتَ أخي الكبير». فقام وثاب؛ وقبَّل الأرضَ قُدّام السّرير، فزاد في إقطاعهِ، وخَلعَ وحمله على مركوبِهِ.

---

١ ـ لما كسره في معركة منازكرد سنة ٤٦٣ هـ.

وقيل: إنَّ ثمالاً ونصراً حَقَد عليهما ملك الرُّوم ماجرى منهما على ميخائيل بناحية قيبار، فخرج بنفسِهِ، فسيّرا ابن عمهما مقلّد بن كامل يبذلان له الطاعة والخدمة، وكان قد سيّر إليهما يسومهما تسليم حلب، ويقول إنّه يخاف أن تتم عليهما حيلة فتخرج حلب من أيديهما؛ وعرض عليهما عوضاً عنها ما اختاراه؛ فاعتقلا رسوله انتظاراً لما يرد من جَوَاب رسالتهما.

فبلغَهُ ذلك فاعتقل مقلّد بن كامل، وخَرَج بنفسه؛ فأخرجا حرمهما من حلب إلى البرّيةِ خوفاً منه، حتّى كان من أمره ما ذكرناه؛ وكان ثمال في القلعة يحفظها، ونصر باشر القِتَال.

فلما عاد مَلك الرُّوم سار نَصْر وثمال لاحضار حرمهما، فسبق نصرٌ إليها، واستولى عليها، وعوَّض ثمالاً بوساطةٍ من توسّط بينهما الرَّحبَة وبالس ومنبج وأَعمالها.

وخرج بعد هذه الكسرة قَطَبان أنطاكية الخادم المعرُوف بنَقِيطا ـ وتفسيره بالعربية الدُويك ـ في خلقٍ عظيمٍ، فعاث في البلد العربيّ، وأفسد، وفتح حصن المنيقة، وهجم رفنيّة، وسبى عشرة آلاف من أهلها، ونَقَض أبرجة سُورها في سنة إحدى وعشرين؛ وفتح في سنة اثنتين حصن بني الأحمر، وحصن بني غناج، وغير ذلك من الحصون وخربّها[1].

١ ـ يرجح أن هذه الحصون وجدت مابين منطقة القدموس امتدادا حتى سفوح منطقة جبلة وطرطوس. انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٤١٨ ـ ٤٢٢ ، فالمنيقة سيكون من حصون الدعوة الاسماعيلية، وبدّل اسم بكسرائيل إلى بني قحطان، ومرقيه تحمل الاسم نفسه أو اسم نبع حسان في أحواز طرطوس إلى جانب منتجع الرمال الذهبية.

فراسله شبل الدّولة ولاطفه إلى أن صالحُه، وجعله سفيراً بينه وبين ملك الرُّوم في طلب الهُدنة، فاستقرَّ أن يحمل نصر في كل سَنَةٍ إلى ملك الرُّوم دراهم خمسمائة ألف درهم، في نجمين من السَّنة، قيمتها ثمانية آلاف مثقال ذهب.

وأطلق الملك مقلّد بن كامل بن مرداس رسول نصر، وأعطاهُ صليباً من ذهب مرصّعاً أماناً لنصر، ووفاءً بالشَّرط.

وسيّر شبل الدولة نَصر شيخَ الدولة أبا الحسن بن الأيسر إلى الظاهر بمصر؛ وحمل إليه هَدِيّة من جملة ما غنمه من الرُّوم، من الثياب، والصياغات، والأواني، والألطاف الكثيرة. وقاد في صحبته نحو مائة وخمسين رأساً من الدواب، خيلاً وبغالاً، ووقع فعله عندَهُم أَحسن موقع[1]. وقَامَ أبو الحسن الجرجرائي بتمهيدِ أمرِهِ.

وأقام ابنُ الأيسر إلى أن توفي الظَّاهر، فخلع المستنصر على ابن الأيسر؛ وسيّر معه خِلعاً لنصر بن صالح، ولقَّبَهُ مُختصّ الأمراء، خاصّة الإمامة، شمس الدَّولة ومجدها، ذو العزيمتين.

وفي أيّام نصر اجتمع بجبل السُّماق قومٌ يُعرفون بالدّرزيّة منسوبون إلى رجل خيّاطٍ أعجميّ؛ وجاهَروا بمذهبهم، وخرَّبوا ما عندهم من المساجد، ودفعوا نبوة الأنبياء، وجحدُوهُم إلا الإمام الحاضر الذي يدعو إليه الدّرزي،

---

١ ـ عالجت هذه القضية في كتابي إمارة حلب ص٩٦ ـ ٩٩ .

وأحلُّوا نكاح المحارِم، وتفاقَمِ أَمرُهُم، وتحصنُوا في مغاير شاهِقَة على العَاصي، وانضَوى إليهم خَلقٌ مِنْ فَلاحي حلب، وطَمِعوا بالاستيلاء على البلاد.

فخرج إليهم نقيطا قَطَبان أنطاكية، وحاصَرهم في المغاير، ودخَّنَ عليهم، وساعده على ذلك نَصْر بن صالح صاحب حَلَب، ثُمَّ التمسوا الأمان بعد اثنين وعشرين يوماً، فأخرجُوهم بالأمان؛ وقبضُوا على دُعَاتِهم وقتلُوهم؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة.

وفي هذِهِ السَّنة استوحش سَالم بن مُستَفاد الحمدانيّ من شبل الدَّولة نصر؛ وكان صالح بن مرداس قد ولاه رئاسَة حلب بعد ما سَلَّمها إليه، وقَدَّمه على الأحداث، وأَبقاه نصر بعده على حالِهِ إلى هذا التاريخ واستقرَّ عليه أحداث حلب ورعاعها؛ ولبسُوا السلاح؛ وعَوَّلُوا على محاربة القَلْعَةِ.

وكان يتردَّد بين سالم وبين شبل الدَّولة كاتب نصراني يعرف بتُوما وكان يُحرِّف ماينقله عن ابن مُستفاد إلى نصر، ويزيد في التجني، ويسُومُ شططاً لايمكن إجابته إلَيْه، وذلك من غير علم ابن مستَفاد.

فلما رأى شبل الدَّولة نصر كثرَة تعدِيهِ حمل نفسَهُ على محاربته، وركب إليهِ؛ فلمَّا رآه الحلبيُّون دَعَوْا لَهُ وانقَلَبُوا إليه، وقَاتَلُوا دار ابن مستفادٍ، فطلب الأمان فحلف له أنه لايجري له دماً وحبَسهُ بالقلعة، ونُهبت دارُه؛ ثم خاف استبقاءه فقتله خنقاً، ليخرج عن يمينه بأنه لم يُجر له دما.

١ ـ انظر إمارة حلب ص٩٨ ـ ٩٩.

وتبينَّ لنصرٍ بعد قليلٍ كَذِب ذلك النصرانيّ الكاتب، وما كان يُحرّفه في رسالته فقبض عليه، وطالبَهُ بمالٍ؛ فلما استصفَى ماله دَخَل عليه بعض أجناد القلعة فخنقه في ذي القعدة. وقيل ذي الحجة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

ودام نصر بن صالح في مملكة حلب إلى سنة تسع وعشرين وأربعمائة. وقُتل في المصَاف بينه وبين أمير الجيوش الدّزبري.

وذلك أن أمير الجيوش استقرّ بدمشق، بعد قتله صالح بن مرداس بالأقحوانة؛ فسعى جعفر بن كليد الكُتامِي وَالي حمص في إفسادِ ما بين نصر بن صالح وأنوشتكين الدّزبري. وكان عند أنوشتكين استعداد لذلك لقتله صالحاً أَباه؛ فشرع جعفر بن كليد يُغري أنوشتكين بنصر، ويحملُهُ على أذاه حتى خرجا إلى الوحشة والمنافرة.

فكاتب الدّزبري ملك الروم، واستأذَنه في محاربة نصر، واستنقاذ حلب منه، وأن يُؤدّي ما عليه من الحَمْل المقرّر إليه، فأذِنَ له في ذلك، فاستمال الدّزبري جميع العَرب من: الطائيّين، والكلبيّين، وبَعض الكلابيين، وسيّرهم إلى نصر بن صالح ومعهم رافع بن أبي اللّيل. ومن قبلَهُ من المغاربَة، واجتمع إليه عَلان بن حسَّان بن الجرّاح الطائي.

ورحل الدّزبري قاصداً حماة، وكان عسكره قد تقدّم إلى وادي الملوك، شرقيّ الرّستن؛ فحين عَرف نَصر بخروجهم جَمَع بني عمِّه وعسكره؛ ونَزَل تلاًّ غربيّ سَلَمية، والتَقوا فكُسِر نصر وأَصحابه، وشَرَع في جمع مَنْ قَدَر

عليهِ، واستنجد بشبيب بن وثّاب أخي زوجته.

ورَحَل الدّزبري عَقيب الوقعة الأولى إلى حَماة، فدخلها، ونهبها. ثم رحل منها فالتقوا عند تلّ فاس، غربي لَطمِين[1]، فانهزم ثمال بن صالح.

وثبتَ نصر في خواصّ أصحابِهِ، وقاتل قتالاً شديداً، فطُعِنَ وَوَقَعَ، واحتُزّ رأسُهُ في نصف شعبان. وقيل: لسبع عشرة ليلة بقيت منه، من سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وحمل رأسُه إلى الدّزبريّ فحملهُ، وتأسَّفَه عليه، وأَظهر عليه حُزناً، وأنفذ من تسلَّم جثته فصُلبتْ في حَماة على الحصن، ثم أَمر بانفاذ ثياب، وطيب، وتكفين الجثّة في تابوت، ودَفنها في المسجد؛ فنقلها مقلد بن كامل لمّا مَلَك حماة إلى قلعة حلب.

وقيل: إنَّ الذي قتله ريحان الجويني، وأُجهز عليه هفتكين التركي المعروف بالسروري. وتأمّل المنجّمون الوقت والزمان الذي قتل فيه أبوه فكان بين قتله وقتل أَبيه أَربعة أَيام، يريد من السنين الشمسيّة[2].

---

١ ـ لطمين الآن احدى قرى محافظة حماة، وتبعد عنها مسافة ٣٦كم.
٢ ـ انظر معالجة هذه المسألة في كتابي إمارة حلب ص٩٩ ـ ١٠١.

[عهد أنوشكتين الدزبري][1]

ولما هَرَب ثمال بن صالح وَصَلَ إلى حلب، ومعه شَبيب بن وثّاب، في يوم الثلاثاء سادس عشر شَعبان؛ فملكها ثمال، وَوَعدُه مشايخها بالمعونة والنّصر، فخوّفه خليفَة بن جابر الكعبي، وقال له: «ربّما خذلتك عشيرتك وَقَعَد بك أهل البلد، ولم يمكنك الثبات والمقاومة، ولا الانصراف على حال السّلامة». وأَراد بذلك غَشّهُ لا نُصحَهُ.

وكان أَمير الجيوش قد سيّر في أَثرهم إلى حلب عسكراً يقدُمُهُ طُغَان المظفّري، فخاف ثمال من المقَام بحلب، وولّى بقلعة حلب مقلّد بن كامِل بن مرداس، وبالمدينة خليفة بن جابر الكعبيّ.

وأَطلق للتجّار ديوناً كانت لهم على أَخيه مقدارها ثلاثون أَلفاً ذهباً، ليستميل الناس بذلك إلى طاعته؛ وأَخذ أولاد أَخيه، وأَخذ شبيبٌ[2] زوجةَ أَخيه ـ أختَه غلويّة المعروفة بالسيّدة ـ وأَخذا من المالِ وَالآنية الذَّهَب والفِضَّةِ والثِّياب ما قدرا عَلى حَملهِ؛ وسَارُوا إلى الجزيرة.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ شبيب بن وثاب النميري، وأخته علوية بنت وثاب زوج نصر وام محمود بن نصر.

وقيل: إنّ السيّدة أَخذتْ من القلعة عند قتل نصر خمسين ألف دينارٍ، وأَخذَ ثمال ثلاثين ألفاً، وسار ثمال يستنجد بأخوَالِهِ بني خفَاجة.

ووقعت الفتنة بحلب، ونُهِبتْ دار السُّلطان، وأموال التجار. وكان رسول ملك الرُّوم قد وَصَل إلى حلب فَنَهبَ العامَّةُ متاعَهُ ودَوَابَّهُ.

وأَما طغان فانّه لما وصل بالعسكر إلى حلب نزل على المدينةِ، فراسلَهُ خليفَة بن جابر الكعبيّ ومن وافَقَهُ من الحلبيّين في تسليم البلد؛ فتسلّمه في يوم السبت الرَّابع من شهر رمضان.

وأنفذ رسولاً إلى الدّزبريّ يعلمه بذَلِكَ؛ فأغذّ السَّير إلى حلب، وَوَصَل إليها في عدةٍ قليلةٍ، واجتاز في طريقهِ بمعرّة النُّعمان، فالتقاهُ أَهلها، فأكرَمُهمْ وَسأَلهم عن أَبي العلاء بن سُليمان. وقال لهم: «لأسيرنَّ فيكم بسيرة العُمَرَيْن». واجتمَعَ عنده بالمعرّة كثير من العرب، فخشي منهم، فأركب رجلاً من أصحابِهِ جَمَلا، ونادى بمعرَّة النُّعمان وبظَاهِرِها: «من لم يأخُذْ معه قوت ثلاثة أَيَّامٍ فلا يلومنَّ إلا نفسهُ». فلم يبق من العَرب أحدٌ حولَهُ؛ وظن كُلٌّ منهم أنه يطلب حلّتَهُ.

وتمَّ أَمير الجُيُوش إلى حلب، فدخلها يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان، والقلعة مستعصِيَةٌ على أَصحابهِ في يد سيف الدَّولة مُقَلد بن كامِل بن مردَاس، وقد احتوى على الأموال التي بها، واستولى على جمهورها.

فتردّدت الرسل بينَه وبين مُقَلّد حتى قرّر له عمّا في القلعة ثمانين ألف دينار، وثِياباً، وفُرُشاً، وآلات فضّة، مكراً وخديعة وأَن يأخذ المقلّد الباقي،

وقنع الدّزبري بذاك؛ وأفرج له عن نزولِهِ وخُروجِهِ فسلَّم مقلّد القلعَة وصعِدَ إليها أمير الجيوش، يوم الثلاثاء لثمانٍ بقين وقيل لسبع بقين من شهر رمضان.

وأقام مُقلّد يوماً واحداً بعد نزوله من القَلْعَة، وهَرَبَ بما معه من الأموالِ خوفاً من غدر الدّزبري به؛ ولحق بحلَّتِهِ وبثمال بن صالح بالجزيرة؛ ونادى الدِّزبري في مدينة حلب بأن يخرج منها جميع الجند والحواشي الذِين كانوا يخدمون ابن صالح.

واجتَمَع النَّاس من سائر البلدان ليهنئوه بالفتح؛ وجلس لِلهناء في القَصْرْ ببابِ الجنان؛ وعَيَّد عيد الفِطر بحلب؛ فَذُكِر أنّه لم يُر بحلب عيدٌ أَحسن منه، لكثرة ما أَظهر فيهِ من العُدَّةِ والآلة؛ وأحسَنَ إلى أَهل حلب؛ وأَمر بِرَدِّ ما كان صالح اغتصبَه من أملاك الحلبيّين؛ وتزوج بنت منصور بن زغيب. وَوَلّى بقلعَة حلب مملُوكينْ له: أحدهما يُقال له فاتك، والآخر سبكتكين؛ وولّى بالمدينةِ غُلامَهُ رضيّ الدَّولة بنجوتكين.

ثمّ قصد بالس ومَنبج؛ فأخذهما. ورام أَخذ الرَّحبَة فلم يقدر عليها. وأُقامَ بحلب إلى أَن عيّد عيد الأضحى، وسار إلى دمشق. ومدَحَهُ ابن حَيُّوس بقصيدةٍ يذكر فيها قَتْل نصر، يقولُ فيها:

وَلَمّا طَغَى «نَصرٌ» أَتَحتَ لَهُ الرَّدَى وَلَمْ يُنْجِهِ الجَمْعُ الكَثِيرُ وَلا الحَشْدُ

وَبأُخرى يذكرُ فيها فيها فتح حلَب، أَوَّلها:

١ ـ ديوان ابن حيوس ـ ط. دمشق ١٩٥١ ج١ ص١٧٣.

هَلْ بَعْدَ فَتْحِكَ ذَا لِبَاغٍ مَطْمَعُ   للهِ هذَا الْعَزْمُ مَاذَا يَصْنَعُ[١]

وَوَلِّى قضاء حلب أَبا الوليد سُليمان بن خلف البَاجِي سنةً واحدةً[٢]؛ ثم وليه بعدهُ القاضي أبو الحسن أَحمد بن يحيى بن زُهَيْر بن أبي جَرَادة ـ جدّ جدّ أَبي ـ[٣].

ومات شبيب بن وثّاب النُميري في سنة إحدى[٤] وثلاثين وأَربعمائة. واستولى أخواه مُطَاعِن وَقَوَام على ما كان في يده من الجزيرة؛ وكانت أخته السيّدة علويّة ـ امرأة نصر ـ مُقيمة بالرّافقة؛ فتحيّلت على غُلام أَخويها الوالي بالرافقَة إلى أَن أخرَجته؛ واستولَت على البلد، وتزوجتْ بثمال لتقيم هيبتَها به، ويحفظ أَمرها.

وَوَقَع في هذه السَّنة وقعة بين عسكر الرّوم وعسكر حلب، فكسر عسكر أَنطاكية الحلبيّين؛ وعاد الدّمستق إلى أَنطاكية، ودخل طغان حلَب، وحصل ثمال بن صالح في الرّقة، وخشي الدِّزبري من قربه إلى حلب، فاشترى قلعة دوسر[٥] ليكون مطلا عليه. وراسل نصر بن مروان صاحب مَيّافارقين في أَن يُزوّج ابنته لابنه، فَأَجابَهُ إلى ذلك، فاستوحشَ المصرُّيون منه

١ ـ ديوان ابن حيوس ـ ج١ ص٣٣٧.
٢ ـ لأن الباجي عاد إثر هذا إلى الأندلس.
٣ ـ هذه هي المرة الأولى التي دانت فيها جميع بلاد الشام للفاطميين انظر كتابي إمارة حلب ص١٠٥ ـ ١٠٩.
٤ ـ بهامش الأصل: بلغ مقابلة وسماعا بخط المؤلف.
٥ ـ هي قلعة جعبر القائمة الآن في وسط بحيرة سدّ الفرات في سورية.

لذلك، وأنفذ إلى مصر ليحضر زوجتَه وابنته، فلم يُطلقهما الوزير.

وَثَقُل على الوزير الجرجرائي فتح الدِّزبري حلب، لأنه لم يكن برأيه؛ وأنكر ذلك فقال الدِّزبري: «قد خرف الوزير»، وبسط لسانه فيه بالكلام القبيح، فكاتَبَ وُلاةَ الشَّام بترك الانقياد له؛ وكتب توقيعاً عن المستنصر لثمال بن صالح بحلب؛ وشرط عليه أن يحمل جَميع ما بقلعَتِها من المال إلى المستنصر.

وكاتب أَجناد دمشق، وأَغراهم بِهِ فثارُوا عليه، وأحدقُوا به بقصر كان له في ظاهر دمشق؛ فهرب من دمشق ليلاً؛ ومعه ثلاثمائة صبيٍّ من غلمانِه الأتراك ليس لواحدٍ منهم لحيةٌ، وعلى وسط كل واحد منهم ألف دينارٍ؛ وأحدقتْ به بنو كلاب فلم يَقْدِروا عليه.

ونزل بحصن المعرة، ثم سار منها إلى حلَب؛ ولَقِيَهُ عسكره بها في أراضي سَرْمين، فدخَل حلَب في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

وشرع ثمال بن صالح في جَمع عشيرتِهِ، وحشد من أَجابه من العرب وغَيْرهم لمنازلة حلَب؛ وطمع في الدِّزبري. فرأى بنفسِهِ الذُلّ لَمَّا لم يكن له طاقةٌ بدفعِهِمْ، وزاد هَمُّه وغَمُّه، حَتَّى مَرض مرضاً حاداً؛ ومات بعد ثلاثة أيّام، يوم الأحد النصف من جُمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. ودُفِنَ بحلب؛ ثم نُقِلَ مِنها إلى البيت المقدّس، في سنة ثمان وأربعين

وأَربعمائة[1].

فَدّبر البلد بعده مملوكُه رضيّ الدولة بنجوتكين التّركيّ أَبو منصور، بَقِيَّةُ جُمادى الأولى وثمانية وعشرين يوماً من جُمادى الآخرة؛ فوصل معزّ الدّولة أبو علوان ثمال بن صالح بالتَّوقيع الذي سَيَّره إليه المستنصِر، فسلَّم بنجوتكين وأهل المدينة إليه، لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، بعد أَن نزل إليها ومعه مُقلّد ابن عَمّه في جَمَاعَةٍ، وقاتلوها أيَّاماً، واستَظْهَرَ الحلبيّون عليهم، فَرَحَلُوا إلى ناحية قنّسرين.

وجرَى بين الحلبيّين والمَغاربة عربدة، وقُتل بينهم جماعةٌ، ونُهِبت أَهرَاء السُّلطان، وطلع أصحاب الدِّزبري إلى القلعة خوفاً على أنفُسِهم، فلم يمكنهم سبكتكين من دُخولها، فنزلوا في القَصر تحت القلعة.

واستدعى الحلبيون ثمالاً ومقلّداً. فورد مُقلّد في مُقَدّمِتِه من قنّسرين، فتسلَّمها يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جُمادى. وَوَصَلَ ثمال يوم الثلاثاء، فدخلها واجتمع إليه أحداثُها. واعتصم سبكتكين بالقلعة شهراً وسَلَّمها إليه.

وقيل: إنه بقي بها إلى النصف من صفر سنة أَربع وثلاثين وأَربعمائة؛ وان القلعيِّين رَمَوْا على الحلبيّين، وأتوا على عَدَدٍ كثيرٍ منهم، وأَصلح الحلبيّون المنجنيقات، وقاتَلُو بها القصر الذي تحت القلعةِ، ونَقبُوه، وخربوا حيطانه مما يلي المدينة مع قطعةٍ من سُور المدينةِ من ناحية باب العِرَاق.

١ ـ بحثت في حقبة حكم الدزبري من مختلف الجوانب في كتابي إمارة حلب ص١٠٩ ـ ١١١ .

وثبتَ سبكتكين على الحَصار مُدّة سبعة أَشهرٍ، واستنصر الفريقان[1] ونفد ما مع آل مرداس من المال، ووقَع المرض في القلعيّين فأَفناهم، وأَيس الباقُون من نُفوسِهم فجَنحُوا إلى التَّسليم، واصطلحوا على شروط منها أَن لايعرض لأحدٍ من القلعيّين بمساءةٍ، وانتظَمَ الأمر وسلَّمها سبكتكين بجميع ما فيها بعد أَن أَخذ لنفسِهِ ثلاثين ألف دينار، ولورثة الدِّزبري اثنين وثلاثين ألف دينار.

---

١ ـ راسل ثمال الامبراطورية البيزنطية وطلب تأييدها. إمارة حلب ص١١٣

[إمارة ثمال بن صالح][1]

واستقرّ مُلْكُ حلب:

لمعزّ الدَّولة أبي العلوان ثمال بن صالح بن مرداس.

وَوَصلَهُ تشريف من المستنصِر في سنة ستّ وثلاثين. ودرّت الأرزاق في أيامِه على النّاس، وأحسنَ السِّيرة معهم، وَجَاد بالعَطَاء.

وظهرَ في أيّامِه ببعلبك رَأس يحيى بن زكريّا في حجر منقورٍ فَنُقِل إلى حمص ثم إلى حلب، فوضِعَ بمقام ابراهيم - صلى الله عليه - بقلعةِ حَلب في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

وكان ثمال لمَّا طَاوَلَ حصار قَلعة حلب قد رغب إلى تدورا ملكة الرّوم، وسيّر رسولاً يلتمس نُصرتها وإعانتها وانتماءه إليها، فرتبت ثمالاً ماخسطرس على حلب، ومقلّد ابن عمه بسطرخس، وجعلت له واجب الماخسطرية عن حلب؛ ورتّبت صالح بن ثمال، ومنيع بن مُقَلّد، ومحمود بن نصر، وعطّية وحسناً أَخوي ثمال، بَطارِقة. ورتَبت السّيدة علويّة أم محمود بطريقة؛ وأَطلقَت لجماعتهم واجبات هذه المراتب؛ وسَيَّرت إليهم هدايا كثيرة؛

١ - أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

وشَرَطت على ثمال أن يحمل في كلّ سنة ماكان يحمله أَخوه نَصر، على الشُروط المشروطة علَيه[1].

وكانَ المستنصر قَد وقّع لثمال بحلب على أَن يحمل إليه جميع ما بقلعَتِها من المال ـ على ما ذكرناه ـ فلمّا استولى ثمال على حلب حمل إلى المستنصر من ذلك مائتي أَلف دينار؛ وأَفْرَدَ برسم عمارة القَلْعة ومساكنها ومصانِعها خمسةً وسَبْعين أَلف دينار؛ وإقامة العوض عما استنفد من العُدَّة وَهَلك من أَصحاب الأسلحة باستعمالها والابتذال لها في الحرب ثلاثين ألف دينار؛ وما أخذه من آلات ذهب وفضّة وغيرها خمسة عشر أَلف دينار.

فلمّا علم المستنصِر بذلك شَقّ عليهِ ذلك، وَوَقَعتِ الوحشَةُ بينه وبَين مُعزّ الدّولة ثمال، فعصى ثمال على المستنصر، فسَيَّر المستنصر إليه إلى حلب الأمير ناصر الدَّولة أَبا محمد الحسن بن الحُسَين بن الحسَن بن حَمدان[2]، ومعه عبد العزيز بن حمدان، وشُجاع الدولة بن كُليد.

وكان ناصِر الدَّولة بن حمدان قد ولّي دمشق من قبل المستنصر بعد الدِّزبري، فوصلوا إلى حلب بعد أَن فتحوا حماة ومعرّة النُّعمان، في سنة تسع وثلاثين وأَربعمائة؛ فطاف بحلب ولم ينزل بها؛ فخرج أَهل حلب لقتاله، فهزمهم واختَنق منهُم في الباب ـ على مايُقال ـ سَبعة عشر أَلف نفسٍ.

١ ـ انظر إمارة حلب ص١١٣ ـ ١١٤ .

٢ ـ هو الحسن بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن حمدان، ناصر الدولة بن ناصر الدولة. ترجم له ابن العديم في بغية الطلب ص٢٣٢٩ ـ ٢٣٣٣ .

وعاد ناصر الدّولة فنزل بصلدِي - قرية قريبة من حلب على نهر قويق - فجاءهم سيل في اللّيل لم يُسمع بمثله، فغرق أكثر المضارب، وأتلف الرجال، وأهلك الدّواب المشبوحة، فانهزم ناصر الدَّولة عن حلب إلى دمشق، فقبضَ عليه الأمير منير الدَّولة بها في شهر رجب من سنة أربعين وأربعمائة، وسُيّر إلى مصر[1].

وكان مُعزّ الدّولة ثمال قد خاف من الحلبيّين أن يسلموا البلد إلى أبي محمد بن حمدان حين توجّه إلى حلب؛ فقبض أعيان الحلبيين - ومنهم قاضي حلب أبو الحسن بن أبي جَرادة - واعتقلهم بالقلعَة سنة أربعين، فلمّا كفي أمر ابن حمدان أطلقَهُم في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائةٍ.

وقتَل مُعزّ الدَّولة منهم الشريف أبا علي محمد بن محمد بن صالح المحبره بسعاية ابن الأيسر به، دُون الباقين؛ فانّ ابن الأيسر صَعِد إلى مصر رسولاً فتحقَّق براءة الباقين من تُهمة تَتَطَرق إليهم.

ووصل شُجاع الدولة بن كُلَيْد والي حمص، في سنة أَربعين وأَربعمائة عاثثاً على بلد حَلَب، فخرج إليه مُقَلّد بن كامل بن مرداس وأَبو الوفاء حِفاظ المعرّي، في جمعٍ من الكلابيين ورجَّالة الحلبيّين والفلاحين، فالتقَوا بكفر طاب.

ومضى ابن كليد لينهزِم، فلحِقته بنُو كلاب، فقُتِل في هذه المرّة شُجاع

---

١ - إمارة حلب ص١١٤ - ١١٥ .

الدَّولة بن كليد والي حمص؛ قتله جعفر بن كامِل بن مرداس، وحمل رأسه إلى حلب. وكان المنجّم رأى أنّه يدخل إلى حلب، فدخلها قِطعاً، وانهزمت عساكِرُهُ.

فسار مُقَلّد بن كامل إلى حماة ففَتَحها بعد أن قاتل حصنها أيّاماً؛ ثم سار إلى حمص ووجد ابن منْزُو قد أتاها في عسكر من دمشق، فانهزم إلى باطن حمص، وقاتل قتالاً عظيماً فقلّ عليه الماء، فخرج ابن منزو إليهم بالأمان.

ثم إنّ المستنصر سَيَّر الأمير أبا الفضل رفق[1] الخادم الى جيش كثيفٍ إلى حلب، في سنة إحدى وأربعين، وقيل سنة اثنتين. ونزل على حلب على مشْهَد الجف، فقاتلهُ الحلبيّون، فانكسر عليها وجُرح وأُخِذ أسيراً، فمات في قلعَةِ حلب في الأسر.

وسَيَّر مُعزّ الدّولة كلّ من بقي من أصحابه مأسوراً إلى مصر؛ ففي ذلك يقُول الأمير أبو الفَتح بن أَبي حصينة:

يَا رِفقُ رِفْقاً رُبَّ فَحْلٍ غَرَّهُ ... ذَا المَشْرَبُ الأَهْنَى وَهَذَا المَطْعَمُ
حَلَبٌ هِيَ الدُّنيَا تَلَذُّ وَطَعْمُهَا ... طَعْمَانِ شَهْدٌ في الْـمَذَاقِ وَعَلْقَمُ
قَدْ رَامها صِيدُ المُلُوكِ فَمَا انثَنَوْا ... إلا وَنَارٌ في الحَشَا تَتَضَرَّمُ[2]

---

١ ـ لرفق الخادم ترجمة في بغية الطلب ص٣٦٧٤ ـ ٣٦٧٨ .
٢ ـ ديوان ابن أبي حصينة ـ ط. دمشق ١٩٥٦ ، ج١ ص٢٤٧ .

وكان رفقٌ لَمَّا نزل على حلب داهن عليه العرب الكلبيّون، فأشار عليه عسكره أَن يرحل عن حلب إلى صلدع فلم يفعل؛ فأُشِير عليه أَن يقبضَ على أمراء طيء وكلب فلم يفعل، فقيل له أن ينشيء سجلا عن السلطان بانّه قد أقطعَ الشام لمعزّ الدّولة، ويعود بهيبتِه فلم يَفْعَل؛ فلمّا رآه أمراء العسكر لايلتفتُ إليهم، ولايقبل مشُورتهم، وَوَقع القِتال، انهزم العرب فانهزَم العسكر معهم، فسيّر رفق إليهم وأَمرهم بالعَوْد فلم يلتفتُوا.

وخرج من حلب خيلٌ يسيرة فشاهدوا رحيل العسكر فظنوا أنه حيلة فاتبعوهم، وغنموا منهم. وخرج من بحلب فلحقُوا رفق الخادم، في طرف جبل جَوشن، وجرح ثلاث جراحات، وأُخِذ والضَّرب القويّ برأسه، فمات في القلعةِ ودُفِن في مَشهد الجفّ. ونهب من العسكر شيء عظيمٌ من الأموال والقماش والدَّواب[1].

ثم أَن معزّ الدَّولة ثمالاً استمال المستنصر بعد هذه الوقعة، ولاطفه، وحمل القِسْط إلى مصر على يد شيخِ الدَّولة عليّ بن أحمد بن الأيسر، وسَيَّر معَهُ ولده وثّاب وزوجتَه علويّة بنت وثّاب المعروفة بالسيّدة، وسيَّر معه من مال القلعة أَربعين أَلف دينار، وهَدَايا، وألطافاً فاخرة، وتُحفاً جليلة.

فلمّا وصلتْ أكرمها المستنصِر غايةَ الإكرام، وحضَرتْ بين يديه،

---

١ ـ استنجد ثمال ببيزنطة، واستجاب الامبراطور قسطنطين التاسع إلى طلب ثمال، فبعث رسولا إلى القاهرة يطلب ايقاف حملة رفق ويهدد بالتدخل لصالح ثمال. إمارة حلب ص١١٦ ـ ١١٩.

فقبَّلت الأرضَ، وقالتْ: «خصّك الله ياأمير المؤمنين بأفضل تحيَّة وسلام». فردَّ عليها أفضل ردٍّ؛ وسألها عمن خلّفته بالشام، فقالت: «في نعيم وخيرٍ إنْ أنعمتَ عليهم بأمان وذمام، حَسْبَما جرت به عادة هذا البيت المُنِيفً من الإحسانِ والإكرام».

فأعجبَهُ منها سرعة جَوابها وحُسْن تَوصُّلها، وقال لها: «أنت المسمَّاة بالسَّيدة» فقالت: «نعم، سَيِّدة قومي وأَمَتُك ياأمير المؤمنين، صلواتُ الله عليكَ». فقال: «ماخَيَّب الله من فَوَّض تدبير أمرِه إليكِ في هذِهِ الرِّسالة». ثم أمرَها أن تُمل على كاتبها تذكرة ليوّقع لها بجميع ما تقترحه توقيعاً مُفرداً، وتوقيعاً بحلب وسائر أعمالها لمعزّ الدَّولة.

وأمر لمعزّ الدَّولة بتشريف ولجميع بني عمّه، وأفاض عليها ما غمرها وجميع أصحابها وحاشِيتها؛ وعادت بمقْصُودها[1].

ولما وَرَدتْ زَوجة معزّ الدَّولة إلى حلب سكن مُعزّ الدَّولة إلى ذلك، واطمّأنّ، ونشر العدل، وطابَتْ قلوب الرَّعيَّة. وولى وزارته في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة رجلاً من أهل الرّحبَة يقال له أَبو الفضل ابراهيم بن عبد الكريم بن الأنباري، ولقَّبه الثقة الكافِي؛ وكان رجلاً حسن السّياسة.

وسَيَّر ثمال شيخَ الدّولة عليّ بن أحمد بن الأيسر، في سنة ثلاث وأربعين، رسولاً إلى القسطنطينية بالمالِ المقرّر عليهِ في كلّ سنة، وبهدية

١ ـ انظر إمارة حلب ص١١٩ .

فشاهدوا من سَدَادِهِ وكمال مُروءَتِهِ مَا أَوْجَبَ لهم أن ميَّزوه عن غيره من الرّسل، وأكرموه، وجعلوه بسطرخس في مرتبة مُقَلّد بن كامِل، وجَعلوا مُقلداً ماخسطرس في مرتبة ثمال، وجعلوا ثمالاً ابريدرس[1]؛ وسَيّروا إليه هديّة سنِّية عِوَضاً عن هَدِيّتِه.

ومات قاضي حلب أَبو الحسن بن أبي جرادة في سنة خمسٍ وأربعين، فولّى القضاء بحلب القاضي أبا محمد كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وإليهِ يُنسب آدر بني كسرى[2] بحلب.

ثم قَدِم الوزير فخر الدَّولة أبو نصر محمَّد بن محمَّد بن جهير حلب فاستوزَره مُعِزّ الدَّولة، وفَوَّض أموره جميعَها إليه، فاستقامتْ، وتَضاعف ارتفاعه، وضَبَط أموالَه، فحُسِدَ على مكانِه، وقُربه منه، فسُعِي به إلى معز الدّولة. وكان معز الدّولة له وفاء وذمة فنبَّهه على ماسعي به عليهِ، فاستأذَنهُ في المفارقة فَفَسح له في ذلك، فسارَ من حَلب سنة ستّ وأَربعينَ وأَربعمائةٍ، وقصَدَ ابن مروان.

فولّى معزّ الدَّولةِ وزارته سَديدَ الدَّولة أبا القاسم هبة الله بن محمد بن

١ ـ Protoproedrus منصب رفيع أبدع في القرن الحادي عشر للميلاد. انظر Cambridge Medieval History, VoL4, Part2 , P22.

٢ ـ حيث قامت المدرسة الصلاحية في محلة سويقة علي، وأسست المدرسة من قبل الأمير المملوكي صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدوادار [ت ٧٤٥هـ]. الآثار الاسلامية والتاريخية بحلب ص٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

الرعْبَانِي الرحبي إلى أن سلّم حلب إلى المستنصر؛ وسافر ابن الرعباني إلى مصر، فولاه المستنصر وزارة مصر عشرة أيّام، ثم عَزَله، ثم أعاده إلى الولاية فأقام فيها عشرة أيام وانصرف.

وَوَصلت الخِلع والتشريف من مصر لثمال، في محرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، على يَدَي أبي الغنائم صالح بن علي بن أبي شيبة، فمدحه أبو القاسم هبة الله بن فارس المؤدّب بقصيدة أوَّلها:

لا زَالَ طَوْعاً لأمْرِكَ الأمَمُ وَلا خَلَتْ مِنْ دِيَارِك النِّعَمُ

وتنكّر مُعزّ الدَّولة ثمال لثقتِهِ وأمينهِ شيخ الدَّولة عليّ بن أحمد بن الأيسر، وقد ساء رأيه فيه، فَصَرفه عمَّا كان يتولاه من أمورِه، وأقام مقامه سالماً ومسلماً ابني علي بن تَغْلب. واستوحش ابن الأيسر من المقام بحلب خوفاً على نفسه فتسبّب في أن سار إلى مصر.

وأرسل ثمال سالماً إلى تدورا الملكة بهدِّية، والتمِس منها الزيادة في مرتبته، فقبلتْ هديَتَه، وعوضتْه عنها، وأجابته إلى مُلْتمسه، وجَعلَت سالماً بسطرخس عوضاً عن ابن الأيسر.

واندفع البساسيري[1] المتَغلّب على بغداد إلى الشام، في سنة سبع وأَربعين وأَربعمائة، منهزماً من طغرلبك؛ وحَصَل في أَرض الرّحبة، ووصل

١ ـ للبساسيري ترجمة في بغية الطلب ص ١٣٤٧ ـ ١٣٥٧ . كما وعالجت مسألة قيام هجرة الغز وتأسيس السلطنة السلجوقية وإثر ذلك ثورة البساسيري في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ ط. دمشق ١٩٧٣ ص١٣ ـ ١٢٤ .

في قُل من الرّجال، فلقيَهُ مُعزّ الدّولة ثمال وأكرمه وحمل إليهِ مالاً عظيماً.

وحَدَّث بعضُ العرب مِن بني كلاب أنّهم لم يروا مثله في الشَجاعة والمكر والحيلة؛ وكان إذا ركبَ مُعزّ الدَّولة قفز إليه، ليُمسك له الرّكاب، ويُصْلح ثيابَهُ في السَّرج، وهمَّت بَنُو كلاب بالقَبْض عَلَيْه فمنعهم مُعِزّ الدَّولة. ثُمَّ ندم بعد ذلك فإنه تَقَدَّم إلى بالس، وشَتَّى بشطّ الفُرَات؛ واجتمعت إليه العربُ والأتراك، ففَزِع منه مُعزّ الدّولة؛ وكان قد عرض عليه معزّ الدولة أَولاً مفاتيحِ الرّحبة فلم يأخُذها منه؛ ثم طلبها منه في هذه الحالة ليجعَل فيها مالَهُ وأهله، في سنة ثمان وأربعين، فسلّمها معز الدولة إليه.

وكان مُعزّ الدولة كريماً معطاء حليماً. فمِمّا يحكي مِن كَرَمِه: أَنَّ العرب اقترحُوا عليه مَضيرة[1]، فتَقَدَّم إلى وكيله أن يطبخها لهم، وسأله: «كم ذَبحتَ لأجلها؟» فقال: «سبعمائة وخمسين رأساً». فقال: «والله لو أتممتَها ألفاً لوهبتُ لك ألفَ دينار».

واستغنى أهل حلب في أيَّامه، حتى أَنَّ الأمير أَبا الفتح بن أَبي حصينَة امتدحه بقصيدةٍ، شكا فيها كثرة أَولاده، وكان له أَربعة عَشَر ولداً، قال فيها:

جَنَيْتُ عَلَى نَفْسي بنفسي جِنَايَةً ... فَأَثْقَلْتُ ظَهْرِي بالذي شَبَّ مِن ظَهْري
عِدَادُ الثُّرَيّا مِثْلُ نِصْفِ عِدَادِهم ... وَمَنْ نَسْلُهُ ضِعْفُ الثُّرَيّا مَتَى يُثْرِي
وَأَخْشَى اللَّيَالي الغَادِرَاتِ عَلَيْهم ... لأنَّ اللَّيَالي غَيْرُ مَأْمُونَةِ الْغَدْرِ

١ ـ المضيرة أن تطبخ اللحم باللبن.

وَلي مِنْكَ إقطَاعٌ قَدِيمٌ وَحَادِثٌ تَقَلَّبْتُ فيهِ تَحْتَ ظِلّكَ مِنْ عُمْرِي
وَما أنا بِالمَمْنُوعِ مِنْهُ وَلا الَّذِي أَخافُ عَلَيْهِ مِنْكَ حَادِثَةً تَجْرِي
وَلَكِنَّنِي أبْغِيــهِ مُلْكــاً مُخَلَّداً خُلُودَ القَوافِي الْبَاقِيَاتِ عَلَى الدَّهرِ[1]

فَأمر مُعزّ الدَّولة بإحضار شهودٍ، أَشْهَدَهم بتمليكه ضَيْعَتَيْن مِنْ أَعمال حَلَب وَمَنبج، مُضَافَتَيْن إلى ما كان له من الإقطاع؛ فَأَثْرى وحَسُنَت حالُه؛ وعمر بحلب داراً؛ وكتب على رُوْشَنِها[2]:

دَارٌ بَنَيْنَــاهَــا وَعِشْنَــا بِهَــا فِي نِعْمَةٍ من آلِ مِرْدَاسِ
قَوْمٌ مَحَوْا بُؤسِي وَلَمْ يَتْرُكُوا عَــلَيَّ لِـلأيَّــامِ مِنْ بَــاسِ
قُلْ لِبَنِي الدُّنْيَـا ألا هَكَذَا فَلْيَفْعَلِ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ[3]

فَكَتب معِزّ الدَّولةِ له داراً إلى جانبِ دارِهِ؛ وهي الآن لبعض الشراف بحلب بالبلاط، تجاه المسجد؛ والدّار التي بناها إلى جَانبها مُقَابِل حَمَّام الوَاسَاني[4].

ومِمّا يُحكى عَنْ مُعزّ الدَّولة: أنَّ فَرَّاشاً من جُملةِ الحفدَةِ صَبَّ يوماً من الأيَّام على يدِهِ ماء بِإبريقٍ كانَ في يَدِهِ، فَصَادَفَتْ أنبُوبة الإبريق بَعْض ثنِّيته،

١ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٥١ ـ ٣٥٢ ، وفيه أن القصيدة قيلت في مدح عطية بن صالح.
٢ ـ الروشن: الشرفة.
٣ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٦٠ ـ ٣٦١ ، وفيه أنه قالها في مدح نصر بن صالح.
٤ ـ كانت في محلة سويقة علي، وهي قد زالت تماماً بعد فتح طريق إلى القلعة سنة ١٩٤٥ . الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص١٧٦ ـ ١٧٧ .

فكسرتها وسَقَطتْ في الطّسْتِ، فَهَمَّ بِهِ الغِلْمان فَمنَعهم، وأَمَر بِرَفعها، وَعَفَا عنه، فقال ابن أبي حصينَة:

حَلِيمٌ عَنْ جَـرَائِمِنَـا إلَيْـهِ وَحَتّى عن ثَنِيَّتِـهِ انقِلاعَـا[1]

وَلَمَّا اتسع الرِّزقُ على مُعِزّ الدَّولة، ولم يَبْقَ لَهُ عَدُوٌّ يَقْصِدُهُ، اضطَرَبَ عليه بَنُو كلابٍ، وامتَدَّتْ أعينُهُم إلى ما في يَدِه، واستَقَلُّوا ما كان يَصِل منهُ إلَيْهِم، وأكْثَرُوا في العَنَتِ لهُ، وقَالُوا: «لولانا ما صَرْتَ إلى ما صِرْتَ إلَيْهِ، وَمَا أَنْتَ بِأحقّ منَّا بذلكَ، فينبغي أن تَفْرضَهُ على جميعِنَا».

وَأَوجبَ الزيادة في ذلك أَنَّ معزّ الدَّولة في سنة تسعٍ وأَربعين، سلم الرقة والرافقة إلى منيع بن شبيب بن وثّاب النُميري، لأنّها كانتْ لأبيه وكانت عمَّتهُ السيّدة زوجة معزّ الدولة ـ وكانت قبله عند أخيه شبل الدولة، فولدت له محمود بن نصر ـ وهي التي أَخذتها من غلمان أبيها، على ماذكرناه؛ فأعادها إلى منيع؛ فكثُر اشتطاط بني كلابٍ وفسادُهم.

فكاتَب مُعزّ الدَّولَة المستنصر في تسليم حلَب إليهِ؛ وطلَب أَن يُعوّضهُ عنها أَماكن تبعُد عن مواطِن الكلبيّين، ليأمنَ شرّهم وتزول منّتهم عنه؛ فأجابهُ المستنصِر إلى ذلك؛ وعَوَّضه عنها بيروت، وعكّا، وجُبَيل[2].

وأَنفذ المستنصر نُوّابه فتسلَّموها منه؛ وهُمْ: مكينُ الدَّولة أَبو عليّ

---

١ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص١٦٨ .

٢ ـ لم تكن الأمور بهذه البساطة، بل ارتبطت بحركة البساسيري مع أسباب أخرى، انظر إمارة حلب ص١٢٠ ـ ١٢٤ .

الحسّن بن عليّ بن ملهم بن دينار العقيلي، وعين الدَّولة أبو الحسن عليّ بن عقِيل، والقاضي أبو محمّد عبد الله بن عياض قاضي صُور، تسلَّموا البلد والقلعَة، في ذي القعدة من سنة ثمان وأَربعين وأَربعمائة.

وقد كان أَبو علي بن ملهم مقِيماً برفنية؛ فقلّد الحرب والخراج بحلب. وفي اللَّيلة التي سلَّمها مُعزّ الدَّولة إليهم احتَرقَ المركز الشرقي بالقلعةِ، وولّوا في قلعة حلب رجلاً يعرف بركن الدولة.

وَصعِد مُعزّ الدَّولة مع عَين الدَّولة وقَاضي صُور إلى مصر، فَلَقي من المستنصر من الكرامة والحباء ما لم يلقَهُ وافدٌ منه ولا من آبائِه؛ وجَعَل له كُلَّ يوم، إلى أَن وصل إلى مصر، ثلاثمائة دينار، وأُعطي ما لم يُعط أحد منَ المال والجوهر والآلة؛ وكان إذا ركب السُلطانُ حجبَهُ، وكان ذنب دابّته عند رأسِ دابّة السلطان.

واعتلّ معزّ الدَّولة بمصر، فركب السلطَان، فوقَفَ ببابِ دارهِ حتّى خَرَجَ إليهِ وسَأَلَه عن حاله.

[إمارة محمود بن نصر الأولى][1]

وأما ابن ملهم:

فإنّه أقام بحلَب، وعدَلَ في الرَّعيَّة، وأَحسن السِّيرة، وبَسط وجهه ويده لهم، ورخصتْ الأسعار في أَيّامه، وبنى كثيراً من أَبرجة سور حلب؛ إلى أَن تجمَّعَتْ بنو كلابٍ وامتدَّتْ أطماعهم إلى حلَب. وذلك أَن البساسيري كان من المنتَمِين إلى المصريّين، وَدَعا لهم ببغداد، في سنة إحدى وخمسين وأَربعمائة فعاد السلطان طُغْرُلْبَك، وجمع جموعاً عظيمةً، ولَقي البساسيري فقَتله، وكانت الرَّحبة في يده ـ على ما ذكرنَاهُ.

فسار الأمِيرُ أَسَد الدَّولة أَبو ذؤابة عطيَّة بن صالح إلى الرَّحبة، فأخذ جميع ماتركه البساسيري بها، من السلاح الذي لم يُر مثلهُ، كثرةً وجَودة، وأَموالاً جزيلَة كانت للبساسيري؛ ثم ولَى فيها بعض أَصحابه[2].

فطَمِع بنُو كلاب حينئذٍ في حلَب، وقَوي جأشُهم، وقَدمُوا عليهم:

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ انظر إمارة حلب ص١٢٤ ـ ١٢٥.

الأمير محمُود بن نصر بن صالح .

لأنَّ حَلَب كانت لأبيهِ شبل الدَّولة؛ فسار إليها محمُود ببني كلابٍ، في جُمادى الأولى سنة اثنَتين وخمسِين وأَربعمائة؛ ونَزَل عليها، وقاتَلها، وأَقام عليها سَبْعة أَيَّام، ومعهُ منيع بن مقلّد بن كامِل؛ ثم رحَلَ عنها.

فطلَب الأحداثُ من مكين الدَّولة مالاً يُنفِقُهُ فيهم، فقال: «قد أَخَذْتُم واجبكم المقرَّر على الكمال، وتسلَّفتُم أيضاً؛ فلا تطمعوا في وُصول شيء آخر إليكم». فعَصى أَحداثُ[1] حلب عليه، وغَدَروا بِهِ، وأَنفذُوا إلى محمُود بن نَصر بن صَالح فردُّوهُ.

فلمّا قَرُب منهم محمُود، وَثَب أهل حلَب على دار الشريف القاضي مُعتمد الدَّولة يَحيى بن يَزيد بن يحيى الحُسيني الزَّيدي، وكان قاضي الشّام، وعلى دار رَجُلٍ يُعرفُ بالظَّهير جلال الدَّولة؛ وكانا مكرمين لأهل حلَب؛ فنهبُوا دَاريْهما؛ وأَخرَجُوهما رَاجِلين، حُفاة، مُكَشّفي الرُّؤوس إلى الضِّيَاع العربيَّة، وكان من جملتهم: كندي، وابن الزغِري، وابن عنتر، وابن النَّاقِد.

وَوَصَل محمُود ببني كلابٍ، فسلَّمُوا إليهِ حلَب يوم الاثنين مُستهلَّ جُمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسِين وأَربعمائةٍ؛ وانحاز مَكين الدَّولة بن ملهم

١ ـ عالجت مسألة أصل منظمة الأحداث، وتكوينها وأدوارها في كتابي إمارة حلب ص٢١٥ ـ ٢٢٠.

إلى القَلعَة، وتحصَّن بها، وأَنفذَ إلى مصر رَسُولاً، فطلبَ النَّجدة والإعانة، فوصل الأمِير ناصِر الدَّولة أبو علي الحُسَين ابن الأمير ناصر الدَّولة الحسن بن الحسين بن حمدان ـ وهو ولد ناصر الدَّولة الذي نازل حلَب أوَّلاً في أيّام مُعزّ الدَّولة ـ وَقَدم في عسكر ضَخم في جُيوش المغَاربة، حتى نَزَل حمص لنُصرة أَصحاب القلعة؛ فسارَتْ إليه بنُو كلاب وبنُو خَفَاجَة، وكانوا جيراناً لهم بالظَّعن، في خلق كبير.

فَرجعَ ناصِر الدَّولة بن حمدان إلى بعلَبك، وهمَّت بنُو كلابٍ باتّباعه، فأبى عليهم أَسَد الدَّولة أبو ذُؤابة عطِيَّة بن صالح بن مردَاس، وانحازَ عنهم فافترقُوا، ورجعوا إلى قنّسرين.

وأَقبل ناصِر الدَّولة حتى نَزَل أَفامية، واستَدعَى مَن قَدَر عليهِ مِن بني كلابٍ، واستحلَفَهُم أَربعِينَ يميناً، وخَلَع عَلَيْهم خلَعاً فاخِرة، وسار بَعْد أَن استوثَقَ منهم، فلمَّا وصل إلى سرمين أَجفَلت بنُو كلاب ومحمُود إلى الشَّرق، وأَجفَلَ أَحدَاث حلَب منها؛ وحَصَلُوا مَعَ بني كلابٍ، وذلك ليلَة الاثنين السَّابع مِنْ رَجَب من السنَة.

ونَزَل مكين الدَّولة ابن ملهم وأَصحابه من القَلْعَة، فنهبُوا المدينة، وقَتَلُوا مَن وَجَدُوا مِنْ أَحدَاثها، وعِدَّتُهمْ أَربعون رجلاً، وصلبوا في محال حَلب جماعة من القَتلى، ونَهبُوا كُلَّ موضعٍ جليلٍ يعرفُونَهُ بالمدينةِ، وقياسِر الوكلاء، وأَموال التجار، وغير ذلك.

وَوَصَل ناصر الدَّولة أَبو عليّ الحسين فنزل حَلَب، وأَراد أَن ينهبها، فقيل

له: «إنَّ أَصحاب مكين الدَّولة قد سَبقوك؛ ولم يَبْق لكَ ولأصحابك إلا الاسم بلا فائِدَة» فامتَنَع من النَّهب. وقال: لابد من أَهل المدينةِ أن يقسطوا لي خمسين أَلف دينار، عوضاً عن ترحيل محمود عنهم، فبذَلُوا له خدمَة فلم يفعَل، وقال: «أَنا أَمضي إلى الفنيدِق وأُقابل محموداً على فعله، وأَعُود أَنتقِم من الحلبيّين».

فسار عن حلَب في مقدار خمسة عشَر أَلف فارس، ومحمود في دُون الألفَين؛ ونزلُوا على الفنيدق وهو المعروف الآن بتلّ السلطَان[1]؛ وانهزمَت بنُو كلب وبنُو طيء؛ وبقي العسكر وحَدهُ؛ وقَلَّ الماء عَلَيْهم، فكُسِروا. وأسر الدُنَيْن بن أبي كلب الجهبلي الكلابيّ ناصر الدَّولة، وأمكنَتْهُ الهزيمة فلم ير على نفسهِ أن يولي، وأسر كل مقدم كان في عسكره.

وقتلت بنُو كلاب أكثرَ عسكره، وغنمُوا كلما كان في العسكر، ولم يسْلَم مِنْهم إنسان بالجُملة إلا عارياً.

وبعد ذلك علم محمود بن نصر بن صالح بِأَسْرِ الأمير ناصر الدّولة، فاشتراهُ من الدُنَين بألفين وسبعمائة دينار؛ وقيل: بأقل من ذلك.
وأَسَر رجل يقال له جبر من بني كلاب أَخا ناصر الدَّولة، فاشتري

---

١ ـ تل السلطان قرية تعرف أحيانا باسم المرج الأحمر، وهي واقعة في سهول ادلب الشرقية، وتتبع ناحية أبي الظهور، وتبعد عنها مسافة ٧كم إلى الشمال الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

أَيضاً بمالٍ كثير، وكانت الكسرة في يوم الأربعاء سَلخ شهر رجب سَنَة اثنتين وخمسين وأَربعمائة[1].

وَوَصَل وقت الكسرة أسد الدَّولة أبو ذؤابة عطيَّة بن صالح بن مرداس إلى حلب، وتَسلَّم المدينَة من المغاربة، يَوم الخميس؛ ودار فيها ساعةً، ونزل عند شافِع بن عجل بن الصُّوفي في دارِهِ، التي هي الآن مدرسة القاضي بهاء الدين بن شداد.

وقيل: إن [ابن] ملهم استدعاه، وسَلَّم المدِينةَ، وفرَّجَ الله عن أهل حَلَب[2]. وَقَدِم الأمير محمُود بن نَصر إلى المدينَةِ، فانهزَم عطيّة منه آخر النّهار من يوم الخميس مُستهَلّ شعبان؛ وتَسلَّم محمُود البلَد يومَ الجمعَةِ الثاني مِن شعبَان سَنَة اثنتين وخَمسين وأربعمائة، وَهَذا من أغرب الاتفاقات أن يَملك حلَب ثَلاثة من الملوك في ثَلاثةِ أيّام مُتَتَابِعَة.

وأَيس مكين الدَّولة بن ملهم وركن الدّولة والي القَلعة، من حلَب وَمن نَجدة تصِل إليهما من مصر بَعد هذه الكسرَةِ فأنفذا من استحلَف محمود بن

١ ـ هناك بعض الشكوك حول تفاصيل هذه الرواية والتواريخ فيها، لأنه من غير المعقول أن نتصور أنه يمكن في مدة قدرها اثنان وثلاثون يوماً انجاز الأعمال التالية:
توجه رسول من حلب إلى القاهرة حاملاً طلب المساعدة، استجابة القاهرة بإصدار الأوامر إلى والي دمشق ليقوم بواجب التفريج عن حلب، قيام هذا الوالي باطاعة ماصدر إليه من أوامر بتشكيل جيش فيه مابين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً من العساكر وقيادته نحو حلب! من أجل معالجة هذه المسألة انظر إمارة حلب ص١٢٦ ـ ١٢٩ .

٢ ـ يبدو أن عطية جاء بناء على اتفاق مسبق. امارة حلب ص١٢٩ .

نَصر على شرُوط اشترطَاهَا عَلَيْهِ، وسلَّما إليه القلعة في عاشر شَعْبَان من هذه السنة، بعد أن أخذا أولاد بني كلاب: ولد محمود بن نَصر، ووَلَد شبل بن جَامِع، ووَلَد محمود بن زائدة، وولد منصور بن زُغَيب، وجعلاهم في حصن أفامِية رهينةً على أنفسها وعسكرهما وأموالهما ثم سيّرهم مع الأمراء في الرّوج إلى أفامية سالمين؛ وأخذُوا أولادهم الرهائن ورجعوا إلى حلب.

وأما ناصر الدَّولة، فبقي في أسر محمُود إلى أن قدم البلدَ عمّه معزّ الدَّولة، فاصطنعه منيع بن وَثَّاب؛ وخلَّى سبيلَه في سنة ثلاث وخمسين.

وسيّر محمُود كل من كان في أسره من الأمراء والقوَّاد إلى مصر، بعد أن أحسن إليهم، وشلَّت يَدُ ناصر الدَّولة في وقعة الفنيدق، فلمَّا وصل إلى مصر ولاه المستنصر دمشق، فقال أبو الحسن عَليّ بن عَبْد العزيز الحلبي الفُكيك فيهِ:

عَلَى حَلَبٍ بِه حُلِبَتْ دِماءٌ وَحُكِّمَ فِيكُمُ الرُّمْحُ الأَصَمُّ
وَقَـدْ أَرْسَلْتَـهُ وَالِي دِمشْقٍ يـدٌ شَـلا وَأَمْـرٌ لا يَتِمُّ

وفي ذلك يقُولُ أبو نَصر منصور بن تميم بن الزنكَل السرميني من قصيدةٍ، يذكر فيها مآثر بني كلابٍ:

أَلَيْسَ هُمُ رَدُّوا ابنَ حَمْدانَ عُنْوَةً عَلَى عَقبِهِ لا يَتَّقُونَ العَواقِبَا
أَلَيْسَ ابْنُه يَوْمَ الفنيْدِقِ قَادَهُ دُنينُ أَبِي كَلْبٍ وَعَرَّاهُ سَالِبا

ولما أخذ محمُود حلبَ من ابن ملهم، كانَ عمّه مُعزّ الدَّولة بمصر، فصرَفَه المستَنْصِر عَن عَكَّا وَبيروت وجُبَيْل، وقالَ له: «إنَّ هذه الأماكن

أَخْذتَها عوضاً عن حَلَب، وقد عَادَتْ إلى ابن أخيك، فتَمضي إلى حَلَب وتَستعِيدهَا مِنهُ»، فقال: «إنَّ نُوَّابَكُم فَرَّطُوا فأعِينوني بمالٍ». فأعانوه على ذلك بمال، وسَيَّروهُ، وقرّروا ألقَابهُ: «الأجلّ، الأعَزّ، تاج الأمراء، عِماد المُلْك، سيف الخلافة، عَضد الإمامَة، بهَاء الدَّولة العَلوِية، وزعيم جُيُوشها المستَنْصريَّة، عَلَم الدِّين ذُو الفَخْرين مصْطَفى أمير المؤمنين».

فعاد مُعزّ الدَّولة إلى حلب، وجَمَع قوماً مِن عشِيرَتِهِ، بَعدَ أن كاتبُهم حين وَصَلَ إلى حمص، فأجَابُوه، ولقِيَهُ أكثرهُمْ بحمص وبعضهم بحماة، فلمَّا نزل معرَّة النُعمان، أقام بها ثمانية أيّام، وضيّق العَرب على النّاس، وكان ذلك في قُوّة الشّتاء، فنزلوا منازل الناس.

وسيَّر محمُود الشيخَ أبا مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد الخفاجي رسَولاً إلى ملك الرُّوم، يستَنْجدُه على عمّه وبقي عندهُم إلى أن ملك ثمال حَلَب؛ وكتب الخفاجي إلى حَلَب القصيدة المشهورة:

هذَا كِتَابِي عَنْ كَمَالِ سَلامَةٍ[1]

وَرَحلَ ثمال، فنَزَلَ حَلَب مُحَاصِراً لابن أخيه مَحْمُود، فأغلَق محمُود باب حلب في وجههِ؛ وعَمِلَ قوم منَ الأحداثِ؛ وفَتَحُوا لمعزّ الدَّولة باب قنّسرين.

وَدَخَل أصحابه إلى أن وَصَلُوا دَرب البنّات، فنَزَل مَحمُود من القلعَة،

١ ـ طبع ديوان ابن سنان الخفاجي في بيروت سنة ١٣١٦هـ وكانت نسخة منه موجودة في المكتبة الظاهرية، فقدت ولم أستطع الحصول على نسخة أخرى في سورية، علماً أنني وقفت على نسخة موجودة في مكتبة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن.

وعاد أخرجهُم ولم يُقْتَلْ منهم واحِد، وقَبَض على من كان سبَب ذلك من الأحدَاث وَهُم: ابن حيُّون، وابن المغازلي؛ وذلك في ذي الحجّة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وَوَصل منيع بن شَبِيب بن وَثَّاب إلى حلَب لنصرة محمُود ببني نُمَيْر، وَحَصَل مع محمُود بالقَلعَة، فرَحَل مُعزّ الدَّولة عن حلب؛ وَنَزل منيع ببني نُمَيْر مُدَّة عشرين يَوْماً في ضيافِةِ محمود، وأَشَار على محمود باطلاق ناصر الدَّوْلَةِ بن حَمْدان ففَعَل، وخلَع عليهِ، وقَادَ خَيْلاً كثيرةً إليهِ، وسَيَّرَهُ إلى مصر.

وسار محمُود إلى الحانُوتَة[1] ليجمَعَ العَربَ على عمِّهِ فعاد مُعزّ الدَّولة ثاني يَوم مَسيره، ونَزَل على حَلب، ثم رحَل طالباً لمحمُود فلقيه، وكسَرَهُ، وانهزم محمُود، وَدَخَل حلب في ثلاث فوارس آخرَ صَفَر؛ وأسر مُعزّ الدَّولة أكثرَ عسكره، والأحداث الذين كانوا مَعَهُ، وهم: كندِي، وصُبْح، وابن الأقراصي، والشُّطَيْطي، واللّباد. واستأمَنِ منهمُ صُبْح إلى القلعَة، فَحَبسه نائب محمُود، وقَيَّده خيفَة مِن حيلةٍ تتمُّ عليه.

وقصد محمُود حُسام الدَّولة منِيع بن مُقَلّد، وقال له: «أنتَ كُنْتَ مُسَاعدي ومعَاضدي في كسر العسكر المصري الواصِل مع ناصِر الدَّولة وأوثر أيضاً أن تُساعِدني على عمِّي» فاسْتَمْهَلهُ إلى غَدِ ذلك اليوم، وَرَحل في اللَّيْل

---

١ ـ الحانوته أو تل الحواصيد، قرية في هضبة حلب تتبع منطقة جبل سمعان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

طالباً مُعزّ الدَّولة، وقالِ لنائبه: «تقولُ لمحمُود: عَمُّك هُو الشيخُ الكبيرُ، والعَرَبُ تأنفُ من معاضدة الوَلَد عَلَى الوَالِدِ، بَلْ أَنَا برَحِيلي أصلح الأمر بينكما إن شاء الله».

فأمر محمُود كاتبه أبا العلاء صاعِد بن عيسى بن سُمَّان النَّصْرَانيّ بأن يعمل شعراً، يذكره فيه بعهدِهِ، ويعتب عليهِ في اطراح ودّهِ، فكَتب إلَيْهِ:

أَلا أيُّها السَّاري تَخُبُّ بِرَحْلِهِ ... قَصِيرة فَضْلِ النّسْعَتَيْنِ إذا تَسْري
تَحمَّلْ ـ هَدَاكَ الله ـ عَنّي رِسالةً ... إِذَا بَلَغتْ يَوْماً شَفَيْتُ بِهَا صَدْرِي
إلى مَعْشَرٍ إنْ تُنْحَ نَحْوي سِهَامُهم ... فَأَخْطأ مِنْهَا مَا تَوغَّل في صَدرِي
وَخُصَّ حُسَام الدَّوْلَةِ ابن مُقَلَّدٍ ... أَخَا الغارَةِ الشَّعْوَاء وَالْكَرَمِ الدَّثْرِ
وَمَنْ عَلِقَتْ كَفَّايَ حَبْلَ وِدَادِهِ ... وَمَا خِلْتُ أَنْ تَغْتَالَه نُوبُ الدَّهْرِ
تَذَكَّرْ ـ هَدَاك الله ـ يَوْماً أَظَلَّنا ... بِهِ المَوتُ في ظِلِ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ
لَقَدْ غَالَني في وِدِّكَ الدَّهْرُ بَعْدَ مَا ... غَدَوْتُ أَرَاهُ وُهُو مِنْ أَنْفَسِ الذُّخْرِ
وَحَاشَا لِذَاكَ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِ مَا غَدَا ... نَقِي الحَوَاشي أَنْ يُدَنَّسَ بِالغدْرِ
وَأَنْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ نُفُوسُهُمْ ... تَرَى الغدْرَ بِالإِخْوَانِ ضَرْباً مِنَ الكُفْرِ
سَأُصْفِيكَ مَا صَافَيْتَ يَوْماً بِحِفْظِهِ ... وَآمُل انْ ضَيَّعْتَني عَاجِلَ النَّصْرِ
وَأَنْتَ عَلِيمٌ أَنَّني غَيْرُ جَازِعٍ ... إِذَا مَا رَمَاني الدَّهْرُ بِالنُّوَبِ الغُبْرِ
وإِنّي إِذَا ما يَدْجُ لَيْلُ خُطُوبِهَا ... أُصَدِعُهُ بِالسَّيْفِ عَنْ فَلَقِ الْفَجْرِ
وَمَا الْـمَوْتُ إلا خُطَّةٌ حُمَّ وَقْتُها ... وَأَكْرَمُها مَا كانَ في طَلَبِ الْفَخْرِ
أَبَى الله وَالأَصْلُ الذي طَابَ فَرْعُهُ ... إلى الْيَوْمِ إعْطَاءَ الْقِيَادِ عَلَى قَسْرِ

وَأَخْسَرُ مَنْ تَلْقَاهُ فِي النَّاسِ صَفْقَةً ... فَتًى عِنْدَ مَجْدٍ لا يَرِيشُ وَلا يَبْرِي

فَلا تَحْتَقِرْ ذَنْباً جَنَيْتَ عَلَى الْوَفَا ... وَلا تَعْتَذِرْ مِنْهُ فَما لَكَ مِنْ عُذْرِ

فقال منيع بن مَقَلّد وأبو العُلوان ثمال لمّا وصلت هذه القصِيدة: «من أين لمحمُود هذِهِ الفَصَاحة؟ ومن له بالشِّعر؟». فقيل: «إن هذا شعر أبي العلاء بن سُمان النّصراني». فقال منيع بن المُقلّد: «لقد ألبسني هذا النّصراني من العار طوقاً لايبلى، ولئن عشتُ لأقابلنَّهُ بما يكون له أهلاً».

وتردّدت الرُّسل بين ثمال ومحمُود، في تسليم حَلَب، وتَوَّسط بينهما مشَايخ العشيرة، وقالُوا: هذا بمنزَلةِ والدك، فتأخُذ من الأعمال ماشِئتَ. فأجابهم محمُود: بأنَّ هذا صحيح، ولكنه ضَيَّعَ مملكتَنا وإرثنا، وقد استعدتها بسيفي، وبَذَلتُ فيها مهجتي. فاعترف له مُعزّ الدولة بِذَلك؛ وضَمِنَ له معيشةً بخمسين ألف دينار، وثلاثين ألف مكوك غلَّة. وشَهِدَ مشَايخ العشيرَة بها.

وعَادَ محمُود إلى حلَب في آخر ربيع الأوّل وقد استَقَرّ الصُلح بينهما يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. وفُتحت أبواب البلد عند دُخوله؛ ثم خَرج إلى عمه[1] إلى المخيم، واستركبه يوم الاثنين مستهلَ ربيع الآخر من سنة ثلاث وخمسين وأَربعمائة، وداخله القلعة، وسَلَّمها إليهِ، وسار محمود ليحضر أهله من الحلَّة.

---

١ ـ بالأصل «عمله» وهو تصحيف واضح.

ولما استقرّ مُعزّ الدَّولة بِالقَلعَة، نفى من الحلبيّين الأحداث العُتق جَماعَة، وصَلَب مِنهم خمسَة عشر رجلاً. وكاتَب المستنصر بظَفَرِه بحلَب، فَسَيَّر إليه الخلَع مع ظفَر المستَفادِي، ولأخِيه ولأولادِهِ، ولحُسَام الدَّولَةِ منيع بن مُقَلّد. ولما وصل ظَفر رأى المصَلَّبين من الأحداثِ فَسأَل فيهم فَدُفِنوا.

ولَمَّا ملك مُعزّ الدَّولة حلب جاء أبو العَلاء بن سُمان ليُسَلِّم عليه، فحمل عليه ليطعَنَه، فطرح نفسهُ من بغلَته، وغَيَّب شَخْصَهُ عَنْهُ، وسار إلى أنطاكية، وصار بها أسقفاً إلى أن مات.

وفسَدَ ما بين مَنيع بن وَثّاب وبين ثمال. وكانَ منيع بالرّحبة، فسيّر ثمال أخاهُ أسد الدّولة عطيَّة بن صالح، في شعبّان من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، لدفعِ منيع عنها؛ فأخذها عطِيَّة، وأقامَ بها، وعصى على أخيه ثمال، وعاد محمُود إلى حلب من الحلَّة بأمه السيّدة، واجتمع بعمّه معزّ الدَّولة، وسارتِ السيّدةُ، وأصلحَت مابين أخيها منيع وبَيْنَ زوجها مَعزّ الدَّولة[1].

وفي المحرّم من سنة أربع وخمسين وأربعمائة، عمر الرُّوم حصن قسطُون[2] وحصن عَيْن التمر[3]، فسار مُعزّ الدَّولة في جُمادى الأولى لغزوهم،

١ ـ امارة حلب ص١٣٠.

٢ ـ قسطون قرية في الجزء الشمالي من سهل الغاب عند أقدام السفح الغربي لجبل الزاوية، قربها تل أثري يحمل الاسم نفسه. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ لم أقف على عين تمر في بلاد الشام، وتشير المصادر المتفرقة أن بيزنطة أرادت تحصين خط=

ففتح حصن أرتاح، فراسلُوه في الصُّلح، فأرسَلَ إليهم شافِع بن الصُّوفي يقول: «لا أجيبُ إلى الصُّلحِ إلا على أن تَهدموا الحصنَيْنِ المجدّدين، وأن يكون لَيْلُون للمسلمين، لا علقة لهم فيهِ، ويحملون عن حصن أرتاح مالاً ويردّهُ عليهم» فضمنوا ذلك.

فَرَحَل في الثَّاني من جُمادى الآخرة، ودَخل إلى حلب، ولم يَفِ الرُّوم إلا ببعضِ ماضَمِنوا له من الشُّروط.

وبلَغَ مُعزّ الدّولة أن قوماً من أحداثِ حلَب مضوا إلى أنطاكية، وتحدّثُوا مَعَ واليها في تسليم معرّة مصرين، والتَدرّج منها إلى غيرها، وقالوا لهُ: «حزبُنا في حلب وأصحابُنا تَحت أوامرنا». فلمَّا صحَّ عند مُعزّ الدَّولة ذلك، طلَبهُم وأحضر منهم قوماً وَقَتَلهُمْ. وهم: ابن أبي الريحان، وابن مطر، وابن الشَّاكري، وبهلُول؛ وصَلَبهم، وتَرَكَ باقيهم؛ وذلك في شهر رَمضان من سنة أربع وخمسين.

وكبس الرُّوم في شوّال مريمين[1] العقبة، وأحرقُوها، ونَهبُوها، وأدركهُم الأمير منصور بن جَابر، والأمير حارثة بن عبد الله؛ وظفرُوا بالرُّوم على كثرتِهم وقلَّة المسلِمين؛ فقتلُوا من الرُّوم مقدار ألف وخمسمائة.

= الثغور بدليل الخبر في أن ثمال بن صالح غزا البيزنطيين وافتتح أرتاح، والمثير للانتباه تغيير ثمال لموقفه من بيزنطة، ولعل أسباب ذلك تغير موازين القوى إثر ظهور الغز وشروعهم باجتياح الأراضي البيزنطية، وادراك ثمال بعد عودته من القاهرة، أن الخلافة الفاطمية باتت عاجزة عن ممارسة أدنى تهديد ضد حلب. إمارة حلب ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

١ ـ عدّ ياقوت مريمين من قرى حلب المشهورة.

وسار معزّ الدَّولة، في العشرِ الثَّاني من شَوّال، للغزْو فنزل قيبار، وفتحها، ونهبَها، وقتل الرجال، وسَبى النساء والصبيان. ثم مرض معزّ الدَّولة في العشر الأوّل من ذي القَعْدة، من سنة أربع وخمسين وأربعمائةٍ؛ واضطرب البلَد، فبلَغه ذلكَ، فاستدعى أخاه أَبا ذُؤابة عَطِيَّة بن صالح؛ وَوَصَّى لَهُ بحلب، وولاه الأمر.

وتُوفي يوم الخميس لستّ بَقِين من ذي القَعدة سَنَة أربع وخمسين وأربعمائة. ودُفِنَ في مقَامِ ابراهيم الفوقاني بالقلعَة، داخل الباب الغربي؛ وعمل عليه ضريح؛ وبَقِيَ إلى أيَّام الملك رضَوان[1]؛ وقُلع وبُلِّطَ عَليْه.

---

١ ـ رضوان بن تتش. سترد أخباره في العصر السلجوقي.

[إمارة عطية بن صالح][1]

وجلس أخوه:

أسدُ الدَّولة عطِيَّة بن صالح بن مرداس

في منصبهِ يوم الجمعة، فَبَلَغ ذلك محمود بن نَصر بن صالح وهو في حلّتِه فلم يرضَ بالوصيَّة، وأرسل إلى عطية يقول له: «إنَّ معزّ الدَّولة شَرَط على نفسِهِ أن يردَّ عليَّ البلد عند مَوتِهِ لَمَّا تسلَّمه مِنّي، وأنا أخذتُه بسيفي مِنَ المصريّين عَنْ غَلَبَةٍ وقَهْر؛ وهو إرْثي عَنْ أبي». وعرف ذلك مشايخ العشيرة واجتمعُوا على صحّة ماذكره، وسَاعَدُوهُ عَلَى مُنَازَلَة حَلب، فكان في كُلّ وَقتٍ يَقصدَها ويَرْعَى زرعها ويأخذ مَا في ضواحيها ويرحَلُ عنها.

فجاء في رجب من سَنة خمسٍ وخمسين وأربعمائةٍ، ونزل بحلَّته عَلى عَيْن سَيْلم، فخرج إليه أسدُ الدَّولة عَطَّية فكسره، ونهبَ حلَّتهُ وانهزَمَ محمود.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ وقعت عين سيلم على مسافة ثلاثة أميال من حلب، وكانت العرب تنزلها. معجم البلدان.

ثم إنَّه تجمع إليهِ شبلُ الدَّولة بن جامع، ومُحمد بن زُغَيب، وغيرهُما من بني كلاب، ونزَلوا على قنّسرين ـ وعطِية نازل على السَعدِيَ بباب حلب ـ فلم يقدرُوا على النّزول على حلب.

فسار إليهم سَيف الدَّولة منيع بن مقلَّد بن كامِل فقوِيَ جَأش محمود بهِ لأنه كان ذا مال عَظِيم. وكان كريماً يطعم العربَ ويعلق على خيلهم، ويخلَع ويهب، فلما حصل معهم نزلوا على حلب. وحاصروا حلب شهوراً فضرب حجر المنجنيق منيع بن مقلد فقتله.

وقيل: إن رَجُلاً حقيراً ضرب صدغه بمقلاعٍ فيه حجر، فبقي أيَّاماً، ومات؛ وذلك في العشر الأول من شوّال سنة خمس وخمسين وأربعمائة.

وأوصى منيع بجميع مالِهِ وما يملكه لخاله أسد الدَّولة أبي ذؤابة عطِيَّة الذي كان يُحارِبُهُ. وكان إقطَاعُهُ يرتفع منه كل سنة ثمانونَ ألف دينار؛ وكان له في حصن يقال له المجدّد، ثلاثمائة ألف دينار، وسلاح وآلة بمالٍ عظيم.

وكان أبو الحسن عليّ بن محمد بن عيسَى العمري الحلبي وزير منيع؛ وكان عطية قد دعاه إلى خدمته فامتنع، فلما مات منيع عاد أبو الحسن العمري إلى حلب فقبض عليه عطية، وقتله لِحقده على مافعله من امتناعه من خدمته.

ولعله احتجَ بأنه حمل منيعاً على حِصَار حلب مع محمود؛ وبعد أن قتله صلبه؛ ورثاه أبو محمد الخفاجي بأبياتِهِ التي يَقُول فيها:

ومعـذل جارٍ عَـلَى غلوائـه يروى حديث نَداه عن أَعْدَائِهِ

واستوزر عطية أبا الحسن عليّ بن يوسف بن أَبي الثريا الذي داره الآن مدرسة ابن أبي عصرون[١] بحلب. ثم صالح عطية بن مرداس ابن أخيه محموداً؛ على أن يدفع لمحمود إقطاعاً بخمسة وعشرين ألف دينار؛ من ذلك: سَرمين وباقي الاقطاع في بلد حلب من الأرتيق[٢]؛ وتحالفا على ذلك وتمّاه.

وفي نصف جمادى الأولى سنة ست وخمسين وأربعمائة، سلم ثابت بن معز الدولة إلى ابن عمه محمود معرة النعمان وكفرطاب وحماة، وكان فيها من قبل عمه.

وذلك أن بني كلاب تجمعوا بأرض شيزر: شبل بن جامع بن زائدة، ومحمود بن زائدة، ومنصور بن محمد بن زغيب، وحسين بن كامل بن حسين بن سليمان بن الدوح، وجماعة معهم من سبيعة وذؤيبة؛ وأجمع رأيهم على الوثوب على بلدان أسد الدولة عطية.

فأخذوا حماة وكفرطاب؛ وأتوا إلى معرّة النعمان وفيها شهم الدولة خليفة بن جبهان، فأخذ منهم أماناً وسلّمها، وساروُا حتّى نزلوا قريباً من

١ ـ ماتزال هذه المدرسة تحمل الاسم نفسه في محلة الفرافرة في حلب. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٢٢٦ ـ ٢٢٨ .

٢ ـ ذكر ابن العديم في بغية الطلب ج١ ص٤٣٧ ، هذه الكورة وقال إنه يشرف عليها وعلى عزاز جبل برصايا.

حَلب، فسار عطية من حلب يكبس محموداً، وكان بتل خالد[1] فظفر به محمود، وعاد عطية منهزماً إلى حلب.

ونزل محمود ببني كلاب على حلب، ومنعوا منها الميرة، وحصروها، وقاتلوها قتالاً كثيراً، وأشرفتْ على أمر عظيم من الجوع وقلة ما يدخلها. وكان أسد الدولة عطية قد أرزق أحداثها، فمنعوا باقي أهلها من التسليم.

فلما رأى أسد الدولة ضعف البلد صالح ابن أخيه محموداً. فكان لعطية حلب والرحبة وبالس ومنبج وعزاز وقنسرين. وسلّم بعد ذلك ما كان في يده غير هذه المواضع المذكورة إلى ابن أخيه محمود بن صالح، ووقع الصلح على ذلك.

واستدعى عطية ابن خان وكان في ديار بني مروان مغاضباً لأبيه ملك الترك، وكانت الروم تمده بالخلع والدنانير إكراماً لأسد الدولة عطية لأنه كان مهادنهم، فقدم ابن خان إلى عطية في ألف قوس فأكرمهم وأضافهم.

فلما حصل ابن خان على باب حلب ـ وكان هذا أول دخول الترك إلى الشام ـ تجمعت بنو كلاب إلى محمود بن نصر بن صالح؛ وقصدوا حلب فرأى محمود أنه لاطاقة لهم بالترك فانهزم.

ومشى السفراء بين محمود وبين عطية، فانعقد الصلح بينهما على أن يأخذ عطية: حلب والرحبة ومنبج وعزاز وبالس وأعمال ذلك؛ ويأخذ محمود

١ ـ كتبت هذه الصفحة بخط مختلف، والكلمة مطموسة وهذه أقرب قراءة لها، وتل خالد قلعة قرب حلب. معجم البلدان.

ابن أخيه من الأثارب قبلة واقطاعه الذي كان قديماً وما كان في يده في أيام مُعز الدَّولة ثِمال. وتمّ ذلك في المحرّم من سنة سبع وخمسين وأَربعمائةٍ.

وخرج عطيّة بالأتراك وأحداث حلب إلى الغزو، ففتح كمنون، وسبى أَهلها، وعاد إلى حلب غانماً. ودخل ابن خان حلب فخاف الحلبيون وعطية منه؛ فأغرى بهم الأحداث من أهل حلب فنهبوهم ليلاً، في صفر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وقتلوا منهم جماعة، ونهبوا خيولهم وسلاحهم وماقدروا عليه من رحلهم.

وركب ابن خان منهزماً ـ وكان ظاهر البلد ـ وصاح تحت القلعة: «أليس قد غدرت بي وبأصحابي ياعطية، والله لأنزلك منها على أقبح قضية». وسار إلى الشرق فعبرتْ طائفة منهم إلى الجزيرة فنهبتهم بنو نمير، ورجع الباقون فصادفوا عسكراً للروم في بطريق لهم يعرف بالنحت، فلم يجدوا بداً من شق عسكر الروم، وكان في عشرين ألفاً ففتح لهم الروم طريقاً بينهم ليطبقوا عليهم فعبروا سالمين.

وقتلوا من الروم خلقاً عظيماً، وكان السالم منهم نحواً من مائة وخمسين رجلاً، فركبت عليهم العرب بنو قريظ وربيعة بن كعب وغيرهم، فأشار أمير منهم يقال له قمار على الملك أن يموت كريماً، ولا يثق بالعرب فلم يفعل. والتجأ إلى منصور بن جابر فغدر به بعد أن كان أعطاه مقنعة زوجته ومخصرته؛ وقتل قمار وجماعة.

وسلم ابن خان في جماعة فلحق بمحمود، ونزل عليه وهو بسرمين؛

فأمنهم؛ وبعث بهم إلى معرة النعمان. ثم أن محموداً سير ولده إلى أنطاكية رهينة، فوجّهوا قطعة منهم، وتلقّاه بالجنايب في كلّ منزلٍ بمراكبها، وجعلوا له كلّ يوم خمسين ديناراً، وخلعوا عليه وعلى أصحابه خلعاً سنية، ووهبوا له في جملة ما وهبوا دبوس ذَهَبٍ وزنه ثلاثمائة مثقال.

وسار محمود بمن جمعَهُ من العرب، ومعه ابن خان التركي ومن انضوى إليه من التركمان، إلى مرج دابق، فخرج عطية إليهم، وجمع جموعاً كثيرة من العوفيين وغيرهم، وقصد محموداً والتركمان، في يوم الخميس حادي عشر جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين، فالتقوا، فانهزم عطية إلى حلب، وتبعه محمود بمن معه.

ونزل على حلب محاصراً لها وفيها عمه عطية وجاءه ظفر المُسْتَفادي رسولاً من المستنصر، وهو محاصر حلب، ولقبوه عظيم أمراء العرب عضد الدولة، سيف الخلافة، ذو الفخرين؛ وكان يلّقب أولاً عزّ الدّولة، وشمسها؛ فبقي محاصراً حلب مائة يوم ويومين.

ثم سلّمها إليه عمه أسد الدولة بن صالح بعد حصار شديد وجوع عظيم؛ وأخذ عمه عطية الرحبة، وعزاز ومنبج؛ وبالس، وجميع الضياع التي شرقي حلب وشماليها؛ وأخذ محمود حلب وقبليها؛ واصطلحا صلحاً خالصاً ذلت به لهما العرب[1].

١ ـ يعد دخول ابن خان حدثاً هاماً في تاريخ حلب وبلاد الشام، وقد عالجت هذه المسألة وتقصيت ماورد في مختلف المصادر حول ابن خان هذا. إمارة حلب ص١٣٣ ـ ١٣٦ .

[إمارة محمود بن نصر الثانية](1)

وَدَخَلَها مَحْمُودُ بن نَصْر يوم السَّبت النصفَ من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأربعمائة، واستقرتْ ألقابُه: الأجلّ، شرفُ أمراء العرب، سيفُ الخلافة، معزّ الّدولة وفخرُها، وعضدُها، ناصرُ الملك، ذو الحَسَبَيْن(2).

ومَضَى عَطيّةُ إلى الرَّحبة وكانتْ ألقابَ عطيّة خالصةُ الأمراء، عمدةُ الإمامة، عضدُ الخلافة، أسدُ الدّولة وسيفُها، ذو العزيمتين.

وأقطع مَحْمُودٌ معرَّةَ النّعمان الملكَ هرونَ بن خانَ ملكَ التُرك؛ فدخل

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ رأيت منذ سنوات في قلعة حلب حجراً ملقى داخل مسجد حلب حجمها ٥١×٣١سم عليه نقش مؤلف من خمسة أسطر جاء يه:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بعمله الأمير)

ـ الأجل تاج الملوك ناصر الدين شر (ف)

الأمة ذو الحسبين خالصة أمير المؤمنين أبو سلامة محمود بن نصر بن صالح. سنة خمس وستين وأربعمائة.

وعرف محمود بذي الحسبين لأن أباه من كلاب وأمه من نمير.

المعرَّة يومَ الأربعاء السّابعَ عشر من شوال، سنة ثمان وخمسين واربعمائة، وَوَصل معه إليها من التُّرك، والدّيلم، والكُرد، والأوج[1] مقدار ألف رَجُلٍ مع حاشِيَتهم فَنَزل بالمُصَلَّى.

فما رؤي أعفَ منهمُ عن البَساتين والكُروم وغيرها، ولم يكونوا يأخذون من أحدٍ شيئاً إلا بثمنِهِ؛ وسقَوْا دَوابَّهم الماء بثمنِهِ. وفزعتِ العَرَبُ منه فزعاً عظيماً؛ ثم استدعي إلى حلب وعوّض معرّة النّعمان.

وخرج محمود بنُ نصرٍ بابن خان والتّركمان، في سنة تسع وخمسين، ومعه بنو عوف من بني أبي بكر بن كلاب، فنزل المعشيرة[2] ـ من بلد حماةَ ـ ثم أَتى حَمَاة؛ وَوَطىء جميعَ العَرَب وَأذلَّها.

وكانت العرب تُطلبُ فتنةً تقع بينه وبين عمّه عطيّة بن صالح، وكان بحمص، فظنّت بنو كلاب أنّه يُحاربُه؛ فلم يفعل عطيّة، لمعرفتِهِ بغَدْر العَرَب به مرةً بعد أُخرى؛ وأراد أن لاينهدِم مجدُ آلِ مرداس.

وفي هذه السّنة سلّم حسين بن كامِل بن الدّوح «حِصْنَ أسْفُونا»[3] إلى نُوّابِ المصريّين، بعد أن نَهَبَ عسْكر التّرك «حناك»[4] وجميع ضياعِهِ بالشّام.

---

١ ـ الأوج اسم أطلق على المسلمين من سكان الثغور البيزنطية الاسلامية.

٢ ـ لعل المعيشرة هي العشارنة الحالية إلى الغرب من شيزر على العاصي.

٣ ـ أسفونا الآن تل أثري في جبل الزاوية، ناحية كفر نبل، منطقة معرة النعمان يقع شمال غرب قرية اسمها سفوهن. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ حناك ـ كما سلف القول ـ خربة أثرية في جبل الزاوية تتبع منطقة معرة النعمان.

ووقع الوباء العظيم بحلب، حتّى أنه مات في رجب منْ هذِه السَّنَة زهاء عن أربعة آلاف فضلاً عن سائر الشّهور.

وفيها طَلَعتْ طائفةٌ كبيرةٌ من التّرك، فنزل بَعْضُها على دُلُوكٍ وتقدم منهم نحوُ ألفٍ، فَنَهبُوا بلدَ أنطاكيةَ عن آخِره؛ وأخذوا نحو اربعين ألف جاموس. وقيل أكثر، حتى أنّ الجاموس كان يُباع بدينار، وأكثرهُ بدِينَارَيْنِ وَثَلاثة. وأما البقر، والغنم والمعز، والحمير، وَالجَواري، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة. وكانت الجارية تُباع بدينَاريْنِ والصبيّ بتطبيقة نِعَالٍ للخيل.

وخرب بلد الرُّوم خَراباً لم يسمع بمثلهِ؛ وبقيت الغلات في البَيادر ما لها من يَرْفَعُها مِنهم، حتّى كان الفَلاحونَ وسائر العَوَامّ يمضي الواحد منهُم ويأخذ مايريدُ، فلا يَجدُ من يُدافِعه عن ذاك؛ لإنَّ الرُّومَ تحصّنُوا في الحُصُون والجبالِ، والمَغَاير، وتَركوا بيوتهم على حالِها لم يأخذُوا مِنها شيئاً، لأنّ التُّرك أَتَوْهم على غفْلَةٍ، وكان ذَلِكَ في شوال.

وكان مُقدّمُهم أفشين بن بكجي، وَكان قد غَضِبَ عليه العادل ألب أرسلان بسبب خادم كان زعيم بعض عساكِره، فقتله الأفشين. وقطع الفُرات إلى بَلَد الرُّوم، ثم خرج إلى أعمال حَلَب، وباع الغَنائم التي كانت مَعَهُ.

ونَزَلَ في سَنَة سِتّين حول أنطاكية؛ وضاق الشّيء فيها حتى بلغت

الحنطة قفيزين[1] بدينار. فلمّا لم يَبْقَ شيءٌ دون فتحها أَتَتْه كتب العادِل ألب أرسلان من العِرَاق بالرّضا عنه. وقيل إنّ أَصحاب مؤونة السّوق بحلب حَصَل في دفاترهم نحو سعبن ألف مملوكٍ ومملوكة سِوى مابِيع بغير مَؤونة في بلد الرُّوم وسائر البُلْدان، وأَخَذَ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار، ومثلها من ثياب الدّيباج والآلة وسار إلى العراق في جُمادى الآخرة من السنة.

وفي هذه السّنة سَلّم أميرٌ من أمراء المغاربة يعرف بابن المرأة حصن أسفُونَا إلى الأمير عزّ الدّولة محمُود بن نصر بن صالح. وتوّلى ذلكَ الأمير سديد المُلك أبو الحسن عليّ بن مُنْقذ.

وفي يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين من شعبان، فُتحت أرتاح بالسّيْف؛ ونهب جميع ما فيها وما في حصنها من الأموال والذَّرَاري؛ وكان فيها خَلْقٌ عظيمٌ من النّصرانيّة لأنَّ جميع من كان في تلك المواضع منهم حَصَل بها لأنّها كانت الكرسيَّ لهم هُناك. وقتل من رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل؛ وَقَدْ كان الملكُ ابن خَان حاصرَها زُهاء خمسة أشهر.

وأتى عسكرٌ عظيمٌ من عساكر الرّوم، فَنَزَلَ على باب أنطاكية ليُصالح الملك ابن خان عن أرتَاح وغيرها من بلاهم؛ فلم يتمّ بينهم صُلْحٌ. وإنّما كان غَرض العَسكر أنْ يَدُسَّ إلى أنطاكية غلّة حُمِلَتْ إلى السُّوَيْدَاء[2] لتقويتها.

وكان فتح أرتاح فتحاً عظيماً لأنّ عملها قريبٌ من أعمال الشّام، من

---

١ - القفيز: مكيال يساوي ثمانية مكاكيك، ويسع المكوك صاعاً ونصف الصاع.

٢ - السويداء هي ميناء السويدية ميناء أنطاكية على البحر المتوسط.

الفُرات إلى العاصي إلى أفامية إلى باب أنطاكية إلى الأثارب. وقيل بأنهم أحصوا إلى شهر رمضان من هذه السنة أنّه افتقد من الرّوم في الدّرب إلى أفامية بحساب قتلاً وأسراً ثلاثمائة ألف نفر.

وخَرَج ملك الرّوم في سنة إحدى وستّين وأربعمائة إلى ديار الشام فأخذ كثيراً من أهل منبج، وهَرَب أهلها من حصْنها فَأَخَذَهُ، وشَحَنَهُ رجالاً وغلةً وعدّةً. وسار إلى عَزَاز فوقف عليها ساعة، ورَجَع جَاولاً، وسلّط الله عَلَيْه وعلى أصحابه الغَلاء، والعلّة، والوباء. فذكر ملك الرُّوم للقاضي القضاعي رَسول المصريّين أنّه مات له في يوم واحد ثَلاَثَة آلاف من خيله سوى عسكره.

وقيل: إنّ منبج بقيتْ في بلَدِ الرُّوم سبع سنين، وهذا الملك هو يوجانس[1]. ولا يبعُد عندي أنّه الذي عناه هرقل بقَوله: «لا يعود إليك روميٌّ إلا خائفاً حتّى يولد المولود المشئوم، وياليتهُ لا يولد».

وفي يوم السَّبت أوّل شعبان من هذه السنة، جمع قَطَبان أنطاكية ودوقسها المعروف بالنحت جموعاً كثيرة. وطلَع إلى حصن أسفُونا بعَمْلة عملها عليه قومٌ يُعرفونه ببني ربيع من أهل جوزن ففتحوه، وقتلوا كثيراً من رجالِهِ وكانوا ثمانين رجلاً، وأسروا الباقين. وكان الوالي به رجلاً من الأتراك يعرف بنادِر.

---

١ ـ اسمه رومانوس الرابع، ومعنى لقب ديوجانس: حامي الثغور أو الحدود، وسيقع في أسر السلطان ألب أرسلان في معركة منازكرد.

وبلغ الخبرُ إلى الأمير عزّ الدّولة محمود بن نصر بن صالح، وهو يسير في الميدّان بظاهِر مدينة حلب؛ فسار في الوقت يوم الاثنين في التُّرك والعرب؛ ولم يدخُل البلد، واجتمع عليه خَلْقٌ عظيمٌ سمع من يحزرهم بخمسين ألفاً؛ فحاصره سبعة أيام، وفتحه يوم السّبت، وقتلَ جميع رجالِهِ، وكانوا ألفين وسبعمائة؛ وفي ذلك يقول أبو محمّد الخفاجي:

إنْ أظْهَرَتْ لِعُلاكَ «أنْطَاكِيَّةٌ» حُزْناً فقد ضَحِكَتْ عَلَى قَطَّانِهَا
بَعَثَ البَرِيدَ مُخَبِّراً عَنْ وَثْبَةٍ ما كان أحْوَجَهُ إلى كِتْمَانِها
لمَّا أطلَّ لَـهُ لِواؤُك خـافِقاً عرفَتْ وُجُوه الذُّلِ في صُلْبَانِها

وفيه يقول أبو الفضل عبد الواحد بن محمّد الحلبيّ الربعي:

رَدَدْتَ عَلَى الاسلامِ شَرْخَ شَبَابِهِ وَكَادَتْ عَلَيْهِ أنْ تُقَامَ المآتِمُ
وظَنَّ طُغَاةُ الرُّومِ مُنْذُ أغَبَّهُم نِزَالُكَ أنا حينَ ذَاكَ نُسَالِمُ

ثم إنَّ محموداً هَادن الرُّوم في هذه السَّنة على أن اقترضَ منهم أربعةَ عَشَرَ ألفَ دينار، وعلى أن يجعل ولده «نصراً» رهناً عليها، ويهدم حصن أسفُونا. فأخرج ثابت ابن عمّه معزّ الدّولة وشبل بن جَامِع، وجمَعا النّاس من معرّة النعّمان وكفر طاب وأعمالها؛ وخربا حصن أسفُونا.

ووقعتْ فتنة بحلبَ بين الحلبيّين والأتراك، وقُتِل من الأتراك نحو أربعين رجلاً، ومن الحلبيين عشرة. وَوَصَل في سنة اثنتين وستّين وأربعمائة صندق التركي خارجاً من بلد الرّوم، ومعه عسكر عظيم؛ وَدَخَلَ إلى بلَد

حلب مِنَ الأرتيق إلى الجزْر إلى بلد معرّة النعّمان وكفرطاب إلى حماة وحمص إلى رفنية.

وشتوا في هذه السّنة فنهبوا الضِّيَاع وسَبَوا منها، وعاقَبُوا مَنْ وُجِدَ هناك، وفتحوا جبَابَ الغَلّة وَمَدَافنها. وقطع القطائع الكثيرة على مواضِع امتَنعتْ عليه.

ولقي أَهْلُ الشّام مِنْ عسكره شِدّةً عظيمةً، وهو أوّلُ نَهْبٍ وفسادٍ جَرى بالشّام من الأتراك. ولما انقضى زمنُ الشِّتاء عاد إلى بلَد الرّوم بعد أن أكرمَهُ محمود بن نصر بتُحفٍ وهَدَايا حَمَلَهَا إلَيهِ.

ثمّ إنّ محمود بن نَصْر بن صالح راسل في هذه السّنة السلطان العادِل ألب أرسلان، واستقرّ الأمر بينهما فأجاب مَشَايخ البلَد إلى ذلك فَلبِسَ المؤذِّنونَ والخطيبُ السَّواد، وخطب للامامِ القائِم، وبَعْدَه للسّلطان ألب أرسلان، وبعده لمحمود، ولقّب الأمير الأجلّ حُسام الدَّولة العبّاسية، وزَعِيم جيوشها الشّاميّة تاج المُلوك، ناصر الدّين شَرف الأمّة ذو الحَسَبَيْنْ خالِصَة أمير المؤمنين.

وأمر ابن خان الأتراك بالوُقوف على بابُ الجَامع وقَتْل كُلّ من يخرجُ ممتنعاً من الصَّلاة وسَماع الخُطبة؛ فسأله الشّيوخ ألا يَفْعَل خَوْفاً مِنْ وقوع

١ ـ الجزر كورة من كور حلب تقع بينها وبين أنطاكية.

٢ ـ للسلطان ألب أرسلان ترجمة واسعة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٧٨ ـ ٢٩٣ .

فتنة. وأخذَتِ العامّة الحصر التي في الجامع، وقالوا: «هذه حصر عليّ بن أبي طالب فليجيء أبو بكر بحصرٍ حتى يُصَلّي عليها النّاس». وكان ذلك يوم الجُمعة التّاسع عشر من شوّال سنة اثنّتين وسِتّين وأَربعمائة.

ومَدَحه الشّيخُ أبو مُحمّد بن سَنان الخفاجِيّ الحلبيّ بقصيدةٍ طويلةٍ، يقولُ فيها:

مَا يَصَنَعُ الْحسبَ الْكَريمَ بِعَاجِزٍ يُبْنَى لَهُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ وَيَهْدِم

على أن يخطب محمود بحلّب للإمام القائم خَليفة بغداد وبعده للسّلطان العَادِل ألب أرسلان وبعده لنفسِه؛ فوصَلَ إليه نقيبُ النّقباء أبو الفوارس طراد بن علي الزينبي لإقَامة الدَّعوة العبّاسية، ومعه الخِلَع من القائم بأمر الله ومن السّلطان.

فجمع محمُود أهل حلب وقال لهم: «قَدْ ذهبتْ دولة المصريّين وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة ونحنُ تحتَ الخَوْف منهم، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نُقيم الخطبة خوفاً من أن يجيئنا وقت لاينفعُنا فيه قول ولابذلٌ».

وكان ناصر الدّولة بن حمدّان قد تغلّب على مصر، وَوَقَع بينَه وبين جماعةٍ من الأمراء بمصر وحشَة؛ فأنفَذَ إليه الفقيه أَبا جعفر محمد بن أحمد البخاري المعروف بقاضي حلب ـ وأظنّ ناصر الدولة قلّده قضاءَ حلب حين وردها؛ ووقعت به وقعة الفُنَيْدِق، والسلطان ألب أرسلان حين حاصر حلب وهو معه فعُرِف بذلك ـ أرسله ابنُ حمدان رسولاً إلى السلطان ألب أرسلان

يستدعي عساكره ليسلّم إليه ديار مصر ويغيّر الدعوة؛ وذلك في سنة اثنتين وستّين.

فلمّا ورد عليه الرسول إلى خراسان جهز العساكر العظيمة التي تملأ الفضاء، وَوَصل معها على طريق ديار بكر، ونَزَل الرّها في أوّل سنة ثلاث وستّين، وأقام عليها نيّفاً وثلاثين يوماً.

وسَيَّر الفقيه أبا جعفر قاضي حلب المذكور رسولاً إلى محمود بن نَصَر بن صالح يستدعيه إلى وطء بِساطه وخدمته أسوةً بمَنْ وَفَد عَلَيْهِ مِن المُلُوك مثل: شرف الدولة مسلم بن قريش، وابن مروان، وابن وثّاب، وابن مزيد، وأمير التّرك والديّلَم. فلم يُجِبْ محمود إلى ذَلك، وخاف منه.

فسار عن الرُّها إلى الشّام قاصداً محمود بن نصر، فقطع الفُرات في النِّصف من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستّين وأربعمائة، من نَهْر الجوز[1]؛ ونَزَل على بعض المروج فأعْجَبَهُ، فقال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب: «يامَوْلانا أحْمَد الله تعالى على هذِهِ النِّعْمة؛ وهي أنَّ هذا النهر لم يقطعْهُ قطُّ تركيٌّ إلا مملوك. وأنتَ قد قطَعْتهُ مَلِكاً». فأحضرَ الأمراءَ والأتراكَ وأمرهُ بإعادَة القَوْلِ. قال: فَأَعْدتُهُ، فحمد الله تعالى حمداً كثيراً.

ونَزَل بنقرة بني أسد إلى أرض قنَّسرين إلى الفُنَيْدِق. وكان نقيب النقباء بِحَلب لم يَنْفَصِلْ عنها بعد إقامة الدَّعْوَةِ، فسألهُ مَحمود أن يَخْرُجَ إلى

١ ـ نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة على الفرات. معجم البلدان.

السُّلْطَان، ويُصْلِحَ أَمْرَهُ معه، فخرج مُسْتَفْسِراً ومتوسّلاً. وتلطّف الأمر، وأحسن السفارة. وخاطب السّلطان بأنّه قريب العهد بالخطبة للخليفة، وقد لبس تشريفه.

فقال السّلطان: «أي شيْء تساوي خطبتُه للخليفة ولبسُ تشريفه، مع ماسبق من شَقِّهِ الْعَصَا وخروجِهِ عن الطّاعة!» وأبى قبول الشّفاعة فيه بدون وطء محمود بساطه.

فخاف محمُود ولم يجب إلى ذلك، وتمادى الأمر نحو شهرين. وحَصَّن محمود حلب وجفَّل الناسَ من سائر الشام إليها، وحَصَل الرّعبُ في قُلُوبهم هيبةً. لما اجتمع إليهِ من العساكر الجمة، والجيوش الكثيفة الضخمة. وكان الأمر بخلاف ما ظَنَّ الناسُ؛ فإنَّهُ لما أيس من خُروج محمود إليه عَادَ من الفُنيدق وكانتْ خيمتُه على ذلك التَّلِّ فعرف بتلّ السّلطان من ذلك اليوم.

وَنَزَل على حلب في آخر جمادى الآخرة من السَّنة، وكانت الخيامُ والعساكرُ مِن حلب إلى نقرة بني أسد، إلى عزاز، إلى الأثارب، متقاربةً بعضها من بعضٍ، ولم يتَعَرَّض أحدٌ من العَسكر بمالِ أحدٍ، ولاسُبِيَتْ حَرمة، ولا قاتل حصناً.

وبَلَغني أنَّ عسكره العَظيم لم يأخذ عليقةَ تبنٍ من فَلاح إلا بثمنهِ، وأقام مُحاصِراً حَلَب شهراً ويومين. ولم يقاتلها غيرَ يوم واحدٍ، وقصد المُطَاوَلَة بالبلد بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ على الأخذ، وقال: «أخشى أَنْ أَفتحَ هذا الثغر بالسّيف

فيصير إلى الرّوم». ونُقِبَ بُرْجُ الغَنَم، وَعُلِّق[1]، فظَفِرَ أَهلُ حلب بمن دَخَلَ ذلك النّقب وأخذوا بعضهم، ووقع الرَّدْمُ على الباقين.

وعصّب الحلبيون بُرْجَ الغَنَم بشقة أطلس، وكان السلطان نازلاً بميدان باب قنّسرين، فسأل عَنْ ذلِك فقيل: «هؤلاء الحلبيّون يقولون على سبيل المزح: قد صَدّع البُرج رأسهُ من حجارة المنجنيق فقَدْ عصَّبُوه». فغَضِبَ، وفرّق في تلك الليلة ثمانين ألف فَرْدة نشّاب خلنج[2]، غير مارماه بَقِيَّة العسكر.

وأصبح وأمر بالزّحف فَجَدَّ النَّاسُ في قِتال البلد، وحمل السّلطان بنفسه في ذلك اليوم، فوقعت يدُ فرسه في خسف كان هناك، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق فرَكِبَ غيرَه؛ وعاد، وصرف النَّاس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ إبقاء لحُرمة البلد، وكان عسكره دائراً بالبلد من جميع وجوهه.

ثم إنَّ السّلطان راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرّيَّة، فوصَلوا إليه، وعوّل على تقليد بعضهم وتَرْكه في مُقابلة محمود وعَوده لأجل مابلغه من ظهور ملك الرّوم إلى بلاد أرمينية عازماً على قصد خُراسان.

وَلَمَّا علم محمود بأنّ البلد قد أشرفَ على الفتح، وعَلِمَ بوصُول الأمراء من بني كلاب، وأنَّه إنْ تم ذلِك خرج الشَّامُ مِنْ يدِهِ، فراسل السُّلَيمانيّ ـ

١ ـ أي حشي بالأخشاب لسند الثغرة قبل اشعال النار فيها بغية انهيار البرج.
٢. الخلنج حتى الآن بالدارجة: الجديد الذي لم يستخدم بعد.

وكان يتردّد إليه في الرّسالة ـ يُعلمه أنَّه قد عزم على وَطْء بساط السّلطان وخِدمته خوفاً مما أَشْرَفَ عليه.

فَخَرج إلى السُّلطان بنفسه، ومعه والدته علويَّة، المعروفة بالسيِّدة، في أوّل شعبان؛ وأَخذَ مفاتيح البلَد معه، فدخلا والعسكر سِماطان بينَ يَدَيْه، فخدماه، وسلّما عليه، فأكرمهما، وأحسن اليهما، وقال للسيِّدة: «أنتِ السيّدة؟» قالت: «سَيْدةُ قومي» ـ وقد ذكرنا أنّه جَرى لَهَا ذلِكَ مع المُستَنْصِر.

وأطلق لهُ البلد، وشَرَّفَهُ، وخلع عَلَيْه، وكَتَب له توقيعاً بحلب، وتردّد خُروج محمود إلى خدمته مَرَّةً بعد أخرى؛ وقرّر معه السُّلطان أن يخرج بعسكرِهِ، ويضيف إليه السّليماني، وأَنْ يتوجَّهَا إلى بلاد دمشق والأعمال المصريّة لِفَتْحها فَفَعل ماأمرَهُ به، وعاد السُّلطان إلى بلاده[1].

وقيل: إنّه خَلَّف ابنَه مع فوْج من عساكره بكُورَة حَلَب، وقصد ملك الرُّوم، وأَسرع في السَّير لأنَّه بلغه أَنَّ ملك الرُّوم خرج في جموعٍ لاتُحصى؛ وأنه وَصَل إلى قاليقَلا ـ وهي أرزن الرّوم ـ فوَصَل السّلطان إلى أذربيجَان حين بلغه أَنَّ ملك الرُّوم قد أخذ على سمْتِ خلاط، وكان السّلطان في خَوَاصِّ جُنْدِهِ، وجموعُ عَساكِره بعيدةٌ عنه، ولم يَرَ العَوْدَ إلى بلاده؛ فسيَّر وزيرَه نظامَ المُلك وَزَوْجته الخَاتُون إلى تبريز مع أثقالِهِ.

١ ـ عالجت هذه الحوادث وبحثت فيها اعتماداً على مختلف المصادر في كتابي امارة حب ص١٣٨ ـ ١٤٣.

٢ ـ أرزن: مدينة قرب خلاط. معجم البلدان.

وبَقِيَ في خمسة عشر ألف فارسٍ من نُخْبَةِ عسكرِهِ مع كل واحدٍ فرسُه وجَنِيبُهُ؛ والرُّوم في زُهاء ثَلاثمائة ألفٍ أو يزيدُونَ مابَيْنَ فارس وراجلٍ، من جموعٍ مختلفةٍ منَ الرُّوم، والرُّوس، والخزَر، واللان، والغُزّ، والقفجق، والكرج والأبخاز، والفرنج، والأرمن. وفيهم خمسة آلاف جَرْخي[1]؛ وفيهم ثلاثون ألف مُقَّدمٍ مابين دوقس، وقومص، وبطريق.

فرأى السُّلطان أنّ الإمهال للحشد والجَمْع مُضِرٌّ؛ فركب في نُخْبَتِهِ وقال: أَنَا أَحْتَسبُ نَفْسي عِنْدَ الله؛ وهي إمّا السعادة بالشهادة، وإمَّا النصر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[2]. ثم سار مرتّبا جيشَه قاصداً جموعَ الرُّوم.

وكانَ ملك الرُّوم قد قدم مقدّما في عشرين ألف مدرع من شجعان عسكره، ومعه صليبُهم الأعظم؛ فوصل إلى خلاط، فنهب وسبى، فخرج إليه عسكر خلاط، ومعه صندُق التركي الخارج إلى بلد حلب، في سنة اثنتين وستّين ـ على ما قَدَّمْنَا ذكْرَه ـ فكسره صنْدق؛ وأَسَرهُ، وصادف ذلِك وُصول السّلطان، فأمر بِجَدْعِ أَنْفِهِ.

وعَجَّل إنفاذَ الصَّلب الذي كان في صُحْبته إلى نِظام المُلك، وأمره بتعجيل إنفاذِهِ إلى «دار السَّلام» مُبَشّراً بالفَتْح؛ وتَلاحق عسكرُ الرُّوم، فَنَزَلُوا علي خلاط مُحَاصِرين لها؛ ونَزَل المِلكُ على مَنَازكِرد فسلّمُوها إليه بالأمان خوفا

١ ـ الجرخ آلة عليها قوس ثقيل يرمي السهام أو النفط.
٢ ـ سورة الحج ـ الآية: ٤٠ .

من معرّة جَيُوشه إن استَوْلوا عليهم؛ وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة، سنة ثلاث وستّين وأربعمائة.

فلما كان يوم الأربعاء سَيَّر أهلَ منازكرد، وخرج بنفسه ليشيعهم وهو في جُمُوعِهِ ووافق ذلك وصُول العسكر السُّلطّاني، وَوَقعت العَين في العَين، فحَمل المسلمون حملةَ رَجُلٍ واحد، فردّوهم على أعقابهم. وشرع أهلُ منازكرد يتسلّلون من بينهم فقَتَل الرُّومُ بَعْضَهم، ونجا البَاقون، وترك الرُّوم طريقَهم الذي كانوا سالكيه، وعاد ملكهم فنزل في مَضَارِبِهِ بين خلاط ومَنازكرد؛ وباتُوا ليلَتُهْم على أَعْظمِ قلق وأَشَدِّه.

فلمّا أصْبَحُوا بُكرة الخميس وَصَل السلطانُ ألب أرسلان في بقيَّة عساكره، فنزل على النّهر، وملك الرُّوم على موضع يُعْرَفُ بالرّهوة في مائتي ألف فارس، والسّلطان في خمسة عشر ألف؛ فأرسل السّلطان رسولاً حَمَّله سُؤالاً وضراعة، ومقصوده أن يكشف أمرهم، ويختَبِرَ حَالَهم ويقول لملك الرّوم: «إن كُنْتَ ترغبُ في الهدنة اتمَمْنَاها، وإن كنتَ تَزْهَدُ فيها وَكلنا الأمرَ إلى الله عزّ وجل».

فظنَّ الرُّومي أنّه إنّما أرسله عن ضرورةٍ فأَبَى واستكبر، وأجاب بأنّي سوف أجيب عن هذا الرأي بالريّ؛ فغاظ السّلطانَ جوابُهُ، وانقطعت المراسلةُ بينهما.

وأقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصّفوف، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البُخَاريّ الحنفي فقيه السُّلطان وإمامُه: «أنتَ تُقاتِلُ عَنْ

دين الله الذي وعد بإظهاره على الأديان، فالقَهُم يومَ الجُمعة بعد الزَّوال، والنَّاسُ يَدعُون لَكَ على المنابر في أقطار الأرض».

فلما أصبحوا يومَ الجمعة ركب السّلطان بجمُوعه وَركب الرّوم فتواقفوا، فلمَّا حان وقتُ الزَّوال نَزَل السُّلطان عن فرسه، وأَحْكَمَ شدّ حزامِهِ؛ وتضَرَّع بالدُّعاء إلى الله تعالى، ثم رِكبَ وفرّق أصحابَه فرَقاً كُلّ فرقةٍ منهم لها كمينٌ؛ ثمّ استقبل بوَجْهِهِ الحربَ.

وحَمَل ملكُ الرُّوم بجمعهِ، فاستطرَدَ المسلمونَ بَيْنَ أيديهم، وَاستَجَرُّوا الرُّوم إلى أن صَار الكَمِينُ مِنْ وَرَائهم؛ ثُمَّ خرج الكمينُ مِنْ خَلفِهم، ورَدّ المسلمون في وُجُوهِهِم؛ فأَنْزَل الله نَصْرَهُ؛ وكُسِرَت الرُّوم، وأُسِرَ المَلِكُ، واستولَى المُسلمون على عَسَاكِرِهِم، وَغَنِموا ما لايُعَدُّ كثرةً ولايُحصى عَدداً وَعُدَّةً.

وقيد المَلِكُ أَسيراً بَيْنَ يَدَي السُّلْطَان، فأقامه بَيْنَ يَدَيهِ. ومعه بازِي وكلبُ صَيْدٍ.

وكانت مع الرُّوم ثلاثةُ آلاف عجلَة تحمل الأثقَالَ والمنجنيقات، وَكان مِنْ جُمْلَتِهَا منجنيقٌ بِثَمَانية أَسْهُمٍ تحمِلُهُ مائة عجلَة؛ ويمدّ فيهِ ألفٌ ومائتا رَجُلٍ، وَزْنُ حَجَرِهِ بالرّطلِ الكبير قنطار؛ وحمل العسكر من أموالهم ما قدَرُوا علَيْهِ.

وسقَطَتْ قِيمَةُ المَتاعِ والسّلاحِ والكراع، حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسُدس دينارٍ؛ ولم يسلَمْ مِنْ عَسِكَرِ الرُّوم إلا العَسْكَرُ الذي كان مُحاصراً

خلاط، فلما بلَغَتْهُم الكَسرةُ رحَلُوا عن البلد جَافِلين؛ فاتبعَهُم المُسلمونَ وتخطَّفُوا أطرَافَهم، فلم يُلْوِ أَوَّلُهم على آخِرِهِمْ.

فَمِنْ عَجيبِ الاتفاق ما حُكي: أنَّه كان لِسَعْد الدّولة كوهرائين مملوك أهداهُ لِنِظام الملك، فَرَدَّهُ عليه فجعل يُرَغِبُّهُ فيه، فقال نظام المُلك: «وماذا عسى أن يكون من هذَا المملوك يأتِينا بملكِ الرُوم أسيراً»، مستهَزِئاً بِهِ.

ثمّ رَحَل السُّلطَانُ إلى أذربيجَان، والمَلِكُ في قَيْدِهِ، فأَحضرَه السُّلطانُ بين يدَيْه، وسأله عن سَبَبِ خُروجه وتَعْرِيضِهِ نفسَهُ وعسكره لهذا الأمر؛ فذكر أنه لم يُرد إلا حَلَبَ، وكلّما جرى عَلَيَ كان محمود السببَ فيه والباعث عليه، فقال: «اصدقني عما كنتَ عازماً عليه أن لو ظَفِرْتَ بي» فقال: «كنتُ أجعلُك مع الكِلاب في ساجُور».

فقال السلطان: «ما الذي تؤثر أن يُفعل بك؟» فقال: «انظُر عاقِبةَ فَساد نيّتِي واختر لنَفسِك» فرقَّ له قلبُ السُّلطان، فَمَنَّ عليه، وأطْلَقَهُ، وأكْرَمَهُ، وخَلَع عليه بعد أن شَرَطَ علَيْهِ أنْ لا يَتعَرَّض لشيءٍ من بلاد الاسلام، وأن يُطلق أسرى المسلمين كلهم، وسَيَّرَهُ إلى بلادِهِ، وسَيَّر مَعَهُ قِطْعةً من العسكر توصله.

فلمّا انصرف ديوجَانس إلى قسطنطينية خلعوه من المُلك، ولم يَتمَّ له ماأراد. وقيل: إنَّه كحل، ومات بعد مدّة. ولَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ أُسِر للرُّوم ملِكٌ في الإسلام قبل هذا[1].

١ ـ جمعت أخبار هذه المعركة الحاسمة من مختلف المصادر عربية وغير عربية، ومن ثم قمت=

وأمَّا محمُود بن نصر بن صالح فإنَّه سار بعسكره بَعْدَ رحيل السّلطان عن حلب، ومعه بنو كلاب والسّليماني، في شعبان من هذه السّنة، فنزلوا بالقرب من بَعلبكّ قاصدين دمشق وبلادها ـ وبها يومئذ ابن منزو الكتاميّ ـ حسب ماتقدّم السلطانُ إليه، وأقام محمود ليتبينّ مايفعل.

وكان عمُّه عطيّة بنُ صالح قد صارَ مع الرُّوم مستنجداً بهم على ابن أخيه محمود؛ وبعد أن قصد المصريّين فلم يحصل على شيءٍ منهم. فخرج عطيَّة مع النحت دوقس أنطاكية وعسكر الرُّوم؛ فهجموا معهُ مَعرَّة مصرين وأحْرَقُوا بعضَها، وقَتَلوا من قَدرُوا عليه.

وبلغ الخبر محموداً وهو في أرض بعلبكّ فعاد إلى حلب، وسار السُلَيْماني ليَلْحَقَ بالسُّلطان ألب أرسلان؛ واتصلت غاراتُ الرّوم على الشَّام، فاستنجد محمود «بقرلُو التركيّ» ومن معه من الأمراء بفلسطِين، وهم: ابن أخي الملك ابن خان، وأتسز بن أوق[1] وإخوته. وكانوا أوّل من طلع من التّرك إلى بلاد فلسطين، وفتحوها، وأقاموا بها فنزلوا إلى محمود مُنْجدينَ له، وأَقَاموا إلى أن تفرّق عسكر الرُّوم.

ودخل عطيّة عمّ محمود إلى قُسْطَنْطِينّية، فسَقَطَ مِنْ سَطْح كان نائماً

= بدراستها بموضوعية وتفصيل. انظر كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٤٠ ـ ١٥١.

١ ـ لأتسز بن أوق ترجمة في المقفى للمقريزي كنت قد نشرتها في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٥ ـ ٢٦٨.

عليه وهو سكران؛ فماتَ سنة أربع وستّين ـ وسار محمود إلى الرّحبة فأخذها ـ وحُمل إلى حلب ودُفِنَ بها غربيّ باب الجنان، في مشهد أمه طَرود قبلي بُستان النّقْرة، وصَلى عَلَيْه ابنُ أخيه محمود. ثمَّ عاد الأتراك بعد أن حَمل إليهم محمود مالاً وخيلاً.

وفي سنة أربع وستِّين وأربعمائة، تغيَّرت أخلاق محمود بعد رحيل السّلطان، وتنكّر لأصحابه؛ وتَغَيّر على وزيره أبي بِشْر النَّصراني؛ وكان هو الذي ساعده بماله حتى ملك حَلَب، واستجذب العربَ إليه، وكان القائد أبو الحسن بن أبي الثريا ـ الذي كان وزير عطيّة ـ قد سَعَى به ليليَ وزارة محمود، وطالبه بمالٍ جليلٍ.

وكان محمود قد رغب في جمع المال، وَغَلَب عَلَيْهِ حُبُّ الدنيا فذكر له أبو بشر أنه عاجز عن أداء ماطُولِبَ به، وأنّه ممَّا لاتَصِلُ يده إليه ولا إلى بعضه. فأمر محمود بقَتْلِ وَلَدٍ كان لأبي بشرٍ وبقتْل أخيه؛ فقُتِلا وقُطع رأساهما، وعلّقا في عُنُقِهِ؛ فسُمِعَ أبو بشرٍ وهُو يقولُ:

وَيْـحَ دَهـرِي مَـا أمـرَّه مـا وفـى خيـرٌ بشـرّه

وحلف أبو بشر أنه بعدما فعله بابنه وأخيهِ لايظهر له شيئاً من ماله. وقال: كُلّ مَنْ عِنده شيءٌ مودَعٌ فهو في حلّ مِنْه وسَعة.

وندم محمود على مافَعَلَ، وأراد الرّجوع له؛ وأرسل إليه شافِع ابن الصُّوفي أن يقرّر عليه شيئاً ويطلقَهُ فامتنع.

واتَّفَق أنّ محموداً اصطبحَ، وقُدّم إليه طَعامٌ بعد سكره، فأنْفَذَ منه لأبي بشر مع فَرَّاشِه؛ فقامَ قائماً وقبَّل الأرضَ، وشكر وَدَعا. فعرفَ ابن أَبي الثّريا، فركب، وَلَقِيَ الفَرَّاشَ وَدَفَعَ إليه مائة دينار؛ وسأله أن يقول لمحمود: «إنَّ هذا شيخٌ خرفٌ لأنه لم يَقْبَلْ طعامَ مَوْلانا، وقال: كافأه الله وعجّل عَلَيْهِ». ففعل الفرّاشُ ذلك.

ودخل ابن أبي الثّريا عقيبة على محمُود؛ وجاراه في حديثٍ لا يتعلّق بأبي بشر فلم يُقبِلْ عَلَيْهِ، ووجده مملوء القَلْب غَيْظاً من جَوَاب الفرّاش. فقال ابن أبي الثّريا: «الله لا يُشغِل لمولانا خاطراً، فما أراه منبسطاً في مجلسه ولامُصغياً إلى المملوك». فحدّثَهُ بما قال الفرّاش، فقال ياMولانا: «لم تزل إليه محسناً وَيُقابِلُكَ بالإساءة فكيف يكونُ بعدما جَرى عليه وعلى ابنه وأخيه ماجرى؟ وأنا أدري أنك تريد ماله؛ وقد تكرّر قولُه أنَّه لايُعطيك شيئاً». قال محمود: «هذا سَيْفي وَخاتمي، خُذْهما وامضِ إليه فان لم يقرّ بشيءٍ فاقتُلْهُ».

فقام ابن أبي الثُّرَيَّا مِنْ عِنْدِه بذلك، واشتغل محمود بالشرب فلها عنه؛ وأحضر ابنُ أبي الثريا أبا بشر فلم يُطالبه بمالٍ بل قال له: «ما زلتَ تتجلّدُ حتّى صرتَ إلى هذهِ الحال». فقال: «ياقائدَ السُّوء قد علمتُ أنّ هذا كلّه مِنْ سَعْيك؛ والأجَلُ لامَرَدّ له، وهذا موتُ الشّهَدَاء؛ ولكنْ استعِدّ لِرجْلِكَ بِحَبْلٍ، فستموتُ مِيتَةَ الكِلابِ، وتُجَرُّ جِيفَتُكَ إلى الخَنْدق».

وقُتل أبو بشر، ورُمي وَسْط بِئرِ بُستان القَصْر. وصَعد الوزير أبو نَصْر بن النحَاس ثاني يَوْم قَتْل أبي بشْر إلى خدمة محمود، فقال له سرّاً:

«تمضي إلى أبي بشر لتَقْرير ما عليه، ويُطْلَق». فقالَ: «يامَوْلانا أوَما قَدْ قَتَلْتَهُ». ؟ فأطْرَقَ محمود ساعَة وقال: «تَمَّت عَلَيَّ وَعَليْهِ الحيلةُ، وَيَجِبُ يا أبا نَصْر أَنْ تَكْتُمَ هذا الأمْر».

قال أبو نصر: « فما حَدَّثْتُ بِهِ إلا بَعْد مَوْت محمود». واستقلّ ابن أبي الثريا بوزارة محمود.

وأما سديدُ الملك أبو الحسن بن مُنْقِذ فَإِنَّهُ استَشْعَرَ مِنْ تاج الملوك أن يَقْبِضَهُ ـ وكان أخاهُ من الرّضاعة ـ فاجتمع بإسْبَاسَلار[1] أبي حرب ـ المعرُوف، بخريبة الفافا ـ وكان صاحب سِرّ محمود وَنَدِيمه، وكان لابن منقذ إليه إحسانٌ كثيرٌ وصنائع جَمَّةٌ؛ فقال له: «قد استشعَرْتُ مِنْ تاج المُلْوكِ فَانظُر ماتعمله معي». فقال: «تُكَلّفُني أنْ يقول الأمير أُريدُ أَقْبِضُ على فُلانٍ فأخبرك بِذلِك؛ لا والله، ولكن أنا أُنفِذُ إليك مَعَ عَجُوزٍ عِنْدي أَلْفَيْ دينار؛ فإذا نَفَذَتْ طَلَبْتُها منكَ فشأنك وَنفسك».

فبقِيَتْ تلك الدّنانير عندَهُ مُدَّةً ثُمَّ نَفَّذَ العجوزَ يَطْلُبُها، وكان قد أصلح حاله للسَّفر، فدفع إليها الدّنانير، ورَكِبَ مِنْ يومه، وخرج من حلب إلى كفر طَاب فاستصحَب منها ماأراد.

وسَيَّر حُسَيْنْ بن كامِل بن الدوخَ إلى سديد المُلك بن مُنْقِذ يسأله الاجتماع به فاجتمعا؛ فقال له حسين: «ايش رَأيك في الدُّخول إلى حلب؟»

---

١ ـ الاسباسلار أو الاسفهلار فارسية تعني القائد.

فقال: «ماأقولُ لك شيئاً لأنّ لك مالا عظيماً، فإنْ أَشرْتُ عليكَ بِتَرْكه كُنْتُ مَلُوماً عِنْدَك، ولكنّي أقولُ لكَ ماأعملُ، وأنتَ ترى رأيك. والله لانَظَرْتُ محموداً أبداً»!.

وسار إلى طرابلس فكتب محمود إلى ابن عمار يأمُرهُ بالقَبْضِ عَلَيْهِ، ويَبْذُل له ثلاثة آلاف دِرْهمٍ ورفنية فلم يظفر بِهِ.

وسار ابن منقذ حتى وصل إلى طرابلس في سنة خمس وستّين، فلقي ابنَ عَمَّار وأخاهُ، فكاتبهما محمودٌ فتنكّرا له.

وعزم ابن مُنْقذٍ على الطلُوع إلى مصر، فاتفق مَوْت أمين الدَّولة ابن عمَّار فشدّ ابن مُنقذ مِنْ جلال الملك علي بن عمار وعَاضَدَهُ بمَماليكهِ ومن طَلَع مَعَه من أهل كفرطاب؛ فأخرجوا أخا أمين الدَّولة؛ وتولّى جلال الملك؛ وعظم محلّ ابن مُنْقذ عندَهُ حتى كان حكمه في طَرَابلس مثله. وكاتَبَهُ محمود بتطييب قَلْبه، فلم يثق به، ولم يَعُدْ إلى حلب حتّى مات.

وقيل: إنّ ابن النحاس، كاتِب محمود، كَتَب إليه كتاباً من نفسه يضْمَنُ له فيه الرِّضا عن محمود، وكتب في آخره: «إنّ شاء الله» وشَدَّدَ النّون من «إنّ»؛ ففطن ابنُ منقذ بأنه أراد قوله تعالى: ﴿إنَّ المَلأ يَأْتَمِرُون بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1] فكتَبَ جوابَهُ: «وكتب إنّا الخادم» وكسر الألف، وشدّد النُّونَ من «إنّا»؛ ففطن ابنُ النَّحّاس بأنّه أراد قوله تعالى: ﴿إنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبداً ما داموا فِيها﴾[2].

١ ـ سورة القصص ـ الآية: ٢٠.
٢ ـ سورة المائدة ـ الآية: ٢٣.

وأما محمود فإنه لما يئس من عَوْد أبي الحسن بن مُنْقِذ قَبَض على أملاكه جميعها. وأمّا حُسَيْنُ بن الدّوخ فانه دَخَل إلى حلب فقتله محمود ولم يُمْهلهُ.

وكان محمود قد خَطَر له أن يُوَلي في كُلّ قَلْعَةٍ من قِلاعه رجلاً من أَهل حلب، وتكون ذريته وأهله تحت يده، وطلب من الوزير ابن أبي الثريا أن يختار له من يُوليه عَزاز، فقال: «لا أجِدُ لذلك إلا أبا محمد بن سنَان الخفاجيّ». وكان أبو نصر ابن النحاس حاضراً، فصوّب الرأي فيهِ.

فأحضره محمود وَوَلاهُ بعد أن امتنع ثُمَّ أجاب.

ثُمّ إنّه استوحش عليه فاستدعاه محمود عدّة دفعات إلى حلب، فتعلل عليه ولم يحضر، وكان أبو نصر بن النحّاس صَديقَه وكان كاتِب محمود؛ فكان يكتب إليه ويحذّره.

فأمرَهُ في بعض الأيّام أَنْ يكتب إليه كِتاباً يتلطَّفه ويأمُرُهُ بالحضور والكتاب عَنْ أَبي نصر؛ لأنّه كان يعلم مابينهما من المودّة؛ وأَمَرَهُ أن يضمن له عَنْ محمود كلّ خير؛ وأَمَرَهُ أَنْ يكتب الكِتاب بين يديه، ولم يقع له أن يُلْغز فيه شيئاً.

قال أبو نصر: «فما قدرتُ أن أعملَ فيه سوى أن شدَدتُ النُّون من (إن شاء الله)؛ وتناهيتُ في لفظ الكِتاب، وقُلتُ: لو عرفت ضدّ ما كتبتُ لما كنتُ بصورة من يغُشُّه». وأخذ محمود الكتاب وَوَقَفَ عليه، وكرّر فيه نظرهُ فرآه كافياً شافياً، فأَمَرَ بِالصَاقِهِ وعُنْوانه؛ وَدَفَعه لبعض أصحابه وَوَصَّاهُ أن يقول: «هذا كتاب دفعه إليَّ أبو نصر بِدَارِهِ». وسار الفرَّاش.

فلما وقف أبو محمد عليه كّرر فيه نظره، وبقي متعجّباً منه، ويقول: «أخي أبو نصر أعطاك الكتاب بِدارِه أم بالديوان أم بالقلعة قدّام الأمير؟» فقال: «بَلْ بِدارِه» فقال: «ماهذا صحيح!» فحلف له فلم يُصَدِقْه إلى أن قال: «وقعتُ على المعنى». وكتب جوابه يذكر فيه شُكْر أَبي نصر، وأنّه مهتمٌّ بالحُضور عندد زوال حُمَّى جسمه. ثم إنّه كاتَبَ أَبا نصرٍ خفيَةً، وأعلمه أنه عَثَر على المعنى في تشديد «إنّ».

وقد ذكرنا أنه جرى له ذلك مع ابن مُنْقذٍ فيحتمل أن يكون وقع ذلك معهما جميعاً.

ثم إنّ محموداً أفكر وقال: «ما أعرف قتله إلا منك»؛ فقال: «كيف؟» قال: «تمضي إليه اليوم ومعك ثلاثون فارساً يقفون لك في بعض الطّريق، وتقدم منك إليه من يُعلمهُ بوصُولكَ ومعَك في رانِكَ هذه الخشكنانة[1] ومعك أنت خشكنَان غيره؛ فإذا فعلتَ ذلك لابُدّ أن يَنزل ويلتقيك من قَلعة عَزَاز، ويَعرض عليك الصُعُود والنُّزول عنده، فقل له: أنا مُوجل ومُسْتَحْلَفٌ أن لاأنزل على الأرض، ولا آكل لَكَ طَعَاماً؛ وطَوِّل الحديث مَعَهُ إلى أن تَعْلَم أنه قد جاع؛ ثم اذكر أنتَ الجوعَ واخرج لك خشكنانَة من الذي معك؛ ثم أخرج المسمومَة فادفعْها إليه، وكُل أنتَ التي لك، وتَحدَّثْ معه ويكُونُ حديثكما على فرَسَيْكما وأنتما بِمَعْزِلٍ من أصحابكما، وطَوّلْ معه الحديث ولاتبرَحْ حتّى يستَوْفي أكلَها، وعلامَةُ صِدقكَ مَوْتُه؛ وإلا ضَرَبْتُ عُنقك».

١ ـ من أنواع الخبز يصنع من الدقيق والزبد والفستق والسكر أو سواه.

قال أبو نصر بن النحاس: فنزل عَلَيَّ مِنْ ذلك أمرٌ تمنيتُ الموتَ مَعه، فخرجتُ وأنا على غايةٍ من الجَزَع والتأسُّف كيف قضى الله ذلك على يَدِي، وجَعَلْتُ دَفْعَةً أُعوِّلُ على الهرب؛ ثُمّ إنّي أفكّر في أولادي وأهلي، وإنّني إنْ فعلتُ ذلك أهلكتُهم لِعلْمي بظُلْم صاحبي؛ ثُمَّ إنَّ الفرسان مُتَوَكّلَةٌ بي.

فلمّا اجتمعتُ بِهِ فَعلتُ ماذكره لي، ثُمَّ وَدَّعْتُهُ عند استيفاء أكل الخشكنانة، ورجَعْتُ مِنْ مَوضِعي مُبادِراً؛ وأَبْعَدْتُ من أرض عَزاز، وَرَكِبْتُ جنيباً كان معي، وَجَدَّيتُ في السَّيرِ خوفاً مِنَ الطَّلَبِ.

وصَعد أبو محمد إلى المركز، فوجَدَ مغصاً شديداً ورِعْدةً؛ ثُمَّ قال: «قَتَلَني أَخي أَبُو نَصرٍ اطلبوهُ». فركبتِ الخيلُ خلفَه فلم تلحقْهُ.

وَوَصَل أبو نصرٍ فاجتمع بِمحمود، فعرّفه ماجرى. فلمّا كان من ذلك الغَد وصل رسول من عَزَاز يستدعي الشَّريف النقيبَ أبا المعالي الفَضْل بن مُوسى وابنه سنان بن أبي محمّد الخفاجيّ، وجماعةً من أهله. وذكر الرسول أنه في السِّياق، فمنَع محمودٌ وَلَدَهُ من الخُروج؛ وَأَمَر الشّريفَ أن يتولّى القلعَة إلى أن يُنْفِذَ إليها والياً؛ فولاها بعد خمسة أيام واحِداً مِن أصحابه.

وتوفي أبو محمد في قلعة عزاز في سنة سِتٍّ وستّين وأربعمائة؛ وقيل سَنة أربع وستّين ـ وهو الصّحيحُ ـ وَحُمِلَ إلى حلب؛ وصَلَّى عليه الأميرُ محمودُ بن صالح؛ وقيل: إنه تُوفي سنة ثلاثٍ وستّين ـ والأوّل أصحُّ ـ وَلَمَّا أحسَّ بالموت عَمِل:

خَفْ مَنْ أَمِنْتَ وْلا تَرْكَن إلى أَحَدٍ فَمَا نَصَحْتُك إلا بَعْدَ تَجْرِيبِ

إنْ كَانَتِ التُّرْكُ فِيهِمْ غَيْرَ وَافيةٍ   فَمَا تزيدُ على غَدْرِ الأعَارِيبِ
تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا اللُّؤْمِ بَيْنَهُمُ   وَكَادَ أَن يَدرُسُوها في المَحَارِيبِ

وقيل: إنَّه كان كتبها أبو محمد من عَزاز إلى سديد الملك بن مُنْقذ، ويذكر له في كتابِهِ أَحْوالَهُ ولِجاجَ مَحْمُود في طلبه، وتَغَيُّرَ نِيَّتِهِ فِيهِ، وخوفه من غائلته وظُلْمه.

وفي سنة خمس وستِّين وأربعمائة ـ وقيل في شوّال سنة أربع وستِّين ـ وَفَدَ أبو الفِتْيان بن حَيُّوس على محمود بن نصر بن صالح، وكان سديدُ المُلك بن مُنْقذ اجتَمَع به بطرابلس، ورأى نُفُور بني عَمَّار منه لأجْل مَيْله إلى الدّولة المصريّة، فأشار عليه أن يقصدَ محموداً بحلب، فقصدهُ صُحْبَةَ نَصْر بن سَديد الملك بن مُنْقذ، فأحضره محمود.

وكان قد جلس في مجلسه وأمرَ باحْضَار الشَّراب فَشَرب أقداحاً، ثم قال: «ارفعوا الخَمْرَ فَإنَّ ابنَ حيُّوس يحضرني مُمتَدِحاً، وفي نفسي أن أَهبَهُ جائزةً سنيّةً فإنْ كانَ الشَّرَابُ في مجلسي قيل وَهبَهُ وهو سكران» فرُفِعَ. وحَضَر الأميرُ أبو الفِتْيان فأنشدهُ قصيدتَهُ الميميّةَ التي أَوَّلُها:

قِفُوا في القِلَى حَيْثُ انْتَهَيتُم تَذَمُّماً   وَلا تَقْتَفُوا مَنْ جَارَ لَمَّا تَحَكَّمَا
أَرَى كُلَّ مُعْوجِّ المَوَدَّة يُصْطَفَى   لَدَيْكُمْ، وَيَلْقَى حَتْفَهُ مَنْ تَقَوَّمَا

وهي قصية طويلة، أَحْسَنَ فيها كُلَّ الإحسان، وذكر إشارَة ابن منقذِ عليه بقَصدِهِ فقال:

سَـأشْكُـرُ رَأْيـاً مُنْقِـذِيـاً أَحَلَّنِي ذَرَاكَ فقد أَوْلى جَمِيلا وَأَنْعَما[1]

فوهب له ألف دينارٍ ذهباً في صِينيَّة فِضَّة، وجعلها له رسماً عليه في كل سنةٍ.

واحتفر الخندق بحلب فجاءه أبو الفِتْيان فقال: «هذِه أعمال يَعْجِزُ عنها كِسْرَى وَذُو الأَكْتاف». فقال محمود: «ما كان الأميرُأَبُو الحْسَن ينفذُك حتّى سألته ذلك»[2].

واجتمع ببابِ محمود بن نصر جماعةٌ من الشُّعراء، فلم تصل إلى واحدٍ منهم جائزةٌ غير ابن حيّوس، فكَتَبَ إليه ابنُ الدُّوَيدَةِ، المعروف بالقاق:

عَلى بَابِكَ المَيْمُونِ مِنا عِصَابَةٌ مَفَالِيسُ فَانْظُرْ في أُمورِ المْفَالِيسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنْكَ العِصَابَةُ كُلُّها بِعُشْرِ الذِي أعطيتَه لابنِ حَيُّوسِ
وَمَـا بَيْنَنَا هـذا التَّفَـاوُتُ كُلُّهُ وَلكِنْ سَعِيدٌ لا يُقَاسُ بِمَنْحُوسِ

فقال محمودُ: «واللهِ لَوْ قَالَ بِمثلِ الّذي أعطيتَهُ لأعطيتُهم مِثْله». ثُمَّ أَمَرَ لهم بالجائزة مائة دينار أو أكثر.

وقَصَد الرُّومُ ناحِيَة عَزاز في جموعهم، فخرج محمُود إليهم في عِدَّةٍ قليلة تناهز ألف فَارس، فاندفع الرُّوم بَيْنَ أَيديهم، وقصدوا أنطاكية واحتَمَوْا بها في سنة أربعٍ وستِّين. وافتتح محمُود قلعة السِّن[3] في تاسع شهر ربيع الآخر سنة ستّ وستِّين.

---

١ ـ ديوان ابن حيوس ج٢ ص٥٩٨ ـ ٦٠٦.

٢ ـ الجملة مطموسة بالأصل ولعل هذه القراءة هي الصحيحة.

٣ ـ قلعة قرب سميساط.

وَمَرِضَ محمودُ بن نَصْر بن صَالح بحلب في جُمادى الأولى من سنة سبع وستِّين وأربعمائة. وحدثت بهِ قُروح في المَعَا كانت سَبَبَ مَنِيَّتِهِ.

وكان محمود في أول مُلْكِهِ حسنَ الأخلاق، لَيِّنَ الجانب، كريم النفس، عفيفاً عن الفُروج والأموال، ثم تنكّر وزَادَ عليه حُبُّ الدّنيا، وَجَمع المالَ فلحقهُ من البُخْل ما لايُوصَف.

[إمارة نصر بن محمود][1]

وأوصى بحلب لابنه شَبيب ـ وكان أَصْغَرَ أَوْلادِه ـ فلم يُنفذ أصحابُه وصِيَّتَهُ؛ وَمَلّكوا حلبَ وَلَدَه الأميرَ نَصْرَ بنَ محمود؛ وجدُّه لأمِّه الملك العزيز بن جَلال الدّولة بن بويه؛ وأُحصي ماوُجد في خزائن محمود فكانت قيمتُه من العَيْنِ والمَتَاعِ والآلات، والثِّيابِ، والمراكب ألف ألف وخمسمائة ألف دينار.

وأَمِنَ الناس في أيام نَصْر. وكانت سيرتُه أصلَح من سِيرَة أبيه، وأحسن إلى أهلِ حَلَب؛ وأطلق مَنْ كان في اعتقالِ أبيهِ منْ أحْدَاثِهم، وعَمَّ النَّاسَ بجُوده، وكان بَحراً للمكارم إلا أَنَّهُ كان لايستطيع أن يَرى أحداً يأكُل طَعَامَه مع كرمه وجُوده.

ودخل عليه أبو الفِتْيَان بن حَيُّوس حين وَلِيَ حَلَب فأنشَدهُ القصيدةَ التي أوَّلُها:

كَفَى الدِّينَ عِزًّا ما قَضَاهُ لَكَ الدَّهْرُ فَمَنْ كانَ ذَا نَذْرٍ فَقَدْ وَجَبَ النَّذْرُ

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

اعتذر فيها عن تَأَخُّرِهِ عن سَلَفِهِ فقال:

تَباعَدْتُ عنكم حرفةً لازَهَـادَةً ... وسِرْتُ إليكُم حينَ مَسَّني الضرُّ
فجادَ ابنُ نَصْرٍ لي بِأَلفٍ تَصَرَّمَتْ ... وَإِنّي لأرْجُو أَنْ سَيُخْلِفُها نَصْرُ[1]

فأطْلَقَ له نصرٌ ألفَ دينارٍ، وقال: «وَحَيَاتي، لو قال سيُضْعِفُهَا نَصْرٌ لأضعَفْتُهَا». ولم يزل يُواصل ابنَ حيوس بالحباء وجزيل العطاء، وأنشده ابن حَيُّوس يَوْماً بَديهاً وقد خَرَج ينظر المَدَّ في قُوَيْق:

أَرَى الأَرْضَ تُثْني بالنَّباتِ عَلَى الحَيَا ... ولَوْ تَسْتَطيعُ النُّطْقَ خَصَّتْكَ بِالحَمْدِ
بك افترَّتِ الأَيَّام عَنْ نَاجِذِ الغِنَى ... وَغَرَّدَ طَيْرُ العَيْشِ في الزَّمَن الرَّغْدِ
عَهِدْنا مُدُودَ الأرْض تأتي بُحُورها ... ولم نَرَ بَحْراً قطُّ سَارَ إلى مَدِّ[2]

فأعطاه صلةً جزيلةً.

وجَهّز نصرٌ عساكرَه إلى منبج صحبة أحمد شاه[3]، وكانت في أيدي الروم؛ فحصرها مدةً؛ وأيس واليها من نَجدةٍ تأتيهِ، فسلَّمَها في صفر من سنة ثَمان وستِّين وأربعمائة، فقال في ذلك ابنُ حيّوس من قصيدةٍ:

وطَريـدَة للدَّهـرِ أَنْتَ رَدَدْتَهـا ... قَسْراً فَكُنْتَ السَّيْفَ يَقْطَعُ مُغْمَدا[4]

وَوَصل في سنة ثمان وستِّين وأربعمائة أتسز بن أوق التركي إلى أعمال

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٤٢ ـ ٢٤٩ .
٢ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص١٩٧ .
٣ ـ لأحمد شاه ترجمة في بغية الطلب نشرتها في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٥١ ـ ٢٥٣ .
٤ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٠٥ .

حلب القبلية؛ ونزل العَاصي على الجَلالي؛ وجفل أهلُ الشّام بين يديه ـ وكان قد سمّى نفسهُ الملك المعظَّم ـ فنَهَبَ كُلَّ ماقدر عليه، ومَلَّكَ رَفَنية، وسلّمها إلى أخيه جاولي، وتردَّدَتْ سراياه في جميع الشّام، وتمادى فساده.

وتَردَّدت الرُّسُلُ بينه وبين نصر بن محمود صاحب حلب، فلم يستقرَّ بينهما أمر، وعاد إلى دمشق فتسلَّمها[1].

واعتمد جَاولي مُدَّة مقَامه برفنية إساءة المجاورة؛ وشَنّ الغاراتِ والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب؛ فجهزّ إليه نَصر بن محمود عسكر حلب ومقدّمهم أحمد شاه التُّركي، وذكر أنه شيبانيّ فسار إليه، والتقَوا بأَرض حماة، فكسره جَاولي وغنم عسكره.

وعاد أحمد شاه ونزل مَذْكين[2] وجمع إليه مَن سَلِم من عسكره، فلما اجتمعوا عوّلوا على العوة إلى حلب، فقال لهم أحمد شاه: «ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة، فإن راجعتُم الحرب وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظَّفَر، وإنْ أبيتُم فأنا أسِيرُ إلى الفُرَات وأَستدعِي أهلي، فما لي وجه ألقى به نصر بن محمود؛ وإنما أعطى وَمَنح وأكرم لمثل هذا الموقف».

فأجمعوا أمرهم على معاوَدَة الحرب فَأَسْرى من موضعه إلى عسكر جَاولي، وكبسه، فاستثار منهم؛ ونهب عسكره، وأسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائة

١ ـ مر سقوط دمشق لأتسز بن أوق بعدة مراحل، وقد آذى المدينة كثيرا وأنهكها. انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٥٧ ـ ١٦٥ .

٢ ـ لم أقف لهذا الموقع على ذكر في المصادر المتوفرة، ويبدو أنه في أحواز رفنية.

نفس؛ وسيّرهم في الوثاق إلى حلب مُشاةً؛ وهرب جاولي إلى رفنية؛ وسار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق.

وكان نصر حين ملك حلب واستقر بها أَمر بقتل وزير أبيه أبي الحسن عليّ بن أبي الثريا القائد، صاحب الدّار التي هي المدرسة العصرونية؛ فقُتِل وكان راكباً تحت القلعة، وهو في حَشَمِهِ على بغلتهِ، وعُمل في رجله حَبْلٌ وجُذِبَت جُثَّتُه من تحت القلعة إلى باب أنطاكية، جزاء على مافعله بأبي بشر، وصَدَقَ فألُ أبي بشرٍ فيه ـ على ما ذكرناه ـ وكان نصر قد اتّهمه بأنه أشار على أبيه أن يوليَ أخاه الأصغر شبيباً، وكذلك قتَلَ نصرٌ ناجيةَ بن عليّ أحدَ ولاة أبيه.

واستوزر نصرٌ أبا نصر محمد بن الحسن التميميّ المعروف بابن النحّاس الحلبيّ، وبقي وزيراً بعده لسابق أخيه إلى أن اعتقله، ثمّ أطلق. وكان أبو نصر كاتباً لمحمود قبل وِزَارَتِهِ.

وفي يوم عيد الفِطْر من سنة ثمان وستّين وأربعمائة، عَيَّد نصر بن محمود، وهو في أحسن زِيّ، وكان الزمان ربيعاً والأرض نضرة؛ واحتفل الناس في عيدهم وتجمّلوا بأفخر ملابسهم؛ ودخل عليه ابنُ حيّوس فأنشده قصيدةً منها:

ضَفَتْ نِعْمَتَانِ خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا حَدِيثُهما حَتّى القِيَامَةِ يُؤْثَرُ[1]

---

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٦٩ .

وَقَبَضَ نَصْرٌ على الأمير أحمد شاه التُركّي، واعتقله في القلعة؛ وجَلَس فَشَرب إلى العَصر؛ وحَمَلَه السُّكْرُ على الخروج إلى الأتراك، وسكناهم في الحاضر، وأراد أن ينهبهم، وحَمَل عليهم، فرماه تركيّ بسهم في حلقه فقتله، وتبعه أصحابه فوجدوه قد مات؛ وذلك يوم الأحد مستهلّ شوال من سنة ثمان وستّين وأربعمائة. وكان نصر أهوج[1].

١ ـ امارة حلب ص١٥١ .

[إمارة سابق بن محمود][1]

وزحفتِ الأتراك إلى البلد وكان والي القلعة رجلاً يقال له وَرْد، وعنده الأمير سديد المُلك أبو الحسن بن مُنقذ، وكان قد عاد من طرابلس إلى حلب في أيام نَصر؛ وعندهما جماعة من الخواصّ؛ فلما علموا بذلك استدعَوْا أخاه سابقَ بن محمود[2].

وحمل من العَقَبة[3]، وكان ساكناً بها في الدّار التي تُنسب إلى عزيز الدَّولة فاتك، ورُفِع إلى القلعة بحَبْل مِن السُّور، وهو سكران، ونادَوْا بشِعَاره، وأَطاعه الأجنَادُ، وأشاروا عليه باطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال، وخلع عليه.

فنزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكَّن النائرة[4]، وأَخْمَد الفتنة،

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

٢ ـ لسابق ترجمة في بغية الطلب سلف لي نشرها في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٣٩٧ ـ ٤٠٤ .

٣ ـ يقال لها عقبة بني المنذر، وكانت من أشرف نواحي حلب وأفضلها. أحياء حلب وأسواقها للاسدي ص٢٨٠ .

٤ ـ النائرة: الفتنة.

واستقرَّت قاعِدَةُ سابق؛ ولُقِّب عزّ الملك أبو الفضائل، ودخل عليه ابن حَيُّوس فأنشده قصيدة أولها:

عَلَيَّ لَها أَنْ أَحْفَظَ الْعَهْدَ والودّا وَإنْ لَمْ يُفِدْ إلا القَطِيعَةَ والصَدّا[1]

فأطلَق له سابق ألف دينار، وجعل له في كل شهر ثلاثين ديناراً، وكان سابق من متخلِّفي بني مرداس.

ولما مَلَكَ سابقٌ اجتمعتْ بنو كلابٍ إلى أخيه وَثّاب؛ وعَوّلُوا على معونته عليه وأخذ حلب له من أخيه سابق وانضاف إلى وثّاب أخوه شَبِيب بن محمود، ومبارك بن شبل ابن خالهما، وعامّة بني كلاب.

فلمَّا تحقّق سابقٌ ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك، وكان في ألف فارس وشاوره، فأنفذ أحمد شاه إلى رجل من الأتراك يعرف بابن دملاج ـ واسمه محمّد بن دملاج ـ في يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة، من سنة ثمانٍ وستّين.

وتَحَالَفُوا وخَرَجُوا إلى وثّاب وبني كلاب، في يوم الخميس مستهلّ ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة، وكان بنو كلاب في جمعٍ عظيمٍ ماجتمعوا قط في مثله. يُقال إنَّهم يُقاربون سبعين ألف فارس ورَاجلٍ، وكانوا قد عَاثُوا في بلد حلب، وكانوا نزولاً بقنّسرين، فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلّفوا حلَلَهم وكلّ ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم.

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص١٤٤ .

فغنم أحمد شاه وأصحابُه ومحمَّد بن دملاج وأصحابُه كلّ ماكان لبني كلاب. فيقال: إنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة، وسَبَوْا من حرمهم الحَرَائر جماعة كبيرة، ومن إمائهم أكثر، وكل ما كان في بيوتهم. وعَفَوْا عن قتل عبيدهم المقَاتِلة، وكانوا يزيدون عن عَشرة آلاف عبد مُقاتل فلم يَقْتُلُوا أحداً منهم، وكان الذي غنمه التُّرك من العَرَب في ذلك اليوم ما لا يُحصى كثرةً؛ وأسروا جماعة منهم.

وعاد أحمد شاه بالأسرى إلى حلب فتقدّم سابق بن محمود باطلاقهم، وأنزل أخْتَه زوجَة مبارك بن شبل في دارٍ، وأكرمها لأنّها كانت فيمن أُخِذَ ذلك اليوم.

وبعد هذه الهزيمة بثلاثة عشر يوماً دعا محمد بن دملاج التركي أحمد شاه، فخرج إليه، وكان نازلاً شمالي حلب؛ فلما أكلوا وشربوا قبض محمَّد بن دملاج على أحمد شاه وأسره؛ وكان في نفر قليل فأقام في أسره تسعة أيام.

١ ـ امارة حلب ص١٥٢ ـ ١٥٣ .

[التسلط التركماني][1]

ثمَ إن سابق بن محمود اشترى أحمد شاه من محمَّد بن دملاج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرساً، يوم السَّبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السَّنة.

فعند ذلك سار وثّاب بن محمود ومبارك بن شبل، وحامد بن زُغيب، إلى السّلطان أبي الفتح ملك شاه بن ألب أرسلان؛ وحضروا عنده، وشَكَوْا إليه حالهم، وسألوه أن يعينهم على سابق، ويكشف عنهم مانزل بهم منه.

وأنكر السّلطانُ ذلك وَوَعَدهم بِما طابَتْ به نفوسهم، ووقع لهم باقطاعهم في الشّام؛ وأقطع الشَّام لأخيه تاج الدولة تُتُش، وأمره بالمسير إلى الشَّام في أَوائل سنة سبعين وأربعمائة.

وتقدَّم السّلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي، وصندق التركي، ومحمَّد بن دملاج، وابن طوطو، وابن بريق، وغيرهم، من أمراء التّرك بالكون مع تَاج الدَّوْلة والمسير في خدمته.

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

فسار تاج الدّولة ومعه وثّاب بن محمود، ومبارك بن شبل وحامد بن زُغيب، حتّى وصل إلى ديار بكر، وتواصَلت إليه الأمْدَاد مع المذكورين. وكان أحمد شاه قد حصر أنطاكية مُدَّةً ومعه عسكر حلب واشتدّ الغلاء بها في هذه السَّنة، واستقرّتِ الحالُ على خمسة آلاف دينار مُقاطعةً، فأخذها، ورحل عنها إلى حلب.

ولما قرب تاج الدّولة من الشّام هرب جماعة الأتراك المُقيمين بِحَاضِر حلب مع أحمد شاه إلى حِصْن الجِسْر ـ وكان ابن مُنقِذ جَدَّد عمارته ليضايق به شَيْزَر، ويقطعَ المادّة عنها من بلد الرّوم؛ وأذن له سابق بن محمود في ذلك، فجدّد في هذه السَّنة ـ فتركوا أموالهم وأَهاليهم بهذا الحصنِ، وعادوا إلى خدمتهم بحلب، ولم يأمنوا أهل حلب أن يتركوا حرَمَهم عندهم لما كانوا فَعلُوه بابن خان؛ وتغيَّر الهواء بالجسر عليهم، فهلك عامّتهم بهذا الموضع.

وأما تاج الدولة تُتُش فإنه أقام بالمروج إلى أن وصلته بنو كلاب بالظَّعْن، ونَزَلوا حلب في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

ووصل شرف الدّولة أبو المكارم مُسْلم بن قُريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه، ونزل معه على حلب مُعيناً له، وحصروها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً؛ وكان نزولُه على حلب لثلاث خلون من ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وكان القِتَال عليها مُتّصلاً.

وقُتل أحمد شاه مقدّم الأتراك بحلب بطعنة أصابته في الحرب، وكان هوى شرف الدولة أبي المكارم مع سابق، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوّي

نفسَه، وكان يُنْكِرُ على بني كلاب خلْطَتهم بعسكر التُّرك.

فاستأذن بنو كلابٍ تاجَ الدّولة في رحيل الظعّون فأذِنَ لهم فأَحسّ شرف الدَولة أبو المكارم بتغيّر النيّة فيه، وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق وأهل حلب، فاستأذن تاج الدّولة في الرّحيل، ورحل. وجعل عُبورَ عسكره على بابِ حلب، وباع أصحابهُ أَهل حلب كلّ ماكان في العسكرِ عصبيةً وتقْوِيةً لهم، وقوّى نفوسَهم ونفسَ سابق.

وسار بعد أن قوِيَ أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضّعف الشديد إلى بلاده؛ وأشار عَلَى مُبارك ووثّاب وشَبيب بالاحتِياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب.

ولم يكُ بقي مع تاج الدّولة من بني كلاب غيرهم في نفرٍ يسير، فكاتبهم سابق وتألفهم وقَالَ لهم: «إني إنّما أذبُّ وأُحامي عن بلادكم وعِزّكم، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزالَ مُلْكُ العَرَب وذلّوا» وجرت أمور أوحشتهم من الأتراك؛ فهربوا إلى حلب بعد أن قُتل أصحابُهم قبل الهزيمة وبعدها، وصاروا إلى سابق.

وكتب سابقٌ إلى الأمير أبي زائدة محمد بن زائدة قصيدةً من شعر وزيره أبي نصر بن النَّحاس، يعرّفه ما هو فيه من الضّيق، ويسألُه الإقبالَ عليه والقيامَ بمعونته؛ ويحذّره من التخلّف عنه، فيكون ذلك مسبباً لزوال ملك العرب، ويعتب عَلَيْه في التوقف عنه فيما كان جرى مع أحمد شاه التركيّ، والقصيدةُ هي:

دعوتُ لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ
فلبَّيتَني لَمَّا دَعَوْتُ مُجاوِبَا

وَوَفّيتَ بالعَهْدِ الذي كَانَ بَيْنَنَا
وفاءَ كريمٍ لَمْ يَخُنْ قطُّ صَاحِبَا

وَمَا زِلْتَ فَرّاجاً لِكُلِّ مُلِمَّةٍ
إذا المحرَبُ الصِّنْديد ضَجَّع هَائبا

فَشَمِّرْ لَهَا وَانْهَضْ نُهوضَ مُشَيّعٍ
لَهُ غَمَراتٌ تَسْتَقِلُّ النَّوَائِبا

وَقُلْ لِـ «كِلابٍ»: بَدَّدَ الله شَمْلَكُم
أَوَيْحَكُمُ مَا تَتَّقُونَ الْمُعَايبا!

أَتَسْتَبْدِلونَ الذُّلّ بالعِزِّ مَلْبَساً
وَتُمْسُونَ أَذْنَاباً وكُنْتُمْ ذُوَائِبا

وَمَا زِلْتُم الآسادَ تَفْتَرِسُ الْعِدَى
فَمَا بَالُكُمْ مَع هؤلاء ثَعَالِبا

ثِبُوا وَثْبةً تَشْفي الصُّدورَ مِنَ الصَّدَا
ولا تُخْجِلُوا أَحْسَابَنا والْمَنَاقِبا

وَلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ نُحَكِّمُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ العِدَى فِيهِ القَنا والقَوَاضِبا

أَرَى الثَّغْرَ رُوحاً أَنتُمُ جَسَدٌ لَهُ
إذَا الرُّوحُ زَالَتْ أَصْبَحَ الجِسْمُ عَاطِبا

وَقَدْ ذُدتُ عَنْهُ طَالِباً حِفْظَ عِزِّكُمْ
إباءً ولاقَيْتُ المَنَايَا السَّوَاغِبا
وَهَا أَنا لا أَنْفَكُّ أَبْذُلُ، في حِمَى
حِمَاكم مُجِدًّا، مُهْجَتي والرَّغَائِبا
أَأَدْخَرُ مَالي عَنْكُم وذَخَائِري
إذاً بِتُّ عَنْ طُرْقِ المَكَارِمِ عَازِبا
شَكَرْتُ صَنيعَ «ابن المُسَيِّبِ» إذْ أتى
يَجُرُّ مَغَاوِيراً تَسُدُّ السَّبَاسِبا[1]

وَمِنْهَا:

أَيا راكِبا يَطْوي الفَلاةَ بِجَسْرَةٍ
هَمَلَّعةٍ[2] لُقِّيتَ رُشْدَكَ رَاكِبا
ألا أبْلِغْ «أَبا الرَّيَّان» عَني أَلُوكَةً
تُزيحُ مِنَ الإِيلافِ ما كَانَ وَاجِبا
أَخاً شَخْصُه لا يَبْرَحُ الدَّهرَ حَاضِراً
تُمَثِّلُهُ عَيْني وإن كَانَ غَائِبا
مَتَى تَجْمَع الأَيَّامُ بَيْني وَبَيْنَهُ
أَشُدّ عَلَيْهِ مَا حَيِيتُ الرَّواجِبَا[3]

١ ـ السباسب: المفازات.
٢ ـ الجسر من الابل: العظيم ومؤنثها جسرة، والهملع السريع، ومؤنثها الهملعة.
٣ ـ الرواجب: مفاصل أصول الأصابع.

وَأَهْدِ إلى «شِبْلٍ» سَلامِي وقُلْ لَهُ:

لَكَ الخَيْرُ دَعْ مَا قَدْ تَقَدَّم جَانِبَا
فَتِلْكَ حُقُودُ لَوْ تَكَلَّم صَامِتُ
لَجَاء إليها الدَّهْرُ مِنْهُنَّ تَائِبا
وَقَدْ أَمْكَنَتْكُم فُرْصَةٌ فانْهَضوا لها
عِجَالا وإلا أَعْوَزَ الدرّ جَالِبا
فَإنّي رَأَيْتُ الْمَوْتَ أَجْمَلَ بالْفَتَى
وأَهْوَنَ أَنْ يَلقى الْمُنَايَا مُجَاوِبَا

وكان قد بلغ «سابقاً» أنَّ أميراً من أمراء خراسان يقال له تركمان التّركيّ قد توجَّه مُنجداً لتاج الدَّولة، ومعه عسكر، فأخرَجَ سابقُ منصورَ بن كامل الكلابي ـ أحدَ أمراء بني كلاب ـ من حلَب ليلاً، وأعطاه كتابَه إلى الأمير أبي زائدة، وفيهِ هذه الأبيات؛ ومعه بعض أصحاب سابق ومعهم مالٌ.

فلمّا وقف الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور ونائب سابق، وجَمعُوا ما يزيد عن ألف فارسٍ وخمسمائة راجلٍ من بني نُمَيْر، وقُشَيْر، وكِلابٍ، وعُقَيْلٍ، وكلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدَّولة أبي المكارم ومَشُورَتِهِ.

ووَفد بهم الأميرُ أبو زائدة، وَوَصَلُوا إلى «وادي بُطْنَان». واتّفق وصولُ

المعروف بتركمان التُّركي في ألف فارس من الغُزّ، ومعهُ جملة من العُدَدِ لمُحَاصَرَة حلب ومعونة تُتُش.

وعبر تُرْكمان على طريق الفَايا، فسار الأمير أبو زائدة بِمَنْ مَعَهُ من الجمع؛ ولقوا تركمان في أرض الفايا، فَأَوْقَعُوا به وكَبَسُوا عسكره، وقَتَلُوه، ونَهَبُوا ما كان فيه بأسره وجميعَ ما كان للتجّار الواصلين في صُحْبَتِهِ، واتّصَلَ هذا الخَبَرُ بِتَاج الدَّوْلَة وهو مُنَازِلٌ حَلَبَ، فَرَحَل عنها إلى الفُرات، وتوجّه نحو ديار بكر وشتى بها.

ثم عاد وقطع الفُراتَ، وتَسَلَّم مَنَبج وحِصْنَ الفايا وحِصْنِ الدَّير، وشَحَنَها بالرّجال، وسارَ بِالعَسْكَر إلى حِصْن بزاعَا،وكان صاحبه شِبل بن جَامِع؛ وبعض رجال هذا الحصن ممّن كانتْ له النكاية العظيمة في عسكر تُركمان، فقاتله تاج الدَّولة، وفَتَحه بالسَّيْف، وقتَل كافَّةَ مَنْ كان فيه، ونَهَبَه وشَحَنه بالرّجال.

ورحل إلى عَزاز وقد انضوى إلى قلعتها خلقٌ عظيم، ومَنَعهم الوالي بها من الصُّعُود إليها فالتجئوا إلى سَنْدِ القلعةِ بأقمشتهم، والنَّاسُ عليها؛ وأساء الوالي بها ـ وكان اسمه عيسى ـ التدبيرَ والسياسة.

فَزَحَفَ العسكر إلى القلعة؛ وقاتلها؛ وضربها بِالنار، فاحترقَتْ أقمشةُ

١ ـ بزاعا: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب ـ معجم البلدان. وتتبع بزاعة الآن منطقة الباب،وتطل على وادي الذهب الذي يتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي نحو مملحة الجبول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

الناس، وغلاتهم، وحرمُهم، وأولادهم؛ وأشرفَتْ على الأخذ. وخرج قومٌ من الحريق إلى عسكر تاج الدّولة فأمَّنهم، وتقدَّم إليهم بالعودة إلى ضياعهم.

وَرَحَل الملك تاج الدولة إلى جبرين قُورَسْطَايا(١)؛ فأخذها وشحنها بالرِّجال؛ فخرج الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة مِن حلب في الليل؛ ووصل إلى ضَيْعة تعرف بكَرْمِين(٢)، فوجَدَ بِها خَمسين فارساً من الغُزّ، فقَتَلوا أكثرهم، وغنموا كلّ ما كان معهم، وعادوا إلى حلب سالمين.

فأسرى تاج الدولة في الليل من جبرين عندَ ذلك في جميع عسكره، وهم ملبسون مُستعدّون، فصبّحوا حلب صباحاً، وأغاروا عليها، فخرج عسكرُ حلب فالتقوا على الخنَّاقِيّة على باب حلب. ثم إنّ بعض عسكر حلب انهزموا لغير موجب؛ وهزم الله عسكر تُتُش بغير قتال.

وكان الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قَدر خمسين فارساً مقابلهم، فحملوا عَلَيْه، واتَّفَقَتْ هزيمتُهم، فقتلوا من الغُزّ جماعة وغَنِمُوا.

ولو عاد عسكر حلب في اثرهم ماكان أفلتَ منهم إلا من سَبَق به فَرَسُه. وشاع لمحمَّد بن زائدة في ذلك اليوم ذكرٌ جميلٌ.

---

١ ـ سلف بي القول: إن جبرين تبعد عن حلب مسافة ٨كم نحو الشرق. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ اسمها الآن كفر كرمين على مقربة من خان العسل الذي يبعد عن حلب ١٠كم باتجاه الجنوب الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وتقدّم الأميرُ محمَّد بنُ زائدة إلى الشيخ أبي نصر منصور بن تميم المعروف بابن زَنكل أن يجيب أبا الفضائل سابقَ بن محمود عن القصيدة التي أنفذها إليه، ويعرّفه ما لبني كِلابٍ من الأيّام المعروفة، ويذكر هذه الوقائع، فعمل:

دَعَـوْتَ مُجيبـاً نـاصِحـاً لَـكَ مُخْلِصـاً
يَـرَى ذاكَ فَـرْضـاً لا مَحَـالـةَ وَاجِبـا

فـلبيَّتُ لا مُسْتَنْكِفـاً جَـزِعـاً وَلا
هِـدَانـاً[1] إذا خَـاضَ الكَريهَـةَ هَـائِبـا

ومنها:

ولمَّـا دَعَـاني المُـدرِكيُّ ابْنُ صَـالـحٍ
شقَقتُ، وَلَمْ أَرْهَبْ؛ إلَيْـهِ الكَـرائبـا

أُسَـابقُ صَرْفَ الـدَّهـرِ في نَصْرِ «سـابِق»
إلى «تُـرْكُمَـانِ» التُّـركِ أُزْجِي النَّجَائِبـا

فلمَّا الْتَقَيْنَـاهُمْ غَـدَا الـبَعْضُ سَـالِبـاً
لأنـفُسِـهِمْ، والـبَـعْضُ لِـلْمَـالِ نَـاهِبـا

فَيَـا لَـكَ مِنْ يَـوْمٍ سَعِيـدٍ بِيُمْنِـهِ
عَنِ الثَّغْـرِ أَضْحى عَسْكَرُ الضـدّ هَارِبـا

وَكَـانَ يَـرَى في كَفِّـهِ الشَّـامَ حَـاصِلاً
ويـومُ «بُـزاعَـا» رَدَّ مـا ظَنَّ خَـائِبـا

١ ـ الهدان: الأحمق، الوخم الثقيل في الحرب.

وَلَيْلَةَ «كَرْمِين» تَرَكْنا كِرَامَهُمْ
كَضَأْنٍ بها لاقَتْ مع القِدْر قاصِبَا
وَفي يَوْمِ «خُنَّاقِيَّةٍ» قَدْ خَنَقْتُهُمْ
بِعِشْيرِ ذُلٍّ رَدَّ ذَا الشَّرْخِ شَائِبَا
عَطَفْتُ لَهُمْ إذْ خَامَ مَنْ خَام مِنْهُمُ
بِفِتْيَانَ كَالعِقْبَانِ شَامَت تَوَالِبا[1]
فَلِلّهِ قَوْمي الصَّادرُونَ لَو انْثَنَوْا
مَعي، أَوْ فَريقٌ كُنْتُ لِلْجَمْع نَاكِبا
فَوَلَّوْا وَقِضْبَانُ المَخَافَة فيهمُ
مُسَابِقَةٌ أرمَاحَنا وَالْقَوَاضِبَا
فَكَمْ فَارِسٍ مِنْهُمْ تَرَكْنَا مُجَدَّلاً
يُبَاشِرُ تُرْبُ القَاعِ مِنْهُ التَّرَائِبا
وَإذْ أَيْقَنُوا أَنْ لَيْس لِلْكَسْرِ جَابِرُ
تَوَلَّوْا وَعَنْ «جِبْرِينَ» حَثُّوا الرَّكَائِبا
وَخلَّوْا بِها كَسْباً حَوَوْهُ، وَأَبْصَرُوا
سَلامَتَهُمْ مِنَّا أَجَل مَكَاسِبَا

وأما تاج الدولة تُتُش فإنّه رحلَ من جِبْرين، وسارَ إلى دمشق فملكها؛ وتسلّمها من أتسز بن أوق التّركيّ[2]، ثم فسح من عسكره أفشين التركيّ،

١ ـ التولب: ولد الحمار.

٢ ـ انظر حول استيلاء تتش على دمشق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٦٤ ـ ١٦٥ .

ومعه أكثر العسكر؛ وعاد شمالاً ونَهَب عسكرُه ضياعاً في أعمال بعلبكّ.

وَوَصَل رفنيّة في اليَوْم العاشر من جُمادى الأولى، وفيها جماعةٌ كثيرةٌ من التّجّار والقوافل متوجّهين إلى طرابلس، فهجَمَها بَغْتَةً؛ وقَتَلَ ممّن كان بها جَماعةً، واستباحَ أموالَهم وحريمهم، وأقام بها عَشْرَة أيام.

ثم سار فنزل حِصْنَ الجسر، فأكرمَهُ أبو الحسن بن مُنْقِذ فأعلَمَهُ بما عوَّل عليه من نَهْب الشّام، فسأَله في بلدة كفرطاب ألا يعترِضَها فأَجابهُ.

وسار فنزل قَسْطُون فجرَى أمرها في النهب والعقُوبة مجرى رفنيّة، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. ثم تنقّل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جَبَل السُّمّاق[1] وغيرها؛ حتى لم يبقَ بها موضعٌ ولا برجٌ إلا افتتحه وأهلكه؛ واستباح حَريمهم وأولادَهم، واستغرق أحوال أهل سرمين والمعرّة بالقطائع، وطلع إلى جبل بني عُلَيْم[2] فلم يتمّ له بها شيءٌ.

وسار فنزل ضياع معرّة النُّعمان الشرقية بالمنجنيقات، ففتح أبراجَها وحُصونَها بالسَّيف، وأخذ مَا لايمكن إحصاؤُه، وغَلَب أهلَها فهلك منهم خلقٌ؛ ونزل تلّ منس، وقطع عليها خمسة آلاف دينار، ولم يتمكّن من أخذها.

وانتقل إلى عمل معرّة النعمان ففعل مثلَ ذلك؛ وسار إلى معرتارح[3] ـ

١ ـ هو جبل الأربعين هذه الأيام.
٢ ـ هو جبل الزاوية فوق بلدة أريحا.
٣ ـ معرتارح: من نواحي كفر طاب، في شماليها. تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي ـ ط. دمشق ١٩٩٤ ج١ ص٢٠ .

من بلد كفرطاب ـ فتحصَّن أهلها في أبراجها؛ وتعذّرت عَلَيْه فأحرقها، وهلَك جَميعُ من كان فيها.

وبلغ تاج الدَّوْلة ذلك، وهو بدمشق، فأسرع السَّير إلى أن وَصَل إلى ظاهر كفرطاب يطلب أرسلان تاش، فوجده قد رَحَل إلى بلاد الروم، فعاد إلى دمشق وسكن الناس في طريقه.

وحين رَجع أفشين من الشّام ولم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب، توجه إلى بلد أنطاكية فأخرب ماقدر عليه، ونهب وسبى ماوجده، وحُمل إليه من أنطاكية مالٌ؛ وتوّجه إلى الشرق بعد امتلاء صدره وصدر عسكره من النَّهب.

وجرى من هذا الحادث بالشَّام أمر لم يسمع بمثله، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع. ووُجد قومٌ قد قَتَلوا قوماً وأكلوا لحومهم؛ وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينارٍ وما سوى ذلك بالنسبة.

وجَلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مُسلم بن قُرَيشٍ، فأحسن إليهم وتصدّق عليهم؛ وكان ذلك الاحسانُ منه أكبر الأسباب في مملكته حلب.

ولَمَّا جَرى هذَا الحادثُ طَمِعَ شَرَفُ الدَّولة في الشَّام؛ وكاتبه سابق بن محمود يبذل له التّسليم إليه؛ وَوَفدتْ عليه بنو كلاب بأسرها، فتوجّه إلى حلب، ونَزَل بالس[1] يوم عيد النَّحر من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

١ ـ هي بلدة مسكنة الحالية في سورية.

ونزل حلب في السّادس عشر من ذي الحجة، سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة فغلّقت أبوابَها في وجهه، وكان عند سابق أخواه شَبِيب ووثّاب بحلب، فلم يمكِّناه من التَّسليم، فلم يقاتلها، وأهلها يحرصون على التّسليم إليه لما هم فيه من الجُوع وعَدمِ القوُت.

وكان مع شرف الدَّولة في عسكره غلّةٌ كثيرة وقُوَّةٌ تجوز الحدَّ، وتزيد عن الوصف. وكان الرَّئيس بحلب ونقيب الأحداث بها الشريف حسن بن هبة الله الهاشميّ، المعروف بالحتيتي، وكان ولده أبو منصور قد خرج مع عسكر سابق لِقِتّال بعض الأتراك المخالفين في بيت لاها[1] فأسروه؛ وبقي أسِيراً في الموضع مع خطلج أحد أصحاب أحمد شاه.

فلمَّا وَصَل شَرَفُ الدَّوْلَة إلى حلب وَفَد التُّرك كلُّهم عليه؛ وتقرَّبوا إليه بِوَلَدِ الشَّريف الحتيتي.

وقيل: إنَّه طلبه منهم فَلَمَّا حضر عنده خلع عليه، وأطلقه فدخل البلد، وأخذ معه جماعة من أصحابه، وفتح باب حلب، ونادى بِشِعَار شرف الدَّولة في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وتسلَّمها، وَدَخَل أصحابُه إليها، وقَلَع أبوابها جميعها، وفَتَحَ بابَ

---

١ ـ يقال لبيت لاها الغربي جبل اللكام، وهو مسكن العباد والزهاد، وفيه من الفواكه المباحة مايقتاتون به، وهو يفصل بين الثغور الشامية والجزرية. بغية الطلب ج١ ص٤٣٩ .

أربعين[١] ـ وكان مسدوداً ـ وأحسن إلى كافَّة أهلِها، وخَلَع على أحداثهم، وتصدَّق بمالٍ كثيرٍ وغلَّة.

وكان سديد الملك بن منقذ قدْ وَفَد على شرف الدَّوْلة ونزل معه على حلب، وكان شرف الدولة قد عزم على الرَّحيل من حلب لما حَلَّ بهم من الضجر ومصابرة أهل حلب؛ وغَلَتِ الأسْعار عندهم حتى صار الخبز ستَّة أرطال بدينار.

وفَرَّ سديدُ المُلك أبو الحسن بنُ منقذ مِن سور القلعة، فاطلع إليه صديق له من أهل الأدب، فقال له: «كيف أَنْتُم» فقال: «طُوْلُ جُبّ» خوفاً من تفسير الكلمة. فعاد ابنُ منقذ وهو يقلِّب هذا الكلام فصحّ له أنّه قصد بكلامه أنّهم قد ضعفوا. وأوجس أنَّها كلمتان، وأنَّ قوله: «طول» يريد به: «مَدَا» و«جُبّ» يريد به «بير» فقال «مَدَابير والله». فأعلم شرَف الدَّولة بذلك فَقَوَّى نفسَهُ فَملكها.

ولَمَّا فُتحت المدينة انحاز سابقٌ إلى القلعة، وأخواه شَبِيب ووثّاب في القصر، لضيق القلعة؛ وشرف الدَّولة محاصرٌ للقلعة بالمنجنيقات والعساكر. ولم يبقَ بالشَّام وحصون جَبل بَهْرَاء[٢]، وحِمْص، وفَامية شيزر ومن لم يَفِدْ على السِّلطان إلا وَفَد عَلَيه.

١ ـ وصف ابن العديم هذا الباب، وتحدث عن سبب تسميته. بغية الطلب ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦.

٢ ـ جبال اللاذقية أو العلويين.

ودبّر شَبيب ووثّاب، وهما في القصر على سابقٍ وقفزا في القلعة، وصاح الأجناد بها: «شبيب يامنصور». وقبض سابق وحُبس؛ وتسلّم شبيبٌ ماكان بها من مالٍ وسلاحٍ.

ثم وقعت السِّفارة بينهم وبين شرف الدَّوْلة على أن أقطع شبيباً ووثّاباً قلعتي عزاز والأثارب وعدّة ضياع. وأقطع سابق بن محمود مواضِع أخر في أعمال الرَّحْبه، وأن يتزوج منيعة بنت محمود أخت سابق، وكان السَّفير بينهم في ذلك الأمير سديد الملك عليّ بن منقذ؛ وبتدبيره جرى ذلك.

ووافق ذلك أنّ غار الماءُ في قلعة حلب؛ ونزل منها أولاد محمود وانْقَضَتْ دَوْلَةُ آلِ مِرْدَاس.

وكان الوزير لسابق بن محمود الشَّيْخَ أبا نصر محمد بن الحسن بن النّحّاس وعَزَلَه، واعتقله مُدَّةً ثُمَّ أَطْلَقَهُ.

وولّى وزارته أبا مَنْصُور عيسى بن بُطرس النَّصرانيّ فامتنع؛ فأُلْزِمَ بها؛ ووَزَر له في النّصف من شوّال سنة تسع وستّين وأربعمائة[1].

---

١ ـ إمارة حلب ص١٦١ ـ ١٦٤.

[إمارة مسلم بن قريش العقيلي][1]

وتسلَّمها أبو المكارم في شَهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، بعد حصار أربعة أشهر للقلعة. وقال ابن أبي حصينة يُهنىء شَرَف الدَّوْلَةِ بِفَتْحِ القَلْعَة:

لَقَدْ أَطَاعَكَ فِيها كُلُّ مُمْتَنِعٍ خَوْفَ انْتِقَامِكَ حَتَّى غَارَتِ الْقُلُبُ[2]

ولَمَّا مَلَك شَرَفُ الدَّوْلة حلبَ أحسن إلى أهلها، وخَفَّف عنهم أثقالاً كثيرة، وصفح عن كُلَفٍ كانت عليهم في أيام بني مرداس. ونُقِلَتِ الغلاتُ إلى حلب، فرخصَت الأسعار بعد الغلاء الشّديد.

وفي يوم تَسَلُّمِه القلعة ودُخوله إليها دخل بزوجته منيعة أخت سابق، في اليوم والسَّاعة، وهو اتّفاقٌ لم يُسمع بمثلِه، ففتح حصنين وقال في ذلك أبو نصر بن الزَّنْكَل يمدح شرفَ الدَّوْلَة:

فرعتَ أَمنع حصن وافترْعتَ بهِ نعم الحَصَانُ ضُحىً من قبل يعتدل
وحُزْتَ بدرَ الدُّجى شمسَ الضُّحى فعلى مثلَيْكما شرفاً لم تُسْدَلِ الكلل

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٧٧.

ومدحه ابنُ حَيُّوس بالقصيدة التي أَوَلُها:

مَا أَدْرَكَ الطَّلَبَاتِ مِثْلُ مُتَمِّم إنْ أَقْدَمَتْ أَعْداؤُه لم يُحجِمِ

فلما وصل إلى قوله:

أَنْتَ الَّذي نَفَقَ الثَّناءُ بسُوقِهِ وَجَرى النّدى بِعُروقِهِ قَبْلَ الدَّم[1]

اهتزّ شرفُ الدَّولة وأمره بالجلوس، فأتّمها جالساً وأجازه بألفي دينار وقريةٍ.

وقيل: أنّه لما مدحه ابنُ حيوس قال له أبو العزّ بن صدقة البغدادي وزيرُ شرفُ الدّولة: «هذا رجلٌ كبيرِ السنّ ولم يبق من عمره إلا القليل، فأرى أن تعظم له الجائزة فتحصل على الذكر الجميل»؛ فأقطعه الموصل جائزة له.

فمات في هذه السنة قبل أن يصل إليها وترك مالاً حزيلاً فقيل لشرف الدولة: «هذا لا وارث له إلا بيت المال». فقال «والله لايدخل خزانتي مالٌ قد جمعه من صِلات الملوك انظروا له قرابة». فسألوا عن ذلك فوجوا له من ذوي الأرحام بنت أخٍ فأعطاها ماله جميعه وهي بنتُ أخيه أبي المكارم محمّد بن سلطان بن حيّوسٍ.

ولما سَفَرَ ابن منقذ في تسليم حلب وتسلّمها شرف الدّولة وعد ابن منقذ وعوداً جميلة،ومنّاه أماني حسنَة وأكرمه غاية الاكرام.

١ ـ ديوان ابن حيوس ج٢ ص٥٦٩ مع فوارق.

ونقل شرف الدّولة إلى الشّام من الغلال ما ملأ الأهراء، وعاد بالرِّفق على الناس؛ وكذلك نقل إليها من سائر الحبوب ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شيءٌ كثير.

وعاش الناس في أيامه ورخصت الأسعار بحسن تدبيره. وتسلّم حصن عزاز من واليها عيسى. وتسلَّم حصن الأثارب بعد حصَار وحرب؛ وكذلك الحصُون التي كانت في أيدي أصحاب تاج الدّولة من أعمال حلب التي افتتحها.

وَصَفَتْ له جميع أعمال حلب، وقال لسديد الملك: «أمضِ في دَعَةِ الله فأنا سائر إلى بلادي. ويجبُ أن تصلح حالك فأنا أصِلُ وأبلغك كل ماتُؤثِرُهُ». ورجع إلى بلاده، وجعل أخاه عليّ بن قريش بحلب مع قطعة من عسكره بحلب.

وكاتبَ السُّلطان أبا الفتح ملك شاه يعلمه بما جَرى، ويسأله في تقرير شيء يحمله من الشّام فأُجيب إلى ذلك.

ووصل أبو العزّ بن صَدَقة البغدادي وزير شَرف الدّولة إلى حلب لجمع أموالها في سنة أربع وسبعين وأربعمائة؛ وعدل عما كان ابتدأ به من العَدْل والاحسان، وصَادر جماعةً، وضاعف الخراج.

وكان شَرف الدَّولة بالقادسيَّة، فدخل الحمام وهي ملاصقة لدارِهِ، فوثب عليه مملوكان برسم خِدمته، فجعلا في حلقه أنشوطة ليخنقاه، وانتظرا صاحباً لهما يدخل بسكِّين؛ فصَاح شرفُ الدَّولة، فسمعت صياحَهُ زوجته

خاتُون أخت السُّلطان ألب أرسلان، فخرجتْ إليه فانهزما عنه. ومرض من ذلك أياماً، وأُخذا وقُتِلا.

ولَمَّا بلغ ذلك أبا العز بن صدقة البغدادي عاد من حلب إلى القادسيَّة. وكان سديد الملك ابن منقذ قد عمر قلعة الجْسر[1]، وقصد مضايقة شيزر وبها أسقف البَاره[2] وضَيَّق عليه إلى أن راسله واشتراها مِنه، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه[3].

ولم يزل ابن منقذ يعده الجميل ويتلطَّف له إلى أن سلم إليه حصن شَيْزَر ليلة الأحد النصف من شهر رجب من سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ووفى له ابن منقذ بكلّ ما عاهده عليه، فثقل ذلك على شرف الدّولة وحسد ابن منقذ على شيزر فسار عسكر حلب مع مؤيّد الدّولة عليّ بن قريش إلى شيزر، ونزلوا عليها في يوم الجمعة خامس ذي الحجة سنة أربع وسبعين وأربعمائة، بعد مراسلاتٍ جَرَتْ فلم يجب ابن منقذ إلى ما التمس منه.

وكان عليّ بن قريش قد أخذ في طريقه حِصناً لابن منقذ يقال له أسفُونا غربيّ كفرطاب، وكان ابن منقذ قد تأهب للحصار، وحمل من الجسر إلى شيزر مايكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء.

وحصره عليّ بن قريش مدة إلى أن وصل شرف الدّولة بنفسه، فنزل

١ - على مقربة من شيزر.

٢ - البارة الآن قرية في وسط جبل الزاوية، تتبع منطقة أريحا - محافظة ادلب. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ - انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٦٨ - ١٨٧ .

على شيزر يوم الأربعاء سلخ المحرم من سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم رحل عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر، وأقام عسكره على شيزر، فتطارح ابن منقذ عَلَيه، وسيَّر ابنه أبا العساكِر وامرأته منصورة بنت المطوع وأُختَه رفيعة بنت منقذ إلى حمص؛ فَدَخلوا عليه، وحملوا إليه مالاً، فأنفذ إلى عسكره، ورحَّله عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر من السنة.

ولما وصل شرف الدّولة إلى حماة قبض على جميع الأتراك الذين بالشام وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي: بَيْت لاها، وتل أعذى، وهاب، وكفرنبل[1]. وقبض على وثّاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منهما قلعة عزاز والأثارب، وأطلقهما بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة فَدَاموا بها إلى أن قُتِل.

وقبض شرف الدّولة على أكثر أقطاع بني كلاب بالشام؛ وعاد إلى حلب؛ وقبض على حسن بن وَثّابٍ النُّمَيْري أمير بني نمير، وكان قد حصره بسروج[2] في العام الخالي فسلَّمها إليه بعد أن عَوَّضه عنها بنصيبين فاعتقله بحلب مدة وقتله.

وفي نزوله على شيزر، وقتاله حصن الجسر، وفعل وزيرِه أَبي العزّ، ابن

١ ـ ماتزال بعض هذه الأماكن تحتفظ بأسمائها في منطقة معرة النعمان.
٢ ـ سروج الآن إلى الشمال من عين العرب على الحدود السورية التركية، وهي تابعة لمحافظة حلب. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

صدقة من المصادرة، يقول أبو المَعافى سالم بن المهذّب المعرّي[1].

أَمُسْلِمٌ لا سلمْتَ مِنْ حَادِثِ الرَّدَى   وَزَرْتَ وَزيراً ماشَدَدْتَ بِهِ أَزْرا
رَبِحْتَ وَلم تَخْسر بِحَرْبِ ابْنِ مُنْقِذٍ   مِنَ الله والنَّاسِ المَذَمَّةَ وَالوِزْرا
فَمُتْ كمداً «فالجِسرُ» لستَ بِجَاسِرٍ   عَلَيهِ؛ وَعَايِنْ شَيْزَراً أَبَداً شَزْرا

فبلغت الأبيات شرف الدَّولة، فقال: «من يقولُ هذا فينا؟» قالوا: «رجل من أهل المعرّة يقال له ابن المهذّب». قال: «ما لنا وله اكتبوا إلى الوالي بالمعرّة يكفّ عنه، ويُحسنُ إليه فربّما يكون قد جار عليهِ وأحوجه إلى أن قال ما قال».

وعاد شرف الدّولة إلى الجزيرة، وقد جَرَتْ منه هذه الحوادث، وأجحف ببني كلاب، فأجمع رأي وَثّاب وشبيب ابني محمود، وخَلف ابن ملاعب الأشهبي صاحب حمص[2]، وأبي الحسن بن مُنقذ، ومنصور بن الدّوح على مكاتبة الملك تاج الدّولة بدمشق، وشكَوْا أحوالهم، وعرضوا عليه خدمتهم، وأطمعوه في الشّام.

فسار من دمشق إلى الشام وقصد ناحية أنطاكية وأقام عليها مُدَّةً، واتّصل به خبر شرف الدّولة وما هو عليه من الجمع والتّأهّب، واجتماع

١ ـ له ترجمة في بغية الطلب ص ٤١٤٦ ـ ٤١٥٠ ،وكان شاعراً مجيداً، بينه وبين الأمراء بني منقذ مودة واختلاط.

٢ ـ شغل خلف بن ملاعب دوراً هاماً في أحداث هذه المرحلة، وفي أثناء نشاطات الحملة الصليبية الأولى، له ترجمة في بغية الطلب، كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٣٨٠ ـ ٣٨٥ .

العَرب إليه من بني نمير، وعقيل، والأكراد، والمولدة، وبني شيبان، للنّزول على دمشق، والمضايقة لها والطمع في تملّك دمشق؛ فعاد تاج الدّولة إلى دمشق. وخرج عسكر مع بعض أصحاب شرف الدّولة إلى أعمالها، ورتّبوا ولاتَهم فيها وساروا إلى حماة، وبها وَثّاب بن محمود، فلقي عسكر شرف الدولة وكبسه وقتل منه جماعةً، وعاد من سلم منهم إلى حلب.

فنزل وثّاب بن محمود ومنصور بن كامل بن الدّوح وابن ملاعب وابن منقذ على معرّة النّعمان، وقطعوا كثيراً من شجرها، ورعوا زرعها بالظعون، وَقَلبوه بالفدن، وقَاتلوها أيَاماً، ولم يمكنهم أهلها من فتحها خوفاً منهم.

وبلغ شرف الدَّولة ذلك كله، فسار ومعه أكثر بني كلاب وبني نمير، وبعض بني عُقيل؛ ووصله بعض بني طّيءٍ وكَلْب وعُليْم؛ ونزل في بالس في محرّم سنة ستّ وسبعين.

وسار إلى دمشق وحاصرها، وقاتل دمشق في بعض الأَيّام وخرج إليه عسكر دمشق، وحمل عليه حملةً صادقة فانكشف عسكره وتضعضع، وعاد كل فريق إلى مكانه.

وعاد عسكر دمشق بحملةٍ أُخرى، فانهزمتِ العَرَبُ، وثبت شرف الدّولة مكانه، وأشرفَ على الأسر، وتراجع إليه أصحابه؛ وكان قد ظَنَّ أنَّ

١ ـ عالجت مسألة حصار دمشق من قبل مسلم بن قريش في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٨٨ ـ ١٩١ .

العسكر المصريَ ينجده فَخَاف أمير الجيوش من مَيْل العَرب إليهِ فتثاقل عنه.

وورد عليه من حرّان خبر أزعجه؛ وذلك أنّه كان قد تسلّمها من يحيى بن الشَّاطر أحد عبيد ابن وَثَّاب النُّميْري، وكان يليها لعلّي بن وَثَّاب الطفل، وكان وثّاب يعدل فيهم ويرفق بهم، فولّى فيها جعفر العُقَيْلي، فعدَل عمّا كان وثّاب يسلكه من العَدْل، وأظهر مذهب التَشيّع والاعلان بهِ؛ وكان يتولى الحكم بها القاضي ابن جلبة، فاتّفق مع أهل حرّان على العصيان على شرف الدّولة، وكاتبوا يحيى بن الشَّاطِر الّذي تسلَّمها منه مسلم، فوصل إليهم ومعه ابن عطية النميري وجماعة، ووثبوا على أصحاب شرف الدّولة فهربوا إلى الحصن، وقاتلهم ابن جلبة ومن انضم إليه.

فسيّر الوالي جماعة إلى شرف الدّولة يعلمه بالحال، فبعضُهم أخذ بالقرب من حَرَّان، وبعضهم أَخذه أصحاب تاج الدّولة؛ فعرف تاج الدّولة الخبر قبل معرفة شرف الدولة فقويت نفسه.

وعرف شرف الدّولة ذلك واستضر عسكره بتواصل الغارات عليه عندما قويت نفس تاج الدّولة، وكان ذا مكرٍ وخديعة، فرحل إلى مرج الصّفر[1]، وأوهم أنه يسير مقتبلاً لأمر عزم عليه، وقلق أهل دمشق لذلك.

ثم رحل مشرّقاً في البرّيّة على وادي بني حصين ونزل شرقيّ حماة، وراسل ابن ملاعب، وطيَّب نفسه إلى أن نزل فخلع عليه؛ وقرّر معه أن يكون بينه وبين تاج الدّولة ردءاً يمنع من الأذية في بلاده، فأجابه إلى ذلك؛

١ ـ إلى الجنوب من دمشق فيما بين خان ذي النون وقرية شقحب.

وخلع عليه شرف الدولة وأكرمه وطيّب نفسه.

وسار شرف الدّولة إلى حرّان بعد أن أشرف الحصن على الأخذ، فقاتل حرّان، ونقب نقوباً في سورها وثلم ثلمتين، وأقام عليها شهرين؛ ومضى أبو بكر ابن القاضي ابن جلبة ويحيى بن الشّاطر.

واستنجدا بجماعةٍ من الأتراك فسيّر ابن عَمّه ثروان بن وُهيْب فكسرهم وأسر منهم خلقاً عبر بهم على حرّان وسيّرهم إلى بلاده.

وهجَم حرّان بالسّيف من الثلمتين وهم يقاتلون ولم تَسكن الحرب حتى أعطى لؤلؤ الخادم الأمان، وأمن أبا بكر ابن القاضي وكان قد عاد إلى البلد، فحينئذٍ تفرّق النّاس.

ونهب عسكر شرف الدّولة البلد، وقطع عليهم ألف دينار، وقبض على خلق منهم، وقتل ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً صبراً، وصَلَبهم، وصلَب ابن جلبة أمامَهم، ولم يفِ له بعهده، وذلك كله في سنة ستّ وسبعين[1].

وَوَصَل ابن جهير[2] وزير القائم ليتسلّم ديار بكر ومعه عسكر من ملك شاه ـ وكان ابن جهير قد وزر مرّةً لثمال بن صالح، ثُمّ وزر لابن مروان، ثمّ للقائم ـ فوصل ابن مروان إلى شرف الدّولة، واستنجده عليه فأنجده، فالتقوا

١ ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩١ ـ ١٩٢ .

٢ ـ درست حياة فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير ونشاطاته في الجزيرة في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٣ ـ ١٩٦ .

على آمد، فكسرهم ابن جهير، وأخذ أموال شرف الدَّولة، وأسر أصحابه، وأطلقَ من أسر مِن بني عقيل.

ثم إنّ ابن جهير بثّ سراياه في أعمال شَرف الدَّولة فعاثتْ في بلاده، ونَهَبت؛ وذَلك في سنة سبع وسبعين.

ووصله[١] مالٌ من حلب فتقوّى به؛ وسار إلى الرَّحبة وسيّر عمه مقبل بن بدران رَسُولاً إلى مصر يطلب معونتهم، ويبذل لهم الطاعة، وكاتب السّلطان ملك شاه يذكّره بخدمته وطاعته ويذكر مافعله ابن جهير.

فلما عرف ملك شاه ذلك وانفاذه عمّه إلى مصر سار إلى الموصل ومعه نظام الملك ـ وكان نظام الملك يميل إلى شرف الدّولة، ويشير بالإحسان إليه والصفح عنه ـ وكاتب الوزيرُ نظامُ الملك شرفَ الدَّولة يُشير عليه بالوفود على السّلطان، ووعده بما طابَت به نفسه، فسار من الرّحبة إليه، ولقيه نظام الملك على مراحل مِن الموصل.

فترجّل شرفُ الدّولة وقبّل يده؛ وكان في محفَّة لمرض مَنَعَهُ من الرّكوب، فأمره بالرّكوب، وقال له: «ذَهَبَ خوفُك وشُرِحَ صَدْرُكَ، وحُقِّق أَمَلُك». وكان قد استصحب معه كلّ ماقدر عليه من بقايا ذخائره وأمواله وخيله عقيب هذه النَّكبة العظيمة[٢].

---

١ ـ الضمير عائد هنا إلى مسلم بن قريش.

٢ ـ النكبة العظيمة هي أن مسلم بن قريش هزم من قبل ابن جهير هزيمة ساحقة، وهرب مسلم والتجأ إلى آمد، مما جعل ابن جهير يسرع باستدعاء السلطان ملكشاه، فسارع بالتحرك نحو =

ودَخَل على السّلطان فأكرمه وأحسن إليه، وأجابه إلى كلّ ما طلبه؛ وسامَحه بما كان بقي عليه من مقاطعة الشَّام؛ وجَدَّد له التَّوقيع بالبلاد الشّامية والجَزَرية وكلّ ماكان في يده؛ وقرّر معه مسير ولده محمد وان يكون في عسكره، وكاتب أخاه تاج الدَّولة أن لايعرض لبلاده، وكان قد توجّه إليها، وسار أبو العزّ ابن صدقة إلى حلب لانجادها عليه، وبلغه خروج عسكر من مصر فرجع من لطمين.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة، شرع سليمان بن قطلمش في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أَنْ تَمّ له ماأراد.

فأسرى من نيقيه في عسكره، وعبر الدُّروب وأوهم أن الفلاردوس استدعاه، وأسرع السَّير إلى أن وصل أنطاكية ليلاً، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانيَّة جميعهم لئلا ينذروا به، وعلقوا حبالاً في شرفات السّور بالرّماح، وطلعوا مما يلي باب فارس؛ وحين صار منهم على السّور جماعة نزلوا إلى باب فارس وفتحوه.

ودخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه، وكانوا مائتين وثمانين رجلاً، وذلك يوم الأحد العاشر من شعبان؛ وقيل يوم الجمعة الثامن، ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصبَّاح.

= الجزيرة، لكن ابن قريش تدبر أمره مع أرتق قائد قوات ابن جهير، وخرج ناجياً بحياته من آمد، مما غير موازين القوى مجدداً. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٤ ـ ١٩٥ .

وصاح الأتراك صيحةً واحدة فتوَّهم أهل أنطاكية أنه عسكر الفلاردوس حتى قاتلوهم فانهزموا وعلموا أن البلد قد هُجم فبعضهم هرب إلى القلعة وبعضهم رمى بنفسه من السُّور فنجا.

واستقلّ سليمان عسكره فوصل إليه ابن منجاك في ثلاثمائة فارس، ولم يزل عسكره يتواصل حتى قوي، فأمن النَّاس ورَدَّهم إلى دورهم، وردّ أكثر السَّبي، وصلّى المسلمون يوم الجمعة خامس عشر شعبان في القسيان[1]، وأذّن فيه ذلك اليوم مائة وعشرة من المؤذنين وخلق كثير من أهل الشَّام.

وكان يوم فتحها أوّل يوم من كانون الأول؛ وكان فتحُ الرُّوم لها أول ليلة من كانون الثاني لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

ووُجد خطّ بعض المنجمين وهو ابن أخت الصَّابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة يقول: «ذكر المخبر عن أخذ مدينة أنطاكيَّة أنّ دخول العدو ـ يعني الرّوم ـ إليها في وقت كذا وكذا من اللَّيل؛ فان صحّ قولُ المخبر فإنها تثبت في أيدي الرّوم مائة وتسع عشرة سنة».

وكان قد وقف على هذا الخطّ محمود بن نصر بن صالح؛ وقد ذكر في مجلسه، وأظنّ ذلك حين نزل الأفشين التركيّ على أنطاكية، وخاف محمود من أن يملك أنطاكية فلم يتفق فتحُها حينئذ، وكان الأمر كما ذكر المنجّم، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدّة.

١ ـ القسيان: كاتدرائية أنطاكية.

وأقام سليمان بن قطلمش يُحاصر قلعة أنطاكية إلى الثاني عشر من شهر رمضان من السَّنة وفتحها بالأمان ليقيها من القتل والسَّبي ، ونهب التُرك من أنطاكية مايفوت الاحصاء ويزيد عن الوصف .

وسكنها سليمان بعسكره وفتح الحصون المجاورة لها ، بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج .

وصار لسليمان من نيقية إلى طرابلس ، وملكَ الثّغور الشّامية ، وكان حسن السيرة في جنده وعسكره جواداً بماله ، فمال إليه الناس لذلك . ولما فتح أنطاكية أهدى إلى شرف الدّولة من الغنيمة هدّية حسنة .

ولما استقرّ حال شرف الدّولة مع ملك شاه واطمأن عاد إلى القادسيَّة ، وناصف الجُند في أرزاقهم ، ونقصها عَلَيهم ، فصار أكثرهم إلى سليمان ، وتركوه فأقطعهم ؛ وأحسن إليهم وسبّب لهم أرزاقاً تكفيهم .

وكان جماعة من أصحاب بني مرداس يخافون شرف الدَّولة وهم متفرقون في الشَّام فصاروا إليه .

وكان من ضياع أنطاكية وأعمالها مواضع عدة تغَلّب محمود والأتراك عليها ، وقبضوها من الرّوم لضعفهم ، وصارت في أعمال حلب ، فقبضها سليمان وأقطعها وغيرها مما يجاور أعمال أنطاكية .

وكان الشريف حسن الحتيتي رئيس حلب وغيره من أصحاب شرف الدَّولة خافوا منه لَمّا استقر حاله مع السّلطان أن يتمّ له الصلح مع ابن

قطلمش فيتفرغ لهم ويقبضهم، ويستأصل أموالهم؛ فتوصَّلوا إلى المفاسدة بينهما بمن صار في حلَّته من أهل الشام ليشتغل عنهم شرف الدولة.

وكان لأبي المكارم قطيعة على أنطاكية يحملها الروم إليه فطمع بها من سليمان فلم يجبه إلى ذلك وقال: «تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم، وقد قمتُ أنا بفريضة الجهاد، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية؟». ففسد مابينهما لذلك.

وسار شبيب بن محمود ومنصور بن الدوح وجماعة من بني كلاب إلى أنطاكية، وحضروا عند سليمان، ووعدهم ووعدوه بما لم يقبح من بعضهم لبعض؛ وأخذوا قطعة من عسكره؛ وخرجوا فعاثوا في بلاد شرف الدّولة، ثم إنّهم خافوا منه فهربوا إلى أسفُونا.

وتواصلتْ غاراته على بلد حلب وسَرْمين وبزاعا وقبض شرف الدّولة على وزيره أبي العزّ بن صدقة وصادره وحَبَسه، وسيّر ابن الحلزون إلى حلب ليدبّر أمرها؛ فوصل إلى حلب، وراسل سليمان في الصّلح.

وقبض على عليّ بن قريش بأمر أخيه شرف الدَّولة، وصادره على عشرة آلاف دينار، وأخذ منه منبج لأنها كانت أقطاعه، فعند ذلك ازدادت وحشة الشّريف وغيره لما شاهدوه من فعله بأخيه. وكذا كانت سيرته في أصحابه. وبهذا الطريق فسد حاله؛ وأما رعيَّته فكانوا معه على أجمل حال وأحسنه.

وحيث تحقّق شرف الدَّولة اختلال حلب ونواحيها بغارات سليمان جمع

عسكره وانضاف إليه بعض الأتراك، ووصل إلى عَزاز في صفر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وأشير عليه بالنّزول على حَلَب ومراسلة سليمان في الصُّلح، فامتنع واستدعى بني كلابٍ فَوَصَلَه منهم جماعةٌ من أعيانهم وفرسانهم، وسار فنزل على نهر عفرين بموضع يقال له قُرْزَاحل[1].

ووَصَل سُليمان من أنطاكية في أربعة آلاف فارس، وكان شرف الدَّولة في عدّةٍ تزيدُ عن ستة آلاف ليس فيهم مناصح؛ وجاء شرف الدّولة بطيخ فنزل هو وبعض بني عمه وأكلوا، فقال ابن عمه:

كُلُوا أَكلةً مَنْ عَاشَ يُخْبِرُ أَهْلَهُ وَمَنْ مَاتَ يَلْقى الله وَهْوَ بَطِينُ

فقال شرف الدَّولة: «قَتَلْتَنا فألُكَ يابنَ العَمّ».

والتقوْا في آخر نهار السَّبت، لستّ بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، والشَّمس في وجوه عسكر شرف الدولة؛ وكان اللقاء بغتة في غير وقت يظن فيه؛ فانهزم عسكر شرف الدَّولة، وجاءته طعنةٌ فقُتل[2]. ولما طُعِنَ قَالَ: «ياشام الشّؤم» وأتّهم بعض أصحابه بقتله. وكان القتل بين الفريقين قليلاً لأن أصحاب شرف الدّولة لم يثبتوا معه لقبح رأيهم فيه. ورحل سليمان

١ ـ اسمها الآن قرزيحل، وهي قرية بجبل سمعان، تتبع منطقة عفرين، محافظة حلب، وتبعد عن عفرين ٧كم، وهي إلى الجنوب الشرقي منها.

٢ ـ ثبت مع مسلم في القتال أحداث حلب فقط، وكانوا ستمائة، فقد أربعمائة منهم حياتهم، وهم يحاولون تغطية انسحاب ابن قريش. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٩ ـ ٢٠١.

ونزل بظاهر حلب، وحمل شرف الدّولة، وطرحه على باب حلب فدُفِنَ هناك.

وانفرد الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي بتدبير حلب وسالم بن مالك العقيلي بالقلعة[1].

وكان القاضي بحلب في أيام شرف الدولة القاضي كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وتولى قضاء حلب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ومات في أيام أبي المكارم مُسلم بن قُريش؛ فولي قضاءها أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة ـ وهو ابن بنت كسرى المذكور، وابن القاضي أبي الحسن المتقدم قبل كسرى ـ وكان أبو المكارم شرف الدّولة يخاطبه بابن العمّ لكونهُ عقيلياً؛ والقاضي عُقيلي. ومن شعر أبي المكارم بن قُريش:

إذا قرعَتْ رِجْلي الرّكاب تَزَعْزَعَتْ   لَهَا الشمّ واهتزّ الصعيدُ إلى مصر

ومن شعره أيضاً:

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذَا أَمْنٌ وَذَا خَطَرٌ   وَالْمَاءُ صِنْفَانِ ذَا صَافٍ وَذَا كَدِرُ[2]

وأما سليمان بن قطلمش فإنّه حاصر حلب مدّة ، ثم ترددَّت الرّسل إلى أهل حلب في التّسليم ، فاستقرّت الحالُ بينهم على موادعةٍ مدةً .

وسيّر سليمان بن قُطلُمش قطعةً من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا

١ ـ لسالم بن مالك ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٤٠٥ ـ ٤٠٧ ، وهو مؤسس حكم الأسرة العقيلية في قلعة جعبر.

٢ ـ بهامش الأصل: بلغ مقابلة بخط المؤلف رحمه الله.

مع شرف الدوَّلة ، فهربوا ، ولحقهم شدّة عظيمة من دخول البريّة في حزيران .

وتوجّه سليمان إلى معّرة النعمان وكفرطاب ، وتسلّمها ، ثمّ سار إلى شيزر ، فقاتلها وقرّر أمرها على مال يحمل إليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرّجال ، وعدل أصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب .

وجرت بالمعرّة أسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جُمادى الأولى ، يطلب أصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتلَ جماعةً من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي منها وقطع على أهل البلد عشرة آلاف دينار .

وأما بلاد شرف الدَّولة فملكها من بعده أخوه إبراهيم ، ما خلا حلب ؛ وكاتب مَنْ بِحَلب في تسليمها إليه فلم يجيبوه .

وأما الشَّريف حسن الحتيتي فإنّه كان متقدم الأَحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشَّريف المنسوبة إليه ، وبنى عليها سوراً دائراً ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفاً على نفسه أن يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتّفق الشَّريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن كاتبا السّلطان ملكشاه يبذلان له تسليم حلب إليه ، ويحثّانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنّسرين وتحول إليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشَّريف حسن لنجدة تصله من السّلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل إلى تاج الدّولة تُتُش يستدعيه إلى حلب ليتسلَّمها .

وعرفه ما استقرّ بينه وبين الشريف الحُتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرج بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحّرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنّسرين .

ووصل إلى تاج الدّولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى النَّاعورة وعوّل على مراسلة الشريف حسن فان سلم إليه وإلاّ عَادَ لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عَيْن سَيْلم[1] ، وتراءى العسكران ، فدبّر أرتق عسكر تاج الدّولة أحسن تدبير ، والتقوا فانهزم عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثَّامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدَّولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكرُه والعرب الذين معه جميع ما كان في العسكر .

---

١ - بينها وبين حلب ثلاثة أميال . معجم البلدان .

واختلف في قتل سليمان ، فقيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدَّولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النّصرة نزل عن فرسه ، وقَتَل نفْسَه بسكِّين خفِّه ، وقيل : إنّ المصامدة تَتَبَّعَتْ أسلاب القتلى فظفروا بدرع مرّصع بالياقوت والعقيان النفيس .

ونمى الخبر إلى تاج الدولة ، فأحضره فقال : «هذا يشبه سلب الملوك» ، وسار إلى الموضع وإذا به مختلط بدمه فقال : «يشبه أن يكون هذا» . وقد كان قال لهم : «لا تبِّينوه لي حتى أريكموه من بين القتلى» ، فقيل له : «ومن أين علمت ذلك ؟» فقال : «قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه» .

ثم قال بلسانه : «ظلمناكم ، وأبعدناكم ونقتلكم !» ثم مسح عينيه واغتمّ لقتله ، وترّحم عليه ، وأحضر أكفاناً نفيسة فكفّنه ، وصلّى عليه ، وحمله إلى حلب فدفنه إلى جانب مُسلم بن قريش قبل أن ينقل مسلم إلى سرّ من رأى ، وقيل : دفن معه في قبرٍ واحد .

ولما جرى ما جرى من قتل سليمان وسار تاج الدّولة إلى حلب عدل الشَّريف حسن الحتيتي عما كان اتّفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب إلى تاج الدّولة ، واحتجّ بأنَّ كُتُبَ ملكشاه وَصَلَتْه بتجهيز العساكر إليه .

فأقطع تاج الدَّولة بلد حلب وأعمالها لعسكره إلَّا ما كان لبعض العرب الّذين وفدوا عليه ، فانّه أقرَّه في أيديهم ؛ ثم رحل إلى مَرْج دابق[١] وأقام أيّاماً .

ثم عاد ونازل حلب ؛ فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبيّ ، وراسل تاج الدَّولة في تسليم حلب إليه ، ورفع بعض أصحابه بحبال إلي بعض أبراج السور ، وساعده قومٌ من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدّولة في ذلك الموضع ، وتسامع النّاسُ فنادَوْا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السَّبت السَّادس والعشرين من شهر ربيع الأوَّل من السَّنة .

فانهزم هبةالله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه إلى القلعة الكبيرة إلى سالم بن مالك[٢] ، وبقي الشَّريف حسن في قلعته المجدّدة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فخافوا على أهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمّنه تاج الدَّولة بوساطة ظهير الدّين أرتق .

وخرج إلى أرتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلَّم القلعة إلى تاج الدّولة تتش ، وسيّره أرتق إلى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدَّولة بن قريش

١ ـ دابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان ، وبه قبر سليمان بن عبد الملك . معجم البلدان .

٢ ـ انظر ترجمة سالم في بغية الطلب ص ٤١٥٧ ـ ٤١٥٩ . وكنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

لما ولّاه فيها أوصاه أن لا يسلّمها إلاّ إلى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيَّته ، وامتنع أن يسلّمها إلى تُتُش .

وأقام تُتُش بمدينة حلب إلى اليوم السَّابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وأحسن إلى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أنَّ السلطان ملكشاه وصلت عساكره إلى نهر الجوز[1] قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدّولة إلى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدّة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه أياماً يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملكشاه حلب مع برسق وبوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الرّوم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ؛ ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل إلى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إنّ السلطان وصل بعدهم إلى الرّها فسلَّمها إليه الفلاردوس[2] وأسلم على يده ، وسار منها إلى قلعة دوسر ـ وهي المعروفة بجعبر ـ فتسلَّمها في طريقه من جعبر بن سابق القُشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطَّريق .

---

١ ـ نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب . انظر بغية الطلب ص ١٩٧٤ .

٢ ـ هو فيلارتيوس براخاموس ، كان بالأصل أرمنياً من قادة الإمبراطور رومانوس دايجينس ، انظر كتاب «الرها المدينة المباركة» ترجمة عربية ، ط . حلب ١٩٨٨ ص ٢٧٣ .

وسار حتّى وصل حلب في الثّالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

وتسلّم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشّام ، وعوّض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، وأقطعه معها الرّقة وعدّة ضياع .

وتوّجه السّلطان إلى أنطاكية فتسلّمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية يغي سيان بن ألب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها ، وتمّ إلى السّويديّة[1] ، وصلّى على البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مِمَّا تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب .

وعاد إلى حلب ، ورتّب بها الأمير قسيم الدّولة أقسنقر[2] ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرّؤساء ابن الخَّلال في جمع الأموال .

ووصل إليه الشّريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة إلى حلب ، ويذكر خدمته وما جري عليه ، فتظلّم منه أهل حلب فلم يأذن له السّلطان فيما التمسه .

وكان هذا السُّلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلاً حتى أنّ أحداً لا يقول : إنّ أحداً من ذلك العالم العظيم من عسكره ـ وحزره أربعمائة

---

١ ـ ميناء مدينة أنطاكية على شاطىء البحر المتوسط .
٢ ـ انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٦٩ ـ ٢٧٧ .

ألفٍ ـ أخذ لأحدٍ من الرّعايا قسراً وظلماً ما يساوي درهماً واحداً ؛ حتى أنّ البازيار الّذي له اقتنص طائرين من الدّجاج من الأثارب[1] طعماً للبزاة في الطّريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدّده حتى أعادها إلى صاحبها بعد عوده من أنطاكية .

وخرج هذا السّلطان إلى ضياع معرّة النّعمان يتصيّد ، وبات بضيعة بينه وبين المعرّة ثلاثة فراسخ ، فابتاع منها أصحابه ما احتاجوه بأوفى ثمن ؛ ووضع السّلطانُ في هذه السّنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبقَ من يستخرجُ مكساً في مملكته .

وأقام السّلطان بحلب إلى أن عَيَّد بها عيد الفطر ، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة ، وقد قرّر ولاية حلب ، وولّى بقلعتها نوحاً التركي ، وبلغه عصيان تِكِش[2] بترمذ فسار السّلطان، وقطع مابين حلب ونيسابور في عشرة أيّام ، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة وقد قرّر ولاية حلب لقسيم الدّولة أقسنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكّنه فيها .

وقيل إنّه مملوك لملكشاه ، وقيل إنه لصيق وانّ اسم أبيه آل ترغان ، وولّى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخّلال

---

١ ـ الأثارب قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، تبعد عن حلب ثلاثة فراسخ . معجم البلدان .

٢ ـ هو أخو السلطان ملكشاه . انظر حول عصيانه الكامل لابن الأثير ط . القاهرة مطبعة الإستقامة ـ ج ٨ ص ١٣٦ .

الرحبيّ ، وقال شاعر حلبيٌّ فيه وفي الوزير ابن النّحاس :

قَدْ زنجرَ العَيْشُ على النَّاسِ مَا بَيْنَ «خَلَّالٍ» وَ«نَحَّاسٍ»

فأحسن قسيم الدولة في حلب السِّيرة وأجمل السِّياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطَّاع الطريق ، وتتبع الذُعَّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلَّابين إليها من كل مكان .

وحكى لي والدي ـ رحمه الله ـ : أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لايغلق أحدُ بابه ، وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في اللَّيل والنَّهار .

فخرج متصيِّداً فمرّ على فلَّاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله ، فانفرد من عسكره ، وقال له : «ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدُ من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث ؟» فقال : «بلى والله ـ حفظ الله قسيم الدّولة ـ والله لقد أمنَّا في أيّامه من كل ذاعرٍ ومفسدٍ ، وما رفعتُ هذا خوفاً عليها ممّن يأخذُها ، وإنَّما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدّة ههنا جاءت وأكلت هذه الجُلود التي عليها» .

فلما عاد قسيمُ الدولة أمر بالصيَّادين وبثَّهم في أقطار بلد حلب لصَيد بنات آوى حتى أَفْنَوْها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سبباً لِقلَّتها في بلد حلب إلى يومنا هذا ، دُون غيرها من البلاد .

وفي أيّام قسيم الدَّولة جدَّد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هٰذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خُلف بَيْنَ لَطِمين[١] وبين نَصر بن عليّ بن منقذ في سنة إحدى وثمانين ، فخرج أقسنقر إلى شيزر ، وقَتل مِن أُهلها مائةً وثلاثين رجلاً ، وعاد إلى حلب بعد أن نَهب رَبضهَا ، واستقّرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شَيزر .

وكان أقُسنْقُر قد تزوّج خاتون دايَة السّلطان ملكشاه[٢] وكانت جالسةً معه في بعض الأيّام في داره بحلب ، وفي يده سكِّين فأومأ بها إليها على سبيل المداعبة والمُزاح ، فوقعتْ في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمدٍ لها ؛ فماتتْ وَحَزِن عليها حزناً شديداً ؛ وتأسّف لفقدِها ، وحملها في تابوت لتُدفن في مقابر لها بالشَّرق ؛ وخرج من حلب لتوديع تابوتها في مستهلّ جُمادى الآخرة .

وتسلَّم أقسُنقر حصن[٣] برزويَه ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الأرمن ـ وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفّار من أُعمال أنطاكية ـ وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدَمه في ربيع الأوَّل من سنة ثلاث وثمانين .

١ ـ تتبع قرية لطمين ناحية محردة في محافظة حماه وتبعد عن حماه مسافة ٣٦ كم .
٢ ـ في ترجمة أقسنقر ـ مدخل ص ٢٦٩ : «داية السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملكشاه» .
٣ ـ حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق . معجم البلدان .

وكتب ولاةُ الشَّام إلى السلطان ملكشاه يشكون ما يلقونه من خَلف بن مُلاعب بحمص من قطع الطّريق وإخافة السَّبيل ، فكتبَ إلى قسيم الدَّولة ويغى سيان وبوزان صاحب الرُّها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ؛ وأعطاها السّلطان تاج الدّولة تتش .

ونَزَل قسيم الدَّولة على أفامية ، فأخذها من خلف بن مُلاعب وسلَّمها إلى نصر بن منقذ .

ثمّ إنَّ السّلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديدٍ إلى أصبهان ، فحبسه إلى أن مات ملكشاه ؛ وتوجّه إلى مصر وعاد إلى الشَّام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلَّمها قسيم الدَّولة إلى أن ورد عليه أمرُ السّلطان بتسليمها إلى تتش[١] .

ومات السّلطان ملكشاه ببغداد في اللَّيلة السَّادسة عشر من شوّال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أقسُنقر قد خرج وافِداً عليه ، فلما بلغه الخبر عَاد إلى حلب ، وخطب لابنه محمود مدّةً يسيرة ، ثم إنّه خطب بعد ذلك لتاج الدّولة تتش ـ على ما يُذكر ـ[٢] .

---

١ ـ لخلف بن ملاعب ترجمة مفيدة المعلومات في كتاب بغية الطلب ، سلف ونشرتها في ملاحق كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠ ـ ٣٨٥ .
٢ ـ انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢١ ـ ٢٢٨ .

ولما عاد إلى حَلب قَبَض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاجُ الدّولة قسيمَ الدّولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم إلى طاعته ، والكون في جُملته ليسيروا معه إلى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوا إلى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أوّل سنة ستّ وثمانين ، وسار إليه قسيمُ الدّولة ويغى سيان وبوزان ، ووثق به أق سُنقر ، وفَتَح تاجُ الدَّولة الرّحبة ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهّب للقاء تاج الدّولة .

والتقى العسكران على دارا[1] ، وعاد كُلّ فريق إلى موضعه ، فركب الأميرُ قسيم الدَّولة في خلقٍ من العسكر ، وحمل حتّى توسّط عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه باقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم . فقتلهم تاج الدَّولة صبراً وسُبِيَتِ الحُرم ، وقَتل جماعةٌ من نساء العرب نفوسَهن .

وأمر تاج الدّولة بعد ذلك بجمع الأسرى وَوَهَبهم من محمَّد بن شرف الدَّولة ـ وكان قد صار في جُملته قبل الحرب ـ وأقطعه نصيبين[2] .

وعظُمت هيبة تاج الدَّولة بعد هذه الوقَعَة ، وراسلته زوجةُ أخيه تحثّه

١ ـ دارا بلد في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
٢ ـ لمزيد من التفاصيل ، أنظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

على الوُصول ؛ واستقرَّ الحال على أن تتزوَّجه ؛ فسار عند ذلك بعد أن تسلَّم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصل إلى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدَّولة أق سُنقر صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا إلى بركيارق ليكونا في خدمته ـ وكان بالقرب من الريّ[1] .

وكان سبب نفار قسيم الدَّولة وبوزان تقريب تاج الدَّولة يغي سيان وميلهِ إليه ؛ وقيل : لأنّه لم يُولهما شيئاً من البلاد الّتي افتتحها ، فرجع تاج الدَّولة إلى ديار بكر ، وشحنها بالرّجال ، وسار منها إلى سروج فأخَذَها وولّى فيها بعضَ ثقاته .

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان إلى باب السُّلطان بركيارُق ، وإكرامه لهما ، وأنّهما وجدا خاله مستولياً على أَمرِه ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبسطت يدُ بركيارُق ، واستقامت أحوالُه ، وخاطبه أق سنقر وبوزان أن يسير معهما إلى بلادهما حلب والرّها وحرّان ، لئلا يجري عليهما حادثٌ من تاج الدَّولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدَّولة ؛ فسار معهما إلى الرّحبة ، وعقد بينهما وبين عليّ بن شرف الدَّولة حِلْفاً .

وسار عليّ بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعة من عسكر السّلطان بركيارقُ مع قسيم الدَّولة ؛ فأوصلوه إلى حلب ، فدخلها في شوّال من سنة ستّ وثمانين وأربعمائة .

١ ـ الري الآن ضاحية لمدينة طهران .

وسار بوزان إلى بلاده ، وعَاد مَنْ كان معهما إلى السّلطان .

وأما تُتُش فانّه قطع الفراتَ وتوجّه إلى أنطاكية ، وأقام بها مع يغي سيان مدَّة ، فغلتْ بها الأسعار ، فسار إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السّنة .

وكان وثّاب بن محمود مع نفر يسيرٍ من بني كلابٍ ، فأنفذ أق سنقر بعد مسير تُتُش إلى دمشق مَنْ أَحَرقَ حصنَ أسفُونا وحصن[1] القبَّة ، وقبض اقطاع وثّاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمّد بن الحسن بن النحاس بسعاية المجنّ بركات الفُوعي به إلى قسيم الدّولة . ولم يزل به إلى أن أمره بخَنْقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السّنة .

وفي شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدّولة تتش من دمشق ، ومعه خلقٌ عظيمٌ من العرب ، ولقيه يغي سيان بعسكر أنطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياماً ؛ وزوَّج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان ، وسيّره عائداً إلى دمشق .

وسار تاج الدّولة بعساكره فنزل تلمنس[2] ، وأقام بها أياماً ، فوصلهُ الخبرُ بوصول كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرّها ، ويوسف بن

١ ـ قرب معرة النعمان . معجم البلدان .

٢ ـ تتبع تلمنس الآن منطقة معرة النعمان في محافظة أدلب السورية وتبعد عن المعرة مسافة ٦ كم وعن أدلب ٤٥ كم .

أبق صاحب الرّحبة ، في ألفين وخمسمائة فارس إلى حلب ، لنجدة أق سنقر ، فعدل تاج الدولة إلى الحانوتة ، ورحل إلى النّاعورة ، وعوّل على قصد الوادي[1] ، وأن يسير منه إلى أعمال أنطاكية ؛ وأخذَ العسكرُ دوابَّ النقرة و [أحرق] بعض زرعها[2] .

فخرج أق سنقر ومَنْ وصله من النَّجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب ـ وكان قد أطلقهما من الاعتقال في هذه السَّنة ـ ومحمَّد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والديّلم والخراسانيّة ؛ وعدّة عسكره تزيد عن ستَّة آلاف فارسٍ وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عدّة .

وقصد عسكر الملك تاج الدَّولة ، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السَّنة ، والتقوا على «سَبْعين»[3] ، وكان أوّل من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتّب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربوقا لم يتمكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر، ولم يستنصح أق سنقر العرب الّذين معه؛ وخاف ميلهم إلى تاج الدَّولة ، وكان عسكر تاج الدَّولة في مثل هذه العدّة من العَرب والرجّالة ،

١ ـ وادي بزاعا . انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٧٢ .
٢ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من ترجمة آق سنقر . مدخل ص ٢٧٢ .
٣ ـ سبعين قرية قريبة من حلب . معجم البلدان .

وكان التّرك معه في قلّة لأنَّ أصحابه وخواصّه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدَّولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظةً واحدةً ، وانهزمت العَرَبُ وبوزان وكربوقا نحو حلب فدخلاها ، واستأمن يوسف بن أبق إلى تاج الدَّولة .

وأُسر أق سنقر وجماعةٌ من خواصه ووزيره أبو القاسم بن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدَّولة أَسيراً ، فقتله صبراً ، وقال له تاج الدَّولة : «لو ظفرت بي ما كنتَ صنعتَ ؟» قال : «كنتُ أَقتلُك» فقال له : «فأنا أَحكمُ عليك بما كنتَ تحكُم عليَّ» فقتله .

وحكى وثّاب بن محمُود قال : «جَلَس تاجُ الدَّولة ، وطلب قسيمَ الدَّولة ، فأُحْضِر مكشوفَ الرَّأس ، مكتوفاً ، فقام تاجُ الدَّولة ، وكلَّمه كلاماً كثيراً ، فلم يردّ عليهِ جَوابَاً ، فضربَهُ بيده أُطار رأسه» .

وحملَ رأسه إلى حلب والي دمشق ، ودفن جسَدَهُ في القُبَّة التي على سطح جبل قَرَنْبِيَا[1] ، غربيّ الْمَشهد الذي ابتناه بِقَرَنْبِيا ؛ ثم نقله ابنُه زنكي لَمَّا فتح حلب إلى مدرسة الزجَّاجين[2] ، وَوَقَف شامر ـ قرية مِنْ بلدِ حلب ـ على من يقرأ على قبرهِ .

---

١ ـ مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب . الآثار الاسلامية في حلب لأسعد طلس . ط . دمشق ١٩٥٦ ص ٢٤١ .

٢ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ ذلك أنها درست .

واختار قسيمُ الدَّولة وقتاً للخروج إلى اللّقاء ، وهو وقت قِران زُحَل للمريّخ في بُرجِ الأسد ـ وهو طَالعُ بيت السُّلطان بحلب ـ وكان مُوقِناً بالظَّفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقُوهُ بالجبال لكتافِهم بها ، وكان تاجُ الدَّولة قد عزم على ما ذكرناه ؛ ولم يكن مُؤْثِراً لقاءه ؛ فنصره الله تعالى كما شاء وأراد ؛ لا رادَ لأمره ، ولا معَقِّب لحكمه ، ولا تأثير لشيءٍ في ملكُوتِهِ .

وأُسِرَ شبلُ بن جامع أميرُ بني كلاب فوهبه تاجُ الدَّولة لابن أخيه وثّاب بن محمُود .

وعوَّل بُوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظارِ النَّجدة من بركيارُق ؛ لأن كتابَ الطَّائر وصل إلى حلبَ يُخْبرُ بوصول النَّجدةِ إلى المَوْصل ، وقرَّروا مع الأحدَاثِ ذَلِك .

فوصل تاجُ الدَّولة بعسكره إلى حلب ، وتَحَيَّر أهلُها فيما يفعلونه ، فبادر قومٌ من الأحداثِ مِمَّنْ لَا يعرف وَلَا يذكر ففتحوا بابَ أنطاكية .

ودخل وثّاب بْنُ محمود في مُقدّمة أصحاب تاج الدَّولة إلى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بِقَلْعَة الشَّريف ، وسلَّمها إلى تاج الدَّولة فدخلها ، وباتَ بها ، فراسلَهُ نُوحُ والي القلعة الكبيرة ، وسلَّمها إليه بعد أن تَوَثَّق منه ، وطلع تَاجُ الدَّولة إليها في الحادي عشر من جمادَى الأُولى من السَّنة[1] .

---

١ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م .

وقبضَ تاجُ الدَّولة على بوزان فَضَرَب رقبتَه صَبْراً ، وأَخذَ كربوقا واعتقله بحمص ، وأَقطع الشّام لِعَسْكرِهِ ، وأَقطع معرَّة النُّعمان واللاَّذقية ليغي سِيان ، ورَتَّب أبا القاسم بْنَ بديع وزيراً بحلب .

وأَقامَ ثَلاثَةَ أَيَّام ثُمَّ تَوجَّه فَقطع الفُرَاتَ ، وتسلَّم حرَّان ، وسار إِلى الرُّها فتسلّمها ، وقيل : بأَنَّ واليها امتنع مِنْ تسليمها إلاَّ بِعَلاَمَةٍ مِنْ بُوزان ، وأَنَّ بوزان كان مَحْبُوساً بحلب ، فأنفذ إليه مَنْ قَطَعَ رَأْسَهُ وَرَمَاهُم به ، فسلَّموا الرُّها إِليهِ ، وتسلَّم ديارَ بكر .

وسارَ إِلى مَيَّافَارقين فَقَتَل بَني جَهيرِ بعد أَن قطع رُؤوس أَولادِهم وعَلَّقَها في رقابهم .

وَعَدَل عَن الموصِل ، وسار للقاء زَوجة أَخيهِ خاتون الجَلاليَّة لإتمام ما كان استقرَّ بينهما فماتت في الطريق .

وتوجّه تاجُ الدَّولة إلى الرَّي ، فوصله خلقٌ كثيرٌ مِن التركمان وعساكر أَخيه ، وَمَلَك كُلَّ بلدةٍ مَرَّ بها ، وخطبَ له على منابر الإِسلام : الشَّام والفرات ، وبَغْداد .

وعِنْدَ وُصُولِه إلى هَمَذان كتب إلى ولَدِهِ الملك رضوان يَسْتَدْعيهِ مِنْ دمشق فَتَوجَّه إِليهِ وَمَعَهُ بقيَّة مَنْ تخلّف مِنْ أَصحابه بالشَّام .

ودخل تاجُ الدَّولة الرَّي وملكها في المحرَّم سنة ثمان وثمانين وأَربعمائة، وخَرَج بركيارق من أَصبهان ، والتَقَوا على خمسة فراسخ من

الرَّي في يوم الأحد السَّابع عَشَر مِنْ صفر ، فانهزم عسكرُ تاج الدَّولة تُتُش واستبيح ونُهب ، وقُتِلَ ذلك اليوم تاجُ الدَّوْلَة وخواصُّهُ في الحرب .

وقَتَل تاجَ الدَّولة بعضُ أَصحاب قسيم الدَّولة بعد أن اصطنعَهُ وقربَّه ، ضَربَة بنُشَّابَة في ترقوتهِ اليُسرى فوقع ؛ وقُطِع رأْسُه وطيف به العسكر ، ثُمَّ حُمِل إلى بَغْداد فَطِيف به ، وتفرَّق مَنْ سَلِم منهم إلى مواضعهم .

وَوَصَلَ الخبرُ إلى ولده الملك رضوان ، وهو نازلٌ على الفُرات بِعَانة[1] متوجهاً إلى والده ، فقلق وخاف مِنْ وُصول مَنْ يطلبه فحطَّ خِيَمَهُ في الحال[2] .

ورَحَل مُجِدّاً حتَّى وصل حلب في جماعةٍ من غلمانه وحاشِيته ؛ وترك باقي عسكره مِنْ ورائه ، فسلم وزيرُ أبيه أبو القاسم بنُ بديع إليه المدينةَ والقلعة ؛ وصعد إليها ؛ وأخذُوا الأهبَة لِمَنْ يَقْصِدُها .

ووصل إليه إلى حلب من الفَلّ أُخوه أبو نَصرٍ دُقاق[3] وجناح الدَّولةُ حُسين[4]، فاستولى جناح الدَّولة على تدبير مُلكِ الملك رضوان؛ وكان تاج

١ ـ عانة بلد مشهور على الفرات بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة . معجم البلدان .
٢ ـ لرضوان ترجمة مطولة في كتاب بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ ص ٣٨٧ ـ ٣٩٦ .
٣ ـ لدقاق ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، انظرها في كتاب المدخل ص ٣٨٦ .
٤ ـ لجناح الدولة حسين ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي المدخل ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩ .

الدَّولة قد جعله مدبّراً لَهُ ، وهو أتابكُه في حياته ، وَجَعَل دُقاق مع أتابك ظهير الدين .

وَلَمَّا افتتح ديار بكر سلَّمَها إلى ظهير الدِّين ، وشمس المُلوك دُقاق معه ، ولم يَزَل بها إلى أن سارَ إلى الرَّيّ فسَارَا معه .

وعاد دُقاق إلى حلب فأقام بها مدَّةً يَسيرة ، وراسَلَهُ الأمير ساوتكين الخادم ـ وكان نائب تَاج الدَّولة بدمشق في حفظ القَلْعَةِ والبلد ـ [وَقَرَّرَ][1] لدقاق مملكة دمشق سرّاً ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وَهَرب إلى دمشق من غير أن يعلَم به أحدٌ . وَجدَّ في السَّيْر ، وتبعه رضوان ، وأَنْفَذَ خَلْفَهُ عدّةً من الخيل فَفَاتَهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين إلى طاعته ، وصارتْ دمشقُ وبلادُها بحكمه .

وقتل رضوانُ أُخويه : أبا طالب وبهرام آبني تتش ، وكان أتابك طُغْتِكين مُعْتَقَلاً عند السُّلطان بركيارق ، وقبض في الوقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة الذين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتّفق رأيُهم أن يسيروا عضب الدّولة أبق بن عبد الرَّزَّاق إلى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان أبق أيضاً مِنْ جملة من قُبض عليه من الجماعة الذين كانُوا مع تُتُش فخاطبُوا السُّلطان في إطلاقه وتَسييره فأجابهم إلى ذَلك ، وسيَّره إلى حلب ، فلمَّا وصله أَكْرَمَهُ رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيَّره مكرماً .

---

١ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩١ ـ ٣٩٥ .

فأطلق بركيارق أتابكَ طُغْتِكين[١] وجميع من كان في اعتقاله من خواصّ تاج الدَّولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه ؛ وألقى تدبير أموره إليه ، فقام فيها أحسن قيامٍ .

فاستأذن عضبُ الدَّولة الملك رضوان في الوصول إليهِ فأذن له ، وقرَّر معه قرب العودة إلى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب إلى أصحابهِ بعَزَاز يأمرهم بتسليمها إلى رضوان فسلّموها .

ولَمَّا وصلت هذه الأَخبار وثب أهل أفامية على حِصنها فأخذُوهُ من الأتراك ، وقتلوا بَعْضَهم ، وكان تاجُ الدَّولة قد أخذه من ابن منقذ ، وسار جماعةٌ مِنْ أهلها إلى مصر يستدعون والياً من قِبَلهم [لميلهم][٢] إلى الإسماعيلية ونُفورهم من التُّرك .

ووصل خلَف بْنُ مُلاعب في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ وتسلمها ، وعاد إلى الفساد وقَطْع الطريق ، وقتل خَلْقاً من أفامية .

وأمَّا الملكُ رضوان فإنَّه خَرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدَّولة حسين ، ووصله يغي سيان ويوسف بن أبق مِنْ أنطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا إلى الرُّها ، ومعهم رهائن أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المُقِيمين فيها من أصحاب والده .

١ ـ لطغتكين ترجمة قصيرة في تاريخ ابن عساكر ، نشرتها في ملاحق ـ المدخل ص ٤٠٨ .
٢ ـ أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ـ أنظر ترجمة خلف بن ملاعب .

فلمّا نزلوا الرّها أراد يغي سيَان ويوسف أن يقبضا جناحَ الدَّولة ويتفرَّدا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطعَ الفُرَات ، وَوَصل حلبَ ، وتبعه رضوان ، فدخل حلبَ ، وهرب رهائن الرّها من العسكر ودخلوها ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

وكتب رضوان إلى سكمان - واقطاعه سروج - يستدعيه إلى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفُرات فلقيه يوسف بن أبق في عدّةٍ وافرةٍ فخافة سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناحُ الدَّولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وُصُول رضوان من الرُّها قد سَيَّر جماعةً من عسكر حلب إلى معرَّة النُّعمان مع عضب الدَّولَةِ لأخذها من يغي سِيان .

وكاتب وثّاب بن محمود فوصل ببني كلابٍ لمساعدَتِهِ على أخذ المعرّة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلّموها .

وعاد عضبُ الدَّولة ووثّاب ، فلمّا وصلا حلبَ حدث ما ذكرناه من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناحُ الدَّولة بالعسكر ، فلقيه يوسف بالقرب من مَرج دابق فهَرَب يُوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك

---

١ - سكمان بن ارتق . انظر المدخل ص ٣٨٨ . ومن المفيد مقارنة ما جاء هنا بما جاء في الترجمة لوجود بعض التعارض .

٢ - سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان .

سكمان ، ودخل يوسف أنطاكية . وعاد جناح الدَّولة وسكمان ووثّاب وأبق إلى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرَّة النُّعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصدِ دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فَلَمَّا نزلا دمشق ، وَصل إليهما أن دُقاق قبض على نجم الدين إيلغازي ابن أرتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان إلى حلب ، وسار سكمان إلى بيتِ المقدس وتسلّمها من نُواب أخيه وأقام بها .

وَرَاسَلَ يوسف بن أبق الملك رضوان واستأذنه في الوصول إلى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثُم خافَ رضوان وحسين منه فتقدَّما إلى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن[1] بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فَقَتَلُوه ونهبوا دارَه وأخذوا رأسه ، وسيَّروه إلى بزاعا ومَنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على اقطار أخيه وأصحابها ؛ وهربوا من حلب ، وكان الملك قد تَوَهَّم منه الارتداد عن الاسلام .

ثم أنّ رضوان وجناحَ الدَّولة خرجا في سنة تسع وثمانين إلى تَلّ باشر ؛ وشيح الدّير[2] ، وفتحاها بالسّيف من أصحاب يغي سِيان ، وأغارا على

١ ـ المجن الفوعي ، مقدم أحداث حلب . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢ .
٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، ٤٧٤ .

أعمال أنطاكية ، وعادا إلى حلب ، وسارا في أول شهر رمضان منها إلى دمشق .

فسار يغي سيان مُنجداً لدقاق فضعفَت نَفْس رضوان ولم يتمكن من العودة ، فسار إلى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقامُوا متحابسين مدة .

وأشرف عسكر رضوان على التّلف فانْفَصَلَ عنه جناحُ الدَّولة ، وهرب على طريق البرية إلى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدّةٍ وحَصَلا بجميع العساكر بحلب .

وَعَادَ دُقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سيان إلى أنطاكية . وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البريّة حتّى وصل حلب على البرية في المحرَّم من سنة تسعين وأربعمائة .

واجتمع بجناح الدَّولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج دُقاق وطُغتكين ، فوصلا حَمَاه وعاثَ العسكرُ في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا إلى كفرطاب في الثَّاني من ربيع الأَوَّل ، فقاتلوها ، ونهبوها ، وقرّروا على أهلها مالاً .

وهرب أصحاب سكمان من المعرّة فتسلّمها يغي سيان وقرّر عليها مالاً ، وتنقَّل العسكر في الجَزْر[1] وغيرها من أعمال حلب ، فاستنجد رضوان

١ ـ الجزر كورة من كور حلب وقعت بينها وبين أنطاكية . معجم البلدان .

بسليمان بن إيلغازي صاحب سُمَيْسَاط[١] فوصل بعسكرٍ كثيرٍ إلى حلب .

وجمع رضوان مَنْ قَدَرَ عليهِ من التُّرك والعرب وأحداث حلب ، ونزل عسكر دُقاق بقنّسرين .

ونزل عسكرُ حلب بحاضر قنِّسرين فاتّفق الأَمر على أن يجتمعوا على نَهر قُويق ويتحدّثوا ، فاجتموا وتحدّثوا ، والنهر بينهم ؛ فلم يتَّفق الصُّلْحُ ، فقال يغي سيان لسكمان : «هؤلاء المُلوك يقتتلون على ملكهم ، أنتَ يا بيَّاع اللَّبن دخولُك معهم لأي صِفة ؟» قال : «غداً تُبصر ايش أنا» .

فأصبحُوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وأربعمائة فَأَبلى سكمان بَلاءً حسناً .

ولم تزل الحرب بَينهم إلى آخر النهار ، فانهزم يغي سيان إلى أنطاكية ، ودقاق وطغتكين إلى دمشق ؛ وأسر في الحرب اصباوه[٢] ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب إلى دمشق ولم يقتل من العسكر إلّاالقليل .

وَقَتَل الفلاّحون في الطَّريق وقتَ الهزيمة مِنَ الأرمن الذين كانوا مع يغي سيان جماعةً كثيرةً ، وتغيّرت نيّة الملك رضوان على جَناح الدَّولة حسين

١ ـ سميساط مدينة على شاطىء الفرات ، هي الآن في تركيا . معجم البلدان ـ الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨٠١ .

٢ ـ من أمراء التركمان وقادة جيوشهم وهو عند ابن الأثير في الكامل : ٢٢٨/٨ «أصبهبذ صباوو» .

فَهَرب من حلب إلى حمص ، وخرج من حلب ليلاً ومعه زوجته أُمّ الملك رضوان ؛ وأقام بحمص لأنها كانت في يده وحَصَّنها .

ووصل يغي سيان إلى حلب عقيبَ ذلك ، وخدم رضوان ، ودبّر أمره ، وتزوَّج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك[1] .

وعوّل رضوان على قصد جناح الدّولة بحمص ، وقصد دقاق بدمشق ، وَوَصَلَهُ رسولُ الأَفضل[2] من مصر يدعوه إلى طاعة المُستعلي وإقامة الدَّعوة له ، وعلى يده هدّية سنيّة من مصر ، وَوَعَده بأن يُمدَّه بالعساكر والأَموال .

فتقدم بالدَّعوة للمصريين على سائر منابر الشّام التي في يده ، ودعا الخطيبُ أبو تراب حيدرة بن أبي أسامة بحلب للمُستعلي ثُمّ للأَفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السَّابع عشر من شهر رمضان من هذه السَّنة .

وكان قد ولّى الخطابة أبا تُراب وعَزَل جَدَّ أبي غانم أبا محمَّد بن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب ، لأَن توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سَنَة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السَّنة المذكورة ، وهو على القضاء والإمامة بحلب .

---

١ ـ انظر المدخل ص ٣٨٨ .

٢ ـ الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المتحكم بالخلافة الفاطمية . انظر المدخل ص ٣٩٢ .

وولى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضل الله الزَّوزني العجمي الحنفي ، وسَيَّره رسولا إلى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي أسامة الحلبي ، ودامت الدَّعوة بحلب إلى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وقيل : لم تَدُم أكثر من أربع جمع[١] .

وأعادها رضوان للإمام المستظهر ثم للسّلطان بركيارق ثمَّ لنفسه ، ولم يصحّ له مما التمسة من المصريين شيءٌ .

وأعاد القضاءَ والخطابة إلى جدّ أبي أبي غانم على قاعدته الأولى ، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، حين قُتل الزَّوزَنيّ ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقِتل في بعض الدُّروب ؛ وكان أزرى على الباطنيّة وعلى معتقدهم فقيل إنّهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا إلى شيزر متوجّهين إلى حمص لقصد[٢] حمص ، فتواصلت الأَخبارُ بوصول خَلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : «عودُنا إلى أنطاكية ولقآء الفرنج أولى» ، وقال سكمان : «مسيرنُا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلّبين عليها ونتقوى بها ، وأُنزل أهلي بها ونعود إلى حمص أولى» ؛ واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلاً وكان معه وزيره أبو النّجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولّاه وزارته حين ملك

١ - انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ .
٢ - في تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ «لمعاودة النزول على دمشق» وهو الأقوم .

حلب ، فاتهماه أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع إلى حصن شيزر، وأقام به عند ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار إلى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مُغاضباً ليغي سيان وسكمان عَادَ[1] والأمراء من شيزر إلى أنطاكية، وبلغهم نزول الفرنج البلّانة ونهبها[2] .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدَّولة ومحمداً ، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبثَّ كتبه إلى جناح الدَّولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمَّد ابنه إلى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس إلى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان للتجَّار ؛ ونهبوا اللاَّذقية ، وعادوا ، وَوَصَلت الفرنج إلى الشَّام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين ألف إنسان ، لأنَّهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثَّاني من شوّال نزلت عساكر الفرنج على بغراس[3] وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عَصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لأنطاكية ، وقتلوا مَنْ كان بها ، وهرب مَنْ هَرَب منها .

١ ـ الضمير يعود هنا إلى يغي سيان . انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٢ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .
٣ ـ بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب . معجم البلدان .

وفعل أهل أرتاح[1] مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ، وهذا كله لقُبْح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرّم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ألفاً من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فأفسدوا ونهبوا وقَتَلُوا مَنْ وجَدُوا .

وكان قد وَصَل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدَّولة ، ونَزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السريّة ، فساروا إليها بقطعة من العسكر ، فلقوهم في أرض البارة[2] فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفرنج إلى الروج[3]،وعرجوا منه إلى معرّة مصرين[4]، فقَتَلُوا مَن وجدوا وكسروا منبرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما إلى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدّتهم ، فانهزم

١ - أرتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب . معجم البلدان .
٢ - بليدة في منطقة أريحا محافظة ادلب السورية ، كان بها حصن ، ما زالت خرائبها شاهدة على عظمة ماضيها ، انظر معجم البلدان وانظر الخبر أيضاً عند ابن القلانسي ص ٢١٩ .
٣ - الروج من كور حلب المشهورة في غربيها . معجم البلدان .
٤ - معرة مصرين من قرى محافظة ادلب وتتبع إداريا لها وتبعد عن ادلب مسافة ١٠ كم .

عسكر المسلمين إلى حارم[1] وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السَّنة وصل خلقٌ من الأرمن إلى تل قبّاسين بناحية الوادي فقَتَلُوا مَنْ فيه، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون إلى بعض الحُصونَ الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى إلى حلب فقُتِلُوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نَزَلَ الفرنجُ ـ لَعَنهُم الله ـ بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البَلَد خندَقاً لأجل غارات عسكر أنطاكية عليهم وكثرة الظَّفر بهم ، ولا يكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود إلَّا ظافراً .

وجعل يغي سيان النَّاس على البُعد والقُرب ، وكان حسن التَّدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحبُ المَوصل عسكراً عظيماً ، وقطع به الفرات ، ووصل دُقاق وطُغتكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دُقاق .

ووصل وثّاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشّام ، وقَرَّر عليهم

١ ـ حارم الآن من مناطق محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم .

دقاق مالاً أخذ بعضَه ورهائن على الباقي ، وسيَّرهم إلى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر إلى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جُمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أوّل ليلة من رجب واطأ رجلٌ يُعرَف بالزّرَّاد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولّون حفظه ؛ وذلك أن يغي سيان كان قد صادَر هذا الزّرَّاد وأخذ مالَه وغلَّته ، فحمله الحنقُ على أن كاتب بيمند وقال له : «أنا في البُرجِ الفُلاني ، وأنا أُسلِّمُ إليك أنطاكية إنْ أمنتني وأعطيتني كذا وكذا» . فبذل له ما طلب ، وكتم أمرهُ عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدّمين عليهم كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن اخته طنكريد وصَنجيل وبَغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمندُ وقالَ لهم : «هذه أنطاكية إنْ فتحناها لمن تَكُونُ ؟» فاختلفوا ، وكُلٌّ طلبها لنفسه ، فقال : «الصَّوابُ أن يحاصرها كُلُّ رجلٍ منا جُمعة ؛ فَمَنْ فُتِحَت في جمعته فهي له» ، فرضوا بذلك .

فلما كانت نوبتُه دّلى لهم الزّرَّاد ـ لَعَنَه الله ـ حَبْلاً ، فطلعوا من السُّور ، وتكاثروا ، ورَفَع بعضهم بعضاً وجاءوا إلى الحراس ، فقتلوهم ، وتَسَلَّمه بيمند بن الانبرت[1] .

١ ـ معلومات ابن العديم هنا على درجة عالية من الدقة ، والانبرت هو الامبراطور ، أرادبه والد بوهموند جويسكارد النورمندي ، وهناك خلاف حول أصل وشخصية الزراد . انظر وقارن وليم الصوري ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمتي ـ ط . بيروت ١٩٩٠ ص ٢٧٩ ـ ٣٣٢ .

وطَلَع الفرنج في سحرة هذه اللّيلة إلى البلد وصاح الصَّائح من ناحية الجبل ، فتوهّم يغي سيان أنَّ القلعة قد أُخذَت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولَمَّا حَصَل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأَرمن ؛ فهرب الخادم عنه ، وقَتَله الأَرمن وحملوا رأْسه إلى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوتُ الإحصاء ويجاوزُ العَدَد ، ونُهبت الأَموالُ والآلات والسّلاح ؛ وسُبي مَن كان بأنطاكية ، وَوَصَل هذا الخبرُ إلى عِمّ وانّب[1] ، فهَرَب مَنْ كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغَ الخبرُ إلى دُقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا إلى أرتاح ، وسار بعضهم إلى جسر الحديد[2] وقَتَلُوا مَنْ كان فيه من الفرنج ، وتوجّهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا أنَّ قلعتها باقية في أيدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الإسلامية بذلك ، فوصلوا إلى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم مَنْ كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

١ - إنب : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب . وعم قرية غناء بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان .
٢ - انظر وليم الصوري ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وجسر الحديد كان مقاماً على العاصي انظر خريطة أنطاكية ص ١٢٤ من وليم الصوري .

ونزل المسلمون بظاهرها ممّا يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنجُ على التّلف فبنوا سُوراً على بعض الجبل يمنعُ المسلمين من النزول إليهم ، وأقاموا أيّاماً ، وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير ممّا كان في قلعة أنطاكية ، وولّى فيها أحمدَ بن مروان ، وترادفتْ رُسُل الملك رضوان في أثناء ذلك إلى كربوقا ، فَتَوهَّم دُقاق من ذلك ، وخَافَ جناح الدَّولة من أصحاب يوسف بن أبق وأخيه .

وجَرَت بين الأتراك والعرب الّذين مع وثّاب منافرةٌ عادوا لأجلها ، وَتَفَرَّق كثير من التّركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيَّل بعضُ الأمراء مِنْ بعض ثم اجتمع رأيهم على التَحوُّل إلى المنازلة في السَّهل بظاهر أنطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجَعَل المسلمون بينهم وبين البلد خندقاً .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدّواب ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السَّادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثّاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الأمراء أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم ويُقْتَلوا أوّلاً فأوّلاً ، فلم يعرّج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقَنوا بالظَّفر بالفرنج ، وخَرَجُوا بأجمعهم في خلْق عظيم .

وعاثَ التّركمان في العسكر فانهزم ، وتوهّم الفرنج أن ذلك مكيدة

فتوقفوا عن تبعهم ، فكان ذلك سبباً لسلامة من أراد الله سَلاَمَته ؛ ولم يَبْقَ غير كربوقا ومعه أكثر عسكره ، فأحرق سرادقة وخيامَه وانهزم نحو حلب .

وقُتل من المطوعة والغلمان والسُّوقة خلقٌ كثير ، ولم يُقتل مذكورٌ ، ونُهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلّات ما لا يُحصى ، ومَن انقطع من العسكر نَهَبَهُ الأرمن[1] .

وعَادَ الفرنج إلى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسَلَهُ الفرنج وأمّنوه ، ومَن كان معه ، وسَلّمها إليهم يومَ الأحد الثّاني من شعبان من السّنة ، وأنزلوهُ في دارٍ بأنطاكية وأطلقوا أصحابَهُ وسَيَّرُوا مَعَهم مَنْ يُوصِلهم إلى أعمال حلب ؛ فخرج الأرمنُ فأخذوا بعضَهم وَقَتَلُوا بعضهم ، ولم يَسْلَمْ منهم إلّا القليل .

وَلَمّا وَصَل كربوقا إلى حلب خرج إليه الملك رضوان ، وحمل له خياماً وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكَرُ دمشق إليها وتفرَّقت العساكر .

وبعد أيّام مِن هذه الوَقْعَة خَرج جماعةٌ من الفرنج في شعبان ، وزَحَفُوا مع أهل تلمنس وجميع نَصارى بلد المعرَّة على المعرَّة وقاتلُوها ، فوصلتْ قِطعةٌ من عسكر حلب إليهم ، فالتَقَوا بَيْنَ تلّ منس والمعرّة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجَّالةُ منهم ، فَقُتِل منهم زائداً عن ألفِ رجل ، وَحُمِلَتْ رُؤوسهم إلى معرَّة النُّعمان .

---

١ ـ انظر يوميات صاحب أعمال الفرنجة في كتابي الحروب الصليبية ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٢٣٩ ـ ٢٦١ . وليم الصوري ص ٣٣٧ ـ ٣٦٤ .

وفي هذه السَّنة ـ وهي سنة إحدى وتسعين ـ في جُمادى الأولى عَزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ؛ وولّى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول . وكان أبو الفضل حسَن السّيرة جواداً كثير المعروف والصَّدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء والجوع بحلب ، حتّى أكلوا الميتات ، فأخرج غلّة كثيرة ، وتصدَّق بها على النَّاس .

وقيل : إنَّه كان يخرج في كل سنة صدقة وبرّاً ثلاثة آلاف مكوك غلّة سوى ما يُطلقه لمن يسأله معونته من الوفودِ والضّيوف ، وغير ما يُطلقه من العَيْن والوَرقِ وغير ما كان يعتمدُ من افتكاك الأسرى من المسلمين .

وفيها قَتل الملكُ رضوان رئيسَ حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجنّ ، وكان هذا المجن أوّلاً من جُملة اللّصوص الشُطّار وَقُطَّاع الطّريق الذُعَّار فاستتابه قسيمُ الدَّولة أق سنقر ، وولاَّه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللّصوصية يُصَلّي العشاء الآخرة بالفُوعة[1] ، ويَسري إلى حلب ويسرق منها شيئاً ويخرج ، وَيُصَلّي الفجرَ بالفُوعة فاذا اتهم بالسّرقة أحضر مَنْ يَشْهَد له أنّه صَلَّى العِشاء بالفُوعة والصُبح فيبرئونه .

واستمرَّ على رئاسة حلب في أيّام قَسِيم الدَّولة وأيّام تاج الدَّولة وبعده في أيّام رضوان ، وامتدَّت يَدُه وحكم على القُضاة والوزراء ومَنْ دُونَهم ، وهو الَّذي قتل الوزير أبا نصر بن النّحاس في أيام قَسِيم الدَّولة .

١ ـ الفوعة الآن من قرى محافظة ادلب وتبعد عنها مسافة ١٣ كم .

وبلغني أنه حنق عليهِ بسَبَبِ حُصرٍ أراد شراءَها فاشتراها المجنّ ، فشقَّ على أبي نصرٍ . فَسَيَّرها المجنّ إليه ، فردَّها عليه أبو نصر ، وتكلّم في حقِّه بكلام قبيحٍ فحنق بسببها على ابن النَّحاس ، فاعتقله بعد ذَلِك عندَه وخَنَقَهُ .

وكانَ كثيرَ السّعَاية في قَتْل النُّفُوس وسَفْكِ الدِّماء وَأَخذ الأَموال وارتكاب الظُّلم ، فعَصَى على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولَّى رئاسة حلب صاعد بن بَديع فانقلب الأَحداث عنه لبغضهم إيّاه ، ومضَوا إلى صاعِد فاختفى المجنّ ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلّط عليهِ الملك رضوان فسَجَنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذَّبه عذاباً شديداً بأنواعٍ شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله . فممّا عذّبه به أنّه أحمى الطسْتَ حتّى صار كالنَّار ، ووضعه على رأسه ، ونَفَخ في دبره بكير الحدّاد ، وثُقب كعابه ، وضَرب فيها الرُّزز والحَلق .

ولمَّا وضع النّجار المِثقَب على كعبه قَطَع الجلْد واللَّحْم ولم يَدُر المِثقب ، فلطَمه المَجَنُّ وقال : «ويلَك لا تعرف ! أحضر خشبةً ، وضَعْها على الكعب» . فأحضرَ خشبةً ووضعَها على كعبة ، فدار المثقب ونزل وَنَزَل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قِيل له : «كيفَ تَجد طعمَ الْحديد ؟» فقال : «قُولوا للحديد كيف يَجِدُ طَعْمي» ، ولم يُقرّ المجنّ مع هذا كلّه بدرهمٍ واحدٍ ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلّا ما أقرَّ به غلامٌ أَوْ جاريةٌ ؛ وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأمر على رضوان أشِير عليه بقَتْله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشّرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلاً الشباب ، فقُتِلا قبله ؛ وهو ينظُر إليهما ولا يتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين ، وسلّمت رئاسة حلب إلى صاعد بن بديع ، ولما قُدم المجنّ للقَتْل صاحَ بصَوت عالٍ : «يا مَعْشَر أهل حلب ، مَنْ كان لي عنده مَالٌ ، فهُوَ في حِلٍ منه» .

وكان ابنُ بديع من أولاد الدَّيْلَم الّذين كانوا في أيّام سَيف الدَّولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة عصىَ عُمر والي عَزاز على الملك رضوان فَخَرَج عسكر حلب وحَصَره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صَنجيل بعسكرٍ كبيرٍ ، فعادَ عَسْكَرُ حلب فنهب صنجيل ما قَدر عليه وعَاد إلى أنطاكية ، وأَخذ ابنَ عُمَرَ رهينةً ، فمات عنده ، فوقع الملك رضوان على عُمر إلى أن أَخَذَه من تلّ هراق[1] فسلَّم إليه عَزاز وأقام عنده بحلب مدَّةً ، ثم قتله .

١ ـ انظر حوله الأعلاق الخطيرة لابن شداد ـ قسم حلب ـ ط . دمشق ١٩٩١ ج ٢ ص ٦٤ .

وخرج صنجيل في ذي الحجَّة ، وحصر البارة فقل الماءُ فأخذها بالأمان ، وغَدَر بأهلها ، وعاقب الرّجال والنّساء ، واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً ، ثم خرج بقيّة الفرنج من أنطاكية والأرمن الّذين في طاعتهم والنّصارى ، وانضموا إليه ، ووصلوا إلى معرّة النّعمان لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرّة النُّعمان في سنة اثنتين وتسعين ، وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج بُرجاً من خشبٍ يحكم على السّور وزحفوا إلى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البُرج بالسّور فكشفوه وأسندوا السَّلاَلم إلى السّور وثبتَ النَّاس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقُتِل على السُّور وتحته خلقٌ كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرَّابع والعشرين من محرَّم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج ـ جميعُه إلى البلد ، وانهزم بعضُ الناس إلى دورٍ حصينةٍ ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمّنوهم ، وقَطَعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدُّور ، وهجموها وناموا فيها ، وجعلوا يهدّئون النّاس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفَهم ، ومالوا على النّاس ، وقَتلوا منهم خلقاً ؛ وسبوا النّساء والصّبيان .

وقُتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأةٍ وصبيّ ، ولم يسلم إلاَّ القليل مِمَّن كان في شيزر وغيرها من بني سُليمان وبني أبي حُصين

وغيرهم ، وقتلُوا تَحْت العُقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذَخائِر النَّاس ، ومنعوا النَّاس من الماء ، وبَاعُوا مِنْهم فهَلك أكثر النَّاس من العَطَش ، وملكوها ثلاثةً وثلاثين يوماً بعد الهجمةِ ، ولم يُبْقوا ذخيرةً بها إلاَّ استخرجُوها .

وهَدَمُوا سورَ البَلَد وأحرقوا مساجدَه ودُورَه وكسروا المَنَابِرَ[1] . وعَاد بيمند إلى أنطاكية وقمص الرّها إليها ، وفي هذه السّنة فَتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرّة[2] .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وَصَل مُبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، وَرَعوْا زَرع المعرَّة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر ، والجسر ، وغَيْرَ ذَلك .

وخَلَتِ البلادُ ، ووقع الغَلاَء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلّط الله الوباء على العَرب ، فماتَ شبلٌ ومُبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوّجه الملك رضوان في سَلْخ رجب من هذه السّنة إلى الأثارب وأقام عليها أيّاماً ، وتوّجه إلى «كلاَّ» في الخامس والعشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها ، فاجتمع مَن كان في الجزر وزردنا وسَرمين مِن الفرنج

١ ـ انظر الحروب الصليبية ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ .
٢ ـ انظر الحروب الصليبية ص ٢٧٨ ـ ٢٨٢ .

والتقَوا ؛ فانهزم رضوان ، واستبيح عسكرهُ ، وقُتل خلقٌ كثيرٌ وأُسر قَريبٌ مِن خمسمائة نفسٍ وفيهم بعضُ الأمراء[1] .

وعاد الفرنج إلى الجزر وأخذوا برج كفر طاب[2] وبُرج الحاضر ، وصار لهم من كفر طاب إلى الحاضر ، ومن حَلب غرباً سوى تلّ منس فإنّ أصحابَ جناح الدَّولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه النَّكبة إلى حمصَ مُستنجداً بجناح الدّولة فأجابه ، وعاد إلى حلب ومعه جناح الدَّولة ، وقد عاد الفرنج إلى أنطاكية ، فأقام جناح الدَّولة بظاهر حلب أيّاماً ، فلم يلتفت إليه رضوان فعاد عنه إلى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزرْ وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العُدد والغِلال لِحصَار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد إلى قرب حلب فنزلوا المُشرفة ـ من الجانب القبلي على نَهر قُويق ـ لما بلغهم مِن ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجفّ ، ومشهد الدّكَّة ، ومشهد قرنبيا حصوناً ، وأن يُقيْموا على حلب ويستغلوا بلدَها .

فأقاموا في تَدبير ذَلك يوماً أو يومين فبلغهم خروج أنوشتكين

١ ـ انظر المدخل ص ٣٩٢ .
٢ ـ تبعد خرائب كفرطاب عن خان شيخون ـ الى الغرب منها ـ قرابة ٣ كم .

الدَّانشمند ، وأنه قد نازل بَعْضَ معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدَّفع عنها .

فخرج الدَّانشمند فلقي بيمند وجمعاً من الفرنج بأرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يُفلت منهم أحدٌ ، فخيَّب الله ظنَّ الفريج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدّوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدّولة إلى أسفونـا وبه جماعةٌ من الفرنج فهجمه وقَتَل جميع من فيه ، وسار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ؛ وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعةً وحملهم إلى حمص .

وطلب الحكيم المنجِّم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بَيْنَهُ وَبَين رضوان واستمال رضوان إلى الباطنية جدّاً ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاهُ العظيم والقُدرة الزَّائدة ، وصارت لهم دارُ الدَّعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ؛ فوصل هذا الحكيمُ حلب سالماً في جملة من سلم في هذه الوقعة .

واستغلَّ جناحُ الدَّولة سرمين ومعرَّة النُّعمان وكفرطاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصول نفسهُ من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار ، وفدى أصحاب الملك نُفُوسهم أيضاً بمالٍ حملوه إليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلّا حصن بَسرفُوث[1] ـ من عمل بني عليم ـ وتسلم دُقاق الرَّحبة في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وكان المُقيم بها زوج آمنة بنت قيماز[2]، وكان قيماز من أصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرّحبة له ، وكان جناح الدَّولة قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات ، فعاد ونزل النّقرة وخرج إليه رضوان إلى النقرة واصطلحا ، وأخذه معه إلى ظاهر حلب ، وضرب له خياماً ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصفُ قلب أحدٍ منهما لصاحبه .

وسار جناح الدَّولة إلى حمص فسَيَّر الحكيم المنجِّم الباطني ثلاثة أعجام من البَاطِنِّية فاغتالوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض أصحابه وقُتلوا ، وقيل : إنَّ ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجِّم الباطني بعده أربعة وعشرين يوماً ومات ، وقام بَعْدَهُ بأمِر الدَّعوة الباطنيّة بحلب رفيقه أبو طاهر الصَّائِغ العجميّ .

وَوَصل صنْجيل الفرنجي وَنَزل حمص بَعُد قتل جناح الدَّولة بثلاثة أيّام ، فَسَيَّرت زوجتُه خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم إليه حمص ويدفع الفرنج ، فكرهَ المقدَّمُون ذَلك ، وخافوا منه لسُوءِ رأْيه فيهم ، وسيَّروا

---

١ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ١٣٨ .
٢ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢٢٩ .

إلى نواب دُقاق إلى دمشق ، وكان دُقاق بالرّحبة فسار أيتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القَلعة .

ووصل رضوان إلى القُبَّة[1] فبلغه الخَبَر وعاد وَرَحَل صنجيل عَنْها بعد أن قرَّر عليهم مالاً ، ووصل دُقاق فتسلّم حمص وأحسَن إلى أهلها وَنَقل أهل جناح الدَّولة وأولاده إلى دمشق ، وسلم حمص إلى طغتكين .

وسارَ والي عَزاز وأغار على الجُومة ـ وهي من عَمل أنطاكية ـ فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرُّها فنزلوا المسلميّة[2] ، وقتلوا بعض أهلها ، وقطعوا على عدّة مواضع قطائع أخذوها ، وأقاموا ببلَد حلب أياماً ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة آلاف دينارٍ وعشرة رُؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ما خلا مَن أسَروه على المسلمية من الأمراء ، وذلك في سنة ستّ وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تلّ باشِر ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشّرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بَسَرْفُوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا إلى كفرلاثا[3] ، فكبسهم بنو عُليم فانهزموا إلى بَسَرفُوث .

---

١ ـ قبة ابن ملاعب «وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية» . معجم البلدان .

٢ ـ المسلمية من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٥ كم .

٣ ـ بلدة من نواحي حلب بينهما يوم واحد . معجم البلدان .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنجَ ، وأسر القُمص ، وغنم المسلمون غنيمةً عظيمةً[1] .

وكان الملكُ رضوان قد سار إلى الفُرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر أنفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب الّتي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على مَن عندهم من الفرنج ، فوثب أهل الفُوعة وسَرمين ، ومعرّة مصرين وغيرها ، ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمّنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولَم يبقَ بأيدي الفرنج غير الجبل و«هَاب»[2] ، وحُصُون المعرَّة ، وكفرطاب ، وَصوران[3] .

فوصل شَمسُ الخَواص وفتح صورَان ، فهرب مَن كان بلطمين وكفرطاب وبلد المعرّة والبارة إلى أنطاكية ، وسلَّموها إلى رضوان وأصحابه ما خَلاَ «هَاب» .

واسترجع رضوان بالس[4] والفايا ممن كان بها من أصحاب جناح الدَّولة

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص٢٣٢ .
٢ ـ هاب قلعة عظيمة من العواصم . معجم البلدان .
٣ ـ ما تزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافة ١٨ كم إلى الشمال منها .
٤ ـ اسمها الآن مسكنة تبعد عن حلب مسافة ٩٠ كم . والفايا كورة بين منبج وحلب . معجم البلدان .

وجرى بحماة خُلفٌ ؛ وخافوا من شمس الخواص ، فكاتَبوا رضوان ، وسلَّموها إليه وسلمية ، فأمنت أعمالُ حلب وتراجع أهلها إليها وقوي جأشُ رضوان .

واتّصلت غارات عسكر حلب إلى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنّه لم يُفلت من وقعة سكمان إلا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فَصار إلى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم إلى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يُدبّر أمرَ أنطاكية والرّها[1] .

ومَاتَ الملكُ دُقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولدٍ له صغير اسمه تتش[2] ، وجعل التدبير إلى أتابك طغتكين ، فتوجّه الملكُ رضوان نحوَ دمشق ، وحَاصرها ، وقرّر له الخُطبة والسكَّة ، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب .

ثم إنَّه خرج في شهر رجب في سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقاً كثيراً ، وعزم على قصد طرابلس مَعُونةً لفَخر المُلك بن عمَّار على الفَرنج النَّازلين عليه .

وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سَلَّموه إلى الملك رضوان لجور الأفرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميعُ من في

١ ـ أنطاكية نعم أما الرها فكانت دويلة قائمة بذاتها لها حاكمها .
٢ ـ انظر ترجمة دقاق منتزعة من تاريخ دمشق لابن عساكر . المدخل ص ٣٨٦ .

أعماله من الفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجّه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فَلَمَّا تقاربا نشبت الحربُ بين الفريقين فثبت راجلُ المُسلمين وانهزمتِ الخيل ، ووقعَ القتل في الرجالة فلم يسلم منه إلّا من كتب الله سلامته ، ووصل الفَلُّ إلى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبى من سبى ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلُون إلى شيزر ، وتبدّل الخوف بَعد الأمنِ والسّكون ، وهَرَب أهلُ الجزر وليلون إلى حلب ، فأدركهم خيلُ الفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه النَّكبةُ على أعمال حلب أعظم من النَّكبة الأولى على كلاَّ . ونَزَل طنكريد على تلّ أعذىً ـ من عمل لَيْلُون ـ وأخذه وأخَذَ بقيَّة الحصون الّتي في عمل حلب . ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلَّا حماة ومن الغربيّة إلّا الأثارب ، والشَّرقية والشّمالية في يده ، وهي غير آمنة .

وسيَّر أبو طاهر الصَّائغ الباطني جماعةً من الباطنيَّة من أهل سرمين إلى خلف بن مُلاعب بتدبير رجلٍ يُعرف بابن القنج السَّرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعَة من أهل أفامية ، ونقبوا سورَ الحصن ، ودخلوا منه ، وطَلَع بعضهم إلى القلَّة فأحسَّ بهم ، فخرج فطعنهُ أَحدُهُم

بخشت[1] فرمى بنفسه ، فطُعن أُخرى فمات ؛ ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل أبو طاهر الصَّائغ إلى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد إلى أفامية ، فقطع عليها مالاً أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض أصحابه ، فأطمعوه في أفامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلَّمها في الثَّالث عشر من مُحرّم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السَّرميني بالعقوبة ، ولم يف لأبي طاهر الصَّائِغ بالأمان ، وحمله معه أسيراً فاشترى نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة إحدى وخمسمائة ، عصى ختلغ بقلعة عزاز ، واستقرّ أن يُسلّمها إلى طنكريد ، ويعوّضهُ عنها موضعاً غيرها ، فسار رضوان إليها فتسلم عزاز منهُ .

وبَلَغَ رضوان ، في سنة إحدى وخمسمائة ، ما ذُكر بِه من مشايعة الباطنيَّة ، وأنّه لُعن بذلك في مجلس السُّلطان مُحمَّد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطنيّ الذي عمل في قتل ابن مُلاعب ما دبر الخروج من حلب فيمن معه ، فانسلّ وخرج بجماعة من أصحابه بعد أن قُتل أفرادٌ منهم .

وفي سنة إحدى ـ وقيل : اثنتين ـ وخمسمائة اجتمع جَاولي سقَاوه وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب أنطاكية ؛ واستنجد

١ ـ الخشت من أنواع النبل أو الخناجر .

طنكريد بالملك رضوان ، فأمدّه بعسكر حلب والتقوا ، فقُتِلَ من الفرنج جماعة .

وَوَصَل إلى جَاولي من أخبره أنَّ الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجالة طنكريد وأكثر خيله .

وعاد إلى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلَّم بالس من أصحاب جَاولي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه خلق عظيم ، ثم عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السُّلطانُ الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج ، فجمعًا وسارا ، ووصل إليهما نجمُ الدّين إيلغازي بن أرتق في خلق كثير من التّركمان ، فرَحَلوا إلى الرّها فنَزَلُوا عليها وأحدقُوا بها في شوّال من هذه السَّنة .

فاتّفق الفرنج كلّهم ، وأزالوا ما كان بينهم من الشَّحناء ، وكان المسلمون في جمعٍ عظيمٍ ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النّفار ، وقصدوا إنجادَ مَنْ بها مِن الفرنج ، وأحجموا عن العبور إلى الجانب الجَزري لكثرة مَنْ به مِنْ عساكر المسلمين .

فاندفع المُسلمون عن الرّها إلى حرَّان ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، وَوَصلهم عَسْكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وَبَلَغَهُم خَبَرُ المُسْلِمِينَ عادوا ناكصين على الأَعْقَاب إلى شاطىء الفُرات ، فنهض المُسلمون في أَثرهم ، وأدركتهم خيول الإسلام ، وقد عبر الأجلادُ مِنهم ، فغنم المسلمون جُلَّ سَوَادِهِم وأكثَرَ أثقالهم ، واستباحوهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الماء ، وأقام المُسلمون بإزائهم على الفرات .

ولما عَرف الملكُ رضوان هزيمة الفرنج عن الرّها خرج ليتسلَّم أعمالَ حلب الّتي كانت في أيدي الفرنج ، وقَاتَل ما امتنعَ عَلَيْهِ منها ، وأغار على بلد أنطاكية وغَنِم منها ما يجلّ قَدْرُه ، وكان بينه وبينهم مهادنَةٌ نَقَضَها .

وكاتب الفرنجُ رضوان يُوهِنُونَ رأْيَه في نقض الهُدنة ، فلمّا تحقَّق سلامة طنكريد وعَوْدَهُ رَجَع إلى حلب .

وعاد الفرنجُ مِن الفُرات فقصدوا بلد حلب من شرقيّها ، فقتلوا مَنْ وَجَدُوا ، وسَبَوْا أهل النّقرة ، وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي .

وهَرَب النَّاسُ نحو بالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب[1] ، وطيَّب قلوبَ الفلاَّحين مِن المسلمين ، وأَمَّنَهم ، ونَصَب على الأَثارب المناجيق وكبشاً عظيماً ينطح به شرفات الأسوار فيلقيَها ، فخرب أسوارها وكان يسمع نطحه مِنْ مَسيرة نِصف فرسخ ،

وبذل رضوانُ لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يَرْحل فامتنع، وقال: «قد خسرتُ ثلاثين ألف دينار، فان دفعتُموها إليَّ وأطلقتم

١ ـ الأثارب من قرى محافظة حلب ـ منطقة جبل سمعان .

كلَّ عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل» . فاستعظم ذلك واتّكل على الحوادث .

وكان الّذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، وأخذها الخازِنُ على وَسطِه ، وهَرَب إلى الفرنج ، وهرب جماعَةٌ أخر من المسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتاباً على جناح طائر يُخبرونه بما تجدَّد من قُوَّة الحصار وقلَّة النفقة وقَتْلِ الرّجال ، وأَرْسَلوا الطَّائر فسقط في عسكر الفرنج ، فَرَمَاهُ أَحَدُهم بنُشَّابَةٍ فقَتَلَهُ .

وحُمِلَ الكِتابُ إلى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وَبَذل رضوان المَال المطلوب له على أن يكون أقساطاً ويضع عليه رَهَائنَ فَلَمْ يَفْعَل ، ويَئِسَ مَنْ في الأثارب من نجدةٍ تصل إليهم فسلّموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، وقبضها وعاد إلى أنطاكية .

ثم عاد وخرج إلى الأثارب ، وقد أدركت الغلّة ، وضعفتْ حلب بأخذِ الأثاربِ ضَعْفاً عظيماً ، وطلب من حلب المقاطعة التي قررها على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم إليه ، وطلب بعضَ خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حُرم الفلاَّحين المسلمين من الأثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهنّ إليه .

وضاق الأمْرُ بأهل حلب ، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج .

وقلَّت المغلاَّت في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستّين خربةً من بلد حلب لأهلها بالثَّمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستّون خربة معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا ، غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك[١] .

ولذلك يَقال ان بَيْع الملك من أصحّ أملاك الحلبيين لأنّ المصلحة في بيعها كانت ظاهرةً لاحتياج بيتِ المال إلى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيّون العساكِرَ الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهّز السّلطانُ العساكِرَ للذبّ عنهم ، فكان أوّل مَنْ وصلَ مَوْدُود صاحب المَوْصل بعسكره إلى شَبَخْتَان ؛ ففتح تَلّ قُرَاد[٢] وعدّة حُصون .

ووصل أحمديل الكُرديّ في عسكرٍ ضخم وسكمان القُطبي ، وعبروا إلى الشّام فنزلوا تلّ باشر ، وحصروها حتى أشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بِكِسْرَائيل[٣] ، وتوّجه مُغيراً على بلد شَيّزر ونازلها .

---

١ - أملاك بيت المال . المدخل ص ٣٨٩ .
٢ - تل قراد حصن في بلاد الأرمن قرب شبختان . معجم البلدان .
٣ - غير اسمه الآن إلى بني قحطان ، كان يقع أمام جبلة . معجم البلدان .

وشرع في عمارة تلّ ابن مَعْشر[1] وضرب اللَّبن وحَفَر الجِبَاب ليُودع بها الغلَّة ، فلما بلغه نزول عساكر السُّلطان محمَّد على تلّ باشر رحل عنها . وأمّا العساكر الإسلامية النازلة على تلّ باشر فانّ سكمان مات عليها ـ وقيل : بَعْدَ الرَّحيل عنها ـ وأشرف المسلمون على أخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحِبُها على أحمديل الكردي وحَمَل إليه مالاً ، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه إلى ذلك .

وكتب الملكُ رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما : «إنني قد تلفتُ وأريدُ الخُروج مِنْ حلب ، فبادِرُوا إلى الرَّحيل» ، فَحَسَّنَ لهم أحمديل الرَّحيل عنها بعد أن أشْرَفُوا على أخذها ، ورحلوا إلى حلب ، فأغلق رضوان أبوابَ حلب في وجوههم ، وأخذَ إلى القلعة رهائنَ عنده من أهلها لئلاَّ يسلّموها .

ورتَّب قوماً من الجند والباطنيَّة الّذين في خدمتِه لحِفْظِ السُّور وَمَنْع الحلبيين من الصّعود اليه ، وبقيَت أبوابُ حلب مُغْلَقَةً سَبْعَ عشرة ليلة . وأقام النَّاسُ ثلاث ليالٍ ما يجدون شيئاً يقتاتون به ، فكثرت اللّصوص مِن الضّعفاء ، وخاف الأعْيَان على أنفسهم .

وساء تدبيرُ الملك رضوان فأطلق العوامّ ألسنتهم بالسبّ له وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلدَ ، وَتَرَكَ الرُّكُوبَ بينهم .

---

١ ـ هو العشارنة في محافظة حماة في منطقة الغاب .

وضبر[1] انسانٌ من السُّور فأمَر به فضُربَتْ عُنقه، وَنَزَعَ رَجُلٌ ثوبَهُ ورَماهُ إلى آخر فأمَر به فأُلقي مِن السّور إلى أسفل ، فعاثَ العسكَر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسبيهم أهله .

وبَثَّ رضوان الحراميّة تتخطّف مَن ينْفَرِدُ مِنَ العساكر فيأخذونه ، فرحلوا إلى معرَّة النُّعمان في آخر صَفَر من سنة خمس وخمسمائة ، وأقاموا عليها أياماً وَوَجَدُوا حولها ما ملأ صدورهم مِمّا يحتاجون إلَيْهِ من الغَلاَّت وما عجزوا عن حمله .

وكان أتابك طغتكين قد حَصَل معهم ، فراسل رضْوان بعضَهم حتى أفسد ما بينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في جملة مَوْدود صَاحب الموصل ، وثَبَتَ له مَوْدُود ، وَوَفَى له .

وحَمل لهم أتابك هَدَايا وتُحَفاً من مَتَاع مصر ، وَعَرَض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ؛ وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفُرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرّة إلى العاصي فنزلا على الجَلاَلي .

فنَزَل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل ، وساروا لِقَصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر بْنُ منقذ من شيزر بعسكره وأهله ؛ واجتمعُوا بمودود وأتابك وساروا إليهم .

---

١ ـ أي قفز .

ونَزَلُوا قبلي شَيزر والفرنج شمالِيّ تَلّ ابن معشر ، ودارت خيولُ المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الوِرد ، فأصبحُوا هاربين سائرين ، يَحمي بعضهم بعضاً .

ووصل إلى حلب في هذه السّنة في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيهٌ تاجر كبير يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخُجَندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها أصناف التجارات ، وكان شديداً على الباطنيَّة أَنْفَق أموالاً جليلة على من يقاتلهم ، وكان قد صحبه من خراسان باطنيّ يُقال له أحمد بن نصر الرَّازي وكان أخوه قد قتله رجال الخُجَندي .

فدخل أحمد إلى حلب ، ومضى[1] إلى أبي طاهر الصَّائغ العجمي رئيس الباطنيَّة بحلب ، وكان متمكّناً من رضوان ، فصعد إلى رضوان ، وأَطْمَعُه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنَّه بريءُ من التّهمة في بابه ، إذ هُوَ معروف بعداوة الباطنيَّة .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحاً ، وبعث غلماناً له يتوكّلوا به ، وسَيَّر أبو طاهر الباطنيّ معه جماعة من أصحابه ، فبينا أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض أحمالَهُ وحوله جماعةٌ من مماليكه وخَدَمِهِ إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرّازي في جماعةٍ من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ ، فقال لغلمانه : «أليس هذا رفيقنا ؟» فقالوا : «هُوَ هُوَ» . فوقعوا عليه فقتلوه .

١ ـ في ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩٠ : «واستدل على أبي الفتح الصائغ رئيس الملاحدة بها» .

وقُتل الجماعةُ الّذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ العجمي بأسرهم ، ثم قال أبو حرب : «الغِياث بالله من هذا الباطنيّ الغادر ، أمنّا المخاوفَ ورآنا إلى أن جئنا إلى الأمنة ، فبعث علينا من يقتلنا» .

فأخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السّنة والشيعة إلى هذا الرجل ، وأظهروا إنكار ما تمّ عليه . وعبث أحداثُهم بجماعة من أحداث الباطنيَّة فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك .

وكاتَبَ الفقيه أبو حرب أتابكَ طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلُهم إلى رضوان يُنكرون عليه ، فأنكر وحَلَف أنه لم يكن له في هذا الرجل نيّة .

وخرج الرّجل عن حلب مع الرّسل فعاد إلى بلده ، ومكث الناس يتحدّثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثّبوا على الباطنيَّة من ذلك اليوم .

ثم إنَّ رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه ويستصلحه ، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طغتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كلّ منهما لصاحبه بالمال والرّجال .

واستقرّ الأمر على أن أقام طغتكين الدَّعوة والسكَّة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ستّ وخمسمائة ، واستخلف ابن اخته روجار وأدّى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار .

ووصل مودود إلى الشّام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخّرت إلى أن اتّفق للمسلمين وقعةٌ استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبَها نجدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس ، وخالف فيما كان قرّره وَوَعد بِهِ ، فأنكر أتابك ذلك ، وتقدَّم بابطال الدَّعوة والسكَّة باسم رضوان من دمشق في أوّل ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه حتّى كان أمراؤه وكتّابه ينبزونَهُ بأبي حبَّة ، وهو الَّذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومَرِضَ رضوان بحلب مرضاً حادّاً وتوفي في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ، ودُفِن بمشهد الملك ، فاضّطرب أمرُ حلب لوفاته وتأسَّف أصحابهُ لفقده ، وقيل : إنَّه خلَّف في خزانتِه من العين والآلات والعُروض والأواني ما يبلغ مقداره ستّمائة ألف دينار .

وملك حلب بعده ابنهُ ألب أرسلان ، ويُعْرَفُ بالأخرس ، وعمرُهُ ستّ عشرة سنة ، وأمُّه بِنْتُ يَغي سيان صاحب أنطاكية ، وكان في كلامِه حَبْسَةٌ وتمتمةٌ فلذلك عُرف بالأخرس ، وكان مُتَهوِراً قليل العقل ، ووضع عن أهل حلب ما كان والده جدّده عليهم من الرّسوم والمُكوس .

وقبضَ على أَخَوَيْهِ مَلك شاه ومُبارك ، وكان مُبارك من جاريةٍ وملك

شاه من أمّه ، فَقَتَلها ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ؛ فانظر إلى هذه المُقَابَلة العجيبة ، وقبضَ جماعةً من خواصّ والدِه فقَتَل بَعْضَهم ، وأخذ أموال الآخرين .

وكان المتولّي لتدبير أُموره خادمٌ لأبيهِ يقال له لؤلؤ اليايا ، وهو الذي أنشأ خانكاه[1] البلاط بحلب ، وكان قبل وصوله إلى رضوان خادماً لتاج الرّؤساء ابن الخّلال ، فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمرُ الباطنيَّة قد قَوي بحلب في أيّام أبيه ، وتابعهم خلقٌ كثيرٌ على مَذْهَبِهم طلباً لجَاهِهِم ، وصار كلُّ مَنْ أراد أن يحمي نفسُه من قَتْلٍ أَوْ ضَيْمٍ التجأ إليهم .

وكان حسام الدّين بن دملاج وَقْتَ وَفاة رضوان بحلب ، فصاروا مَعَهُ ، وصار ابراهيم العجمي الدّاعي من نُوَّابه في حفظ القُلَيْعة بظاهر بالنس .

فكتب السُّلْطان مُحَمَّد بن ملك شاه إلى ألب أرسلان وقال له : «كان والدُك يُخالفني في الباطنيَّة ، وأنتَ وَلَدِي فَأُحِبُّ أن تَقْتُلَهم» .

وشرع الرّئيس ابن بديع متقدّم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان في أمرهم ، وقرّر الأمر معه على الإيقاع بهم ، والنكاية فيهم ، فساعده على ذلك .

---

١ ـ بقاياها في سوق الصابون بحلب . انظر الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٥١ ـ ٢٥٣ .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقَتَل اسماعيلَ الدَّاعي وأخا الحكيم المنجِّم والأعيانَ من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبضَ على زُهاء مائتي نفسٍ منهم .

وحَبَسَ بعضَهم واستصفى أموالهم ، وشفع في بعضهم فَمِنْهم مَن أُطلق ومنهم مَنْ رُمي من أعلى القلعة ، ومنهم من قُتِل . وأفلتَ جماعةٌ منهم فتفرّقوا في البلاد ، وهرب إبراهيم الدَّاعي من القليعة إلى شيزر ، وخرج حسام الدين بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها إليهم من ماله ، ولم يكلّف أحداً من أهل حلب شيئاً منها .

ثمّ إنَّ ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج إلى مَن يدبّرها أحسن تدبير ، وأشار خدمُه وأصحابُه عليهِ بأنْ كاتَب أتابكَ طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافِه ، وسأله الوُصولَ إليهِ ليدبْر حلب والعسكر ، وينظرُ في مصالح دَولتِهِ ، فأجابه إلى ذلك ، ورأى موافقَتَهُ لكونِه صبياً لا يخافه الكفّار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدَّعوة للسُّلطان وضُربت السّكة باسمِه ، وذلك في شهر رمضان .

وأوجبت الصُّورةُ أن يخرج ألب أرسلان بنفسِه في خواصّه ، وقصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقِيه أتابك على مرحلتينْ ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في إكرامه وخدمته والوقوفِ على رأسِه ، وحمل إليهِ دست ذهبٍ

وطيراً مرَصّعاً وعدّة قطع ثمينة ، وعدّة من الخيل ، وأكرم من كان في صحبته[1] .

وأقام بدمشق أيّاماً وسار في أوّل شوّال عائداً إلى حلب ، ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده أياماً واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدّم عسكره ، وكان قد أشار عليهِ بعض أصحابه بقبضِهِ ، وقبضِ جماعة من أعيان عسكره وقبض الوزير أبي الفضل بن الموصول ، ففعل ذلك ؛ فاستوهَب أتابك منه كمشتكين فوهَبه إيّاه .

وقَبَض على رئيس حلب صاعِد بن بديع ، وكان وجيهاً عند أبيهِ رضوان ، فصادَرَهُ بعد التَّضييق عليهِ حتى ضرب نفسَهُ في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثمّ أطلقه بعد أن قرّر عليهِ مالاً ، وأخرجه وأهلَهُ من حلب ، فتوجّه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر .

وسلّم رئاسة حلب إلى ابراهيم الفراتي ، فتمكّن ولُقِّب ونُوّه باسمِه ، وإليهِ تُنْسَب عرصة ابنِ الفُرَاتي بالقُرب من باب العراق بحلب ، ثمّ رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدّبير مع التقصير في حقّه والاعراض عن مَشُورته ما أنكره ، فعاد من حلب إلى دمشق ، وخرجت معه أمّ الملك رضوان هرباً منه .

وساءت سيرةُ ألب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحُرَم

---

١ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ . ترجمة ألب أرسلان المنتزعة من بغية الطلب ـ في ملاحق الجزء الأول من المدخل ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ .

والقتل[1] ، وبَلَغَنا أنَّهُ خرج يوماً إلى عين المباركة متنزهاً ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونَصَب خيمةَ ، ووطئهنَّ كلَّهن .

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرّفين ، وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول ، وجمع ألب أرسلان جماعةً من الأمراء ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيهٍ بالسّرداب لينظروه ، فلمّا دخلوا اليه قال لهم : «ايش تقولون في مَنْ يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟» فقالوا : «نحن مماليكك وَبِحكمك» . وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرّعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر فلمّا نزل سار عن حلب وتَركها خوفاً على نفسه .

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب ، في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعَدَهُ على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواصّ في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخاً له صغيراً عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولّى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجَرَى على قاعدته في سوء التّدبير .

وكاتب لؤلؤ ومقدّمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم إلى ذلك .

---

١ ـ الذي أبلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلي . المدخل ص ٢٩٥ .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغبُ فيها ، ولا يمكنه ذبّ الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أنَّ المقدّمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هُم فيه .

وقلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه ، وقلّت الأموالُ واحتيج إليها لصرفها إلى الجُند ، فباع لؤلؤ قرىً كثيرةً من بلدِ حلب ، وكان المتولّي بيعَها القاضي أبا غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولّى صرفَ أثمانها في مصالحِ القلعة والجندِ والبَلَد .

وقَبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصَل مالَه ، وسار إلى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزَر أبا الرَّجاء بن السَّرطان الرحبي مدَّة ، ثم صادره وَضَرَبه ، وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده إلى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلةَ الأَحد ثامن وعشرين من جُمَادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحرّان وأنطاكية ومرعش والثّغور الشامية ، وسقط برجُ بابِ أنطاكية الشّمالي وبَعضُ دُور العَقَبة وقَتَلَت جَمَاعةً .

وخربت قلعة عَزاز ، وهرب واليها إلى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشَةٌ ، فحين وَصل إلى حلب قَتَله وأنفذ إليها مَنْ تداركها بالعمارة والتّرميم ، وخرب شيَءٌ يسيرٌ في قَلعة حَلب ، وخرب أكثر قلعة الأثارب وَزَردْنا .

وقيل : إنَّ مؤذن مسجد عزاز كان حارساً بالقلعة ، فحرس وَنَام على بُرج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزَّلْزَلَةُ ألقته على كتف الخَندق وهو نائمٌ لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعةٌ فظنّوه ميّتاً ، فأخذوا عنه اللّحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواصّ مقدَّمَ عسكر حلب ، ومتولّي أقطاع الجند ، وكانت سيرتُه إذ ذاك صالحة ، وكان لؤلؤ في أوّل أمره مقيماً بقلعة حلب لا ينزلُ منها ويدبّر الأمور ، فكتب إلى السُّلطان على سبيل المُغَالَطة يبذل له تَسْليم حلب والخزائن التي خلّفها رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب إنفاذ العساكر إليه .

فوصل برسق بن برسق مقدّم الجيوش ومنكوبرس[1] وغيرهم من أمراء السّلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيّرت نيّة لؤلؤ الخادم عمّا كان كتب به إلى السّلطان ، وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ، ووَعَده تسليم حلب اليه ، وأن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر إلى ذلك[2] .

ووصل حلب ، والعساكر السّلطانيّة ببالس متوجّهين إلى حلب فرحلوا

١ ـ كذا بالأصل وجاء في الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٧١ : «برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي» .

٢ ـ لم يذكر ابن القلانسي هذا الخبر لكن أكده ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧١ مع المزيد من التفاصيل الهامة .

منها إلى المعرّة ، ووصلهم الخبر أنَّ ذلك اليوم وصل أتابك إلى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا إلى حماة فتسلّموها .

وتسلّموا رفنية[1] من أولاد علي كرد ، وسلّموها إلى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يَقصِدَ دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص ، وايلغازي بن أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره مِنْ مُلُوك الفرنج ونزلوا أجمعين أفامية .

ونزلت العساكر السّلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريّث الفرنج عن اللّقاء خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السّلطانية فيأخذوا الشّام جميعه ، أو ينكسروا فتستولي العساكر السّلطانية على ما في يده .

وخاف الفرنج وضاقتْ صدورُ أمراء عسكر السّلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتّفق أتابك والفرنج على عَوْدِ كلّ قوم إلى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوّجه أتابك إلى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص إلى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السُّلطان حينئذٍ عن حصن الأكراد ، وساروا إلى كفر طاب ، وحصروا حصناً كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوه وقتلوا مَنْ فيه ، ورحلوا إلى معرّة النّعمان .

---

١ ـ ما تزال بقايا رفنية قائمة قرب بلدة بعرين (بارين) على الطريق الذي يصل مصياف بحمص ، هذا وما أورده كل من ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ بشأن رفنية يخالف رواية ابن العديم هذه ، ويوضح ابن الأثير أن الذي استولى عليه عسكر السلطان ثم آل إلى خير خان هو مدينة حماه ، وهو الصحيح .

وأمن الترك وانتَشَرُوا في أعمال المعرّة واشتغلوا بالشُّرْب والنَّهب وَوَقع التّحاسُدُ فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا مِن جِهَة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول إنّ شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج ، ورحل برسق وجامدار صاحب الرّحبة نحو دانيث[1] يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضّياع .

ووصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعةً فساعة ، فَوَصَلهم الفرنج ؛ وقصدوا العسكر من ناحية جبل السّماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرُّق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث إلى تلّ السّلطان[2] .

واستتر قوم في الضّياع مِن العسكر فَنَهبهم الفلاّحون وأطلقوهم ، وغنم أهل الضّياع مِمّا طرحوه وقتَ هزيمتهم ما يفوتُ الإحصاء ، وأُخذ الكفّار مِنْ هذا ما يفوتُ الوصف ، وغَنموا من الكراع والسّلاح والخيام والدَّوَابّ وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مُقَدَّمٌ ولا مذكورٌ .

---

١ ـ دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب . معجم البلدان .

٢ ـ تل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان . ويبعد تل السلطان عن ادلب ٤٧ كم .

وقُتِل منَ المُسلمين نحو خمسمائة وأُسر نحوها واجتمع العَسْكر على تلّ السّلطان ، ورحلوا إلى النّقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا النّقرة ؛ وكان أونبا[1] قد طلع أصحابه إلى حصن بزاعا ، وكان قد تقدَّم العسكر إليها ، فلمَّا بَلَغَهم ذلك نَزَلوا ووصلوا إلى العسكر .

وتوجَّهت العساكر إلى السّلطان وإلى بلادهم ، وَوَصل طغتكين مِنْ دمشق فتسلم رفنية[2] مِمَّن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمسَ الخواص من الاعتقال ، وسلَّم إليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل إلى طغتكين فردّ عليه رفنية ، وعاد إلى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانَّه صار بعد مُلازمة القلعة يَنْزِلُ منها في الأحيان ويركبُ ، فاتّفق أنّه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكِتاب إلى بالس ، وهو في صورة متصيّد ، فلمَّا وصل إلى تحت قلعة نادر قتله الجُند[3] .

واختلفَ في خُروجه ، فقيل : إنّه كان حَمَل مالاً إلى قلعة دَوْسَر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعَوْد إلى حلب ، وكان السُّلطان قد أقطع حلبَ والرّحبة أق سنقر البرسقي[4] ، فواطأ جماعة من

١ ـ كذا وعند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ «جيوش بك» .

٢ ـ يتوافق هذا مع ما أورده ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ص ٢٧٢ .

٣ ـ في ترجمة ألب أرسلان بن تتش روى ابن العديم «فلما وصل إلى دير حافر» ، وأورد ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ أنه قتل سنة ٥١١ هـ وأعطى المزيد من التفاصيل ، ومن أجل قلعة نادر وهي قرب بالس انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٢٥ . هذا ودير حافر مركز ناحية تابعة لمنطقة الباب في محافظة حلب ، ويبعد عن حلب مسافة ٥٠ كم .

٤ ـ للبرسقي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .

أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصِهِ ، وواطَأهم على قتل لؤلؤ ، وأمَّل أنَّهم إذا قتلوه تصحّ له أُقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضُهم إلى الرّحبة فأَعلمه ، فأسرع أق سنقر البرسقي المسير إلى حلب من الرّحبة ، وانضاف بعض عسكره إلى بقيّة القوم الّذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا إليها فسبقهم ياروقتاش الخادم ـ أَحد خدم الملك رضوان ـ ودَخَلَ حَلب .

وقيل : إنّ لؤلؤاً كان قد خاف فَأَخذ أمواله ، وخرج طالباً بلاد الشّرق للنجاة بأمواله ، فلمّا وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشيّ : «تتركونه يقتل تاج الدَّولة ويأخذُ الأَموال ويمضي !» وصاح بالتّركية : «أرنب أرنب» فضربُوه بالسِهامِ فَقَتلُوه .

ولَمّا خَرَج عن حلب أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يَوْمَيْنْ إلى أن وَصَل ياروقتاش[1] الخادم مُبادراً فدخل حلب وَنَزَل بالقَصْر ، وأخرجَ عسكر حلب ، وأوقع بالّذين قَتَلُوا لؤلؤاً ، وارتجع ما كان أُخذوه من عسكر حلب وانهَزَم بعضُ مَنْ كان في النّوبة فالتقَوا أَق سنقر في بالس في أوَّل محرّم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهَّل للبرسقي ما أَمّلَ وراسل أَهل حلب ومَنْ بها في التّسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك .

---

١ ـ ياروقتاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره ، انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدّين إيلغازي بن أُرتُق لِيَصِل مِنْ ماردين ويدفع أق سنقر ، وكاتَب روجار صاحب أنطاكية أيضاً فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ما قَدر عليه من أعمال الشَّرقية ، فحينئذٍ أيس البرسقيّ من حلب ، وانصرف من أرض بالس إلى حمص فأكرَمَه خير خان صاحبُها ، وسار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه ، ووعده بانجاده على حلب .

وَهادَنَ ياروقتاش صاحبَ أنطاكية روجار ، وحمل إليه مالا وسلّم إليه حصن القُبَّة ، ورتّب مسيرَ القوافل من حلب إلى القبلة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إنّ ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلةً يوقعها بالمقدّمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقَبض عليه مقدّمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وَوَلّوا في القلعة خادماً من خدم رضوان .

وردَّ أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمور إلى عارض الجَيْش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحَّى ، فدبّر الأُمور وساسها ، وضعفت حلب وَقَلَّ ارتفاعُها وخربت أعمالُها .

ووصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب فأنزلوه في قلعة الشَّريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلَّموا اليه بالس والقليعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحّى ، وقصر ارتقاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتّركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من أهل حلب وجُنْدها فخرج عنها إلى ماردين ، وبقيت بالس والقُليعة في يده ، وأخرج ابن الملّحى من الاعتقال وأُعيد إلى تدبير الأمور .

وأفسد الجُند الّذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرجَ بعضُ عسكر حلب ومعهم قطعةٌ من الفرنج وحصروها ، فوصل إيلغازي في جمع من التركمان إليها ، فعاد عسكر حلب والفرنح عن بالس وباعها لابن مالك ، وعاد إلى ماردين ، وبقي تمرتاش ولدُه رهينةً في حلب .

ووصل في هذه السّنة أتابك طغتكين وأق سنقر البرسقي إلى حلب ، وراسلَ أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا : «ما نُريد أحداً من الشّرق» وأنفَذوا واستدعَوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سنقر إلى الرّحبة وأتابك إلى دمشق .

واشتدّ الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزّرع عَرِقَ ولَحِقَه هَوَاءُ عند إدراكه أتلفَهُ ، وَهَرب الفلاّحون للخَوف ، واستدعى أهلُ حلب ابن قراجا من حمص ، فرتّب الأمور بها ، وحصَّنها ، وسار إلى حلب ، ونزل في القَصر خوفاً من إيلغازي لِمَا كان بينهما[1] .

وخَرَجَ أتابك إلى حمص ، ونهب أعمالها وشَعَّثها ، وأقام عليها مُدَّة ، وعاد إلى

١ ـ كان خير خان قد أسر إيلغازي سنة ثمان وخمسمائة وذلك أثناء نزوله على حمص . انظر ابن القلانسي ص ٣٠٥ .

دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلةٌ من حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا ذَخائرهم وأموالهم لما قد أشرفَ عليه أهلُ حلب ، فلمّا وصلوا إلى القبّة نزل الفرنج إليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقَبضوهم وما مَعَهم بأسرهم ، ورفعوهم إلى القبَّة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى أفامية ، ومَعرَّة النّعمان ، وحبسوهم ليقرّوا عليهم مالاً .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغّبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل إلى صاحب أنطاكية مالاً وهدّية ، فردّ عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

وقوي طمعُ الفرنج في حلب لعدم النجد وَضَعْفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلد حلب ، وأخذوا مالاً لا يُحصيه إلّا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالإنجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمرُه مضطرباً بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوبُ أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلّا من عزاز وبلدها ، وبقيّةُ بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقيّ خراب مُجدب ، والقوتُ في حلب قليلٌ جداً ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكّوك حلب الآن ، وما سوى ذلك مناسب له .

وينس أهل حلب من نجدةٍ تصلهم من أحد من الملوك ، فاتّفق رأيهم

على أن سيَّروا الأَعيانَ والمقدّمين إلى إيلغازي بن أُرْتُق ، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنُّوا أنَّه يصل في عسكر يفرّج به عنهم ، وضمنوا له مالاً يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر .

فوصل في جندٍ يسير والمدبّر لحلب جماعةٌ من الخدم ؛ والقاضي أبو الفضل بن الخشّاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ؛ فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشّاب وجماعة من المقدّمين ، وتلطّفوا به ولم يزالوا به حتّى رجع .

ووصل إلى حلب ، ودخلها ، وتسلَّم القلعة ، وأخرج منها سائرَ الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دارٍ مِنْ دُورِ حلب .

وقبض على جماعةٍ ممّن كان يتعلَّق بالخدم ويخدمهم ، وأخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الّذين استولَوْا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مالٍ يحمله عن عَزاز ليرحلوا عنها ، فلم يلتفتوا لقوّة أطماعهم في أمر الاسلام ؛ وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قُوتِ الدَّواب ، وحلب على حدّ التّلف .

فلما عرف مَنْ بِعَزَاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلّموها إلى الفرنج ، وراسلهم مَنْ بحلب في صُلْحٍ يستأنفونه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفاً مِنَ

الله بهم ، على أن يسلّموا إلى الفرنج تلّ هراق ويُؤَدُّون القطيعة المستقرّة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي ألف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً .

وزرعوا أعمال عَزاز وقوّوا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلّغون به من القُوت .

وسار إيلغازي إلى الشّرق ليجمع العساكرَ ويعودَ بها إلى حلب ؛ وسارت الرّسل إلى ملوك الشّرق والتّركمان يستنجدونهم .

وكان ابنُ بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دَوْسر ، فنزل إلى إيلغازي ليطلب منه العود إلى حلب ، فلمّا صار عند الزّورق ليقطع الماء إلى العسكر وَثَب عليه اثنان من الباطنيّة فضرباه عدّة سكاكين ، وَوَقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع وأحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل إلى القلعة فوثب آخر من الباطنيّة وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق . وتوجّه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا مَنْ بَعُد وقَرُب من عساكر المسلمين والتّركمان ، فجمعا عسكراً عظيماً ، وتوجّه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفُرات مِنْ عَبْرِ بَدايا وسنجه[1] .

وامتدت عساكرُه في أرض تلّ باشر وتلّ خالد وما يقاربهما ، يقتل

١ ـ سنجة نهر يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة . معجم البلدان .

وينهب ويأسر ، وغنموا كلّ ماقدروا عليه ، ووصل مِنْ رُسُلِ حلب مَنْ يستحثّه على الوصول لتواصلُ غارات الفرنج من جهة الأثارب واياس أهلها من أنفسهم ، فسار إلى مرج دابق ثمّ إلى المسلمية ، ثمّ إلى قنَّسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الرّوج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطون في الرُّوج ، وجمع سرجال صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج إلى جسر الحديد ، ثمَّ رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، مما يلي درب سرمدا ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التّاسع من شهر ربيع الأول .

وضجر الأمراء من طُول المقام ، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحثُّوا إيلغازي على مُنَاجزة العدوّ فجدّد إيل غازي الأيمان على الأمراء والمقدّمين أن يُناصِحُوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العدوّ ، وأنَّهم لا ينكلُون ويبذلون مُهَجَهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوسٍ طيبةٍ .

وسار المُسلمون جرايد ، وخلّفوا الخيام بقنّسرين ، وذلك في يوم الجمعة السّادس عشر من شهر ربيع الأوّل ، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطلّ على تل عفرين والفرنج يتوهّمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زرْدَنا ، فما شعروا عند الصبح إلاّ ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشّاب يُحَرِّض النّاس على القتال ، وهو راكب على حَجر[1] وبيده رمحٌ ؛ فرآه بعض العسكر فازدراه وقال: «إنَّما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمّم !» فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهف هممهم بين الصفَّين ، فأبكى النّاس وعَظُم في أعينهم .

ودار طغان أرسلان بن دملاج مِن ورائهم ونزل في خيامهم ، وقَتَل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل .

وحَمل التُّرك بأسرهم حملةً واحدةً من جميع الجهات صدقُوهم فيها ، وكانت السّهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسَّواد من السّهام عادت منهزمةً وغُلِبَت فُرسانها ، وطُحِنَت الرَّجالَةُ والأتباع والغلمان بالسّهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقُتِل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفراً منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقُتِل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقت الظهر ، فَوَصَل البشير إلى حلب بالنَّصر ، والمصافّ قائمٌ ،

١ ـ الحجر : الأنثى من الخيل . القاموس .

والنَّاس يصلُّون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا صيحةً عظيمةً بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحدٌ من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأَحْرَق أهلُ القرى القتلى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشَّاب ، ونزل إيلغازِي في خيمة سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غَنِموه ، فلم يأخذ منهم إلَّا سلاحاً يُهديه لملوك الإسلام ، وردَّ عليهم ما حملوه بأسره .

ولمَّا حضر الأسرى بين يدي إيلغازي ، كان فيهم رجلٌ عظيم الخلقة مشتهراً بالقوّة ، وأسره رجلٌ ضعيفٌ قصيرٌ قليلُ السّلاح ، فلمّا حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان : «أما تستحي يأسُرك مثل هذا الضّعيف وعليك مثل هذا الحديد ؟» فقال : «والله ما أَخذني هذا ، ولا هو مولاي وإنّما أخذني رجلٌ عظيمٌ أعظم مني وأقوى ، وسلَّمني إلى هذا ؛ وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر»[1] .

وتفرّقت عساكر المسلمين في بلد أنطاكية والسويدية وغيرهما يقُتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنّة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة ، فأخذ المسلمون من السَّبي والغنائم والدّواب ما يفوتُ الاحصاء . ولم يبقَ أحد من التّرك إلَّا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسَّبْي .

ولقي بعضُ السَّرايا بَغدوين الرويس وابنَ صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة ، وقد توجها لنصره سِرجال صاحب أنطاكية ، فأوقع بهم التّرك ،

١ـ أي أن آسره كان من الملائكة .

وقتلُوا جماعةً وغَنموا ما قدروا عليه ، وانهزم بغدوين وابنُ صنجيل ، وتعلّقوا بالجبال .

ورحل إيلغازي إلى أرتاح ، وبادر بغدوين فدخل أنطاكية ، وسلّمت إليه أختهُ زوجةُ سرجال خزائنَه وأمواله ، وقبض على أموال القتلى ودورِهم ، وأخذها وزوَّج نِساء القتلى بمن بقي ، وأثبتَ الخيلَ ، وجَمَعَ وَحَشدَ واستولى على أنطاكية ، ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدِّين بِأرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الرَّبَض ونهبه ، وقتل مَنْ قدر عليه ، وخرج أحداثٌ مِنْ حلبَ ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمّنهم بعد أن استأخذت ، وسيَّرهم إلى مأمنهم .

ورحل منها إلى زَرْدَنا وكانوا قد حصَّنوها وأحكموا عمارتها ، وقاتلها فطلبوا الأمانَ فأمّنهم ، وسيّرهم إلى أنطاكية فلقيهم بعضُ التّركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومَضَوا إلى أُهلهم .

وكان صاحبُ زَرْدَنا لمَّا بلغه منازلتها ، حَمَلَ بغدوين والفرنج على الخُروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرّق التّركمان بالغنائم وعودهم إلى أهلهم ، وأن إيلغازي في غدّةٍ قليلةٍ ، فبلغه ذلك فجدّ في قتالها حتى أخذها ـ كما ذكرناه ـ ورتَّب أصحابَه بها ، وتوجّه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دَانيث بعد أن ردَّ الأثقال والخيام إلى قنّسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نَزَلوها يوم فتحِهِ زَرْدَنا في

مائتي خيمة وراجلٍ كثير ، وقيل إنّهم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سوى الرّجالة ، وذلك في رابع جُمادى الأولى ، والتَقَوْا فحمل صاحب زَردنا وأكثَرُ خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص وبعض التركمان ، فكشفوهم وانهزموا بين أيديهم ، وسار ليتدارك أمر زَردنا ، ويكبس الأثقال والخيامَ فعرف أخذها وتسيير الأثقال إلى قنّسرين فعاد .

وحمل بقيّة المسلمين على بغدوين ومَنْ كان معه ، فقتلوهم وردّوهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل إيلغازي وطغتكين وطغان أرسلان فيمن بقي من الخواصّ على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرَّجالة وبعض الخيّالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدّين وطغتكين وطغان أرسلان إلى دانيث ، فوجدوا صاحب زَردنا والفرنج قد عادُوا بعد أن هَزَموا مَنْ كان بين أيديهم من المسلمين ومعرفة أخذ المسلمين زَردنا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعةً كثيرةً ، وانهزم الباقون إلى هاب ، وعاد التَرك بالظّفر والغنيمة .

وحين بلغ مَن بقنّسرين مع الأثقال هَزيمةَ من كان في مقابلة صاحب زَردنا رحلوا إلى حلب ، وانزعج أهلُ حلب غاية الانزعاج ، فوصلُهم البشيرُ بعد ساعتَيْن بما بَدَّل غمهم سروراً وهمّهم حبوراً .

وكان البشيرُ مِن الفرنج قد مضى إلى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زَردنا للمسلمين ، فزيّنوا بلادهم ، وأظهروا فيها الجذل والمسرَّة فوصل ابنُ

صنجيل مِن الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورهُم حزناً وراحتهم تعباً وعناء .

وكان صاحب زَردنا ، وهو القومص الأبرص واسمُه رونارد[1] ، قد سقط عن فرسه ، فأدركه قومٌ من أهل جبل السمّاق من أهل مَرْيمين[2] ، فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب ، فأنفذه إلى أتابك طغتكين ، فقتله صبراً .

ثم دخل إيلغازي إلى حلب ، وأحضر الأسرى فأفرد أصحاب القِلاع والمقدَّمين وابنَ بيمند صاحب أنطاكية ورسول ملك الروم ونفراً يسيراً مِمَّن كان معه مال فأخذه وأطلقهم ، وبقي من الأسرى نيِّف وثلاثون رجلاً بذلوا من المال ما رَغِب عنه ، فقتلهم بأسرهم .

وتوجّه من حلب إلى ماردين في جُمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التّركمان مَن يعود به إلى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفةً عن مقَامه فيها ، فخرج الفرنج إلى بلد المعرة ، فسبوا جماعةً ، وأدركهم جماعة من التّرك فرجعوا[3] .

ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور ، غربيّ البارة ـ وهو حصن كان لابن منقذ وسلّمه إليهم ـ ولما جرَت الوقعة الأولى

١ ـ رينوماسيور . انظر حوله وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٢ .
٢ ـ مريمين من قرى منطقة جسر الشغور محافظة أدلب وتبعد عن ادلب ٨٥ كم .
٣ ـ قارن وليم الصوري ج ١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٢ .

على البلاط عاد وأخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخذه في جُمادى الأولى ، وأطلق مَنْ كان فيه .

ورحل إلى كفر روما[1] فأخَذَ حصنها بالسَّيف ، وقتل جميع من كان فيه ، ووصلوا إلى كفر طاب ، وقد أحرق ابن منقذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفاً منهم ، فرمّوه ، ورتّبوا رجالهم فيه ، وسآروا إلى سرمين ومعرّة مصرين فتسلّموها بالأمان ، ثم نزلوا زَردنا ، ورحلوا عنها إلى أنطاكية .

ومع هذا فغارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظفَّر والغنيمة .

ووصل جوسلين إلى بغدوين خاله وَقْت أخذه سَرمين ، فأقطعه الرّها وتلّ باشر ، وسيّره إليهما ، فأسرى إلى وادي بطنان دفعتين ، وَإلى ما يلي الفُرات من جهة الشّام ، وقتل وسَبى ما يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنّقرة وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كلّ ما وجده من [دواب] ، وأسر رجالاً ونساء ، وأسرى إلى الرّاوندان[2] يتبع طائفةً من التّركمان كانت قطعت الفُرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنجُ وقُتل منهم جماعةٌ .

وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأثارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين إيلغازي وبين الفرنج فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ، فلقيهم عسكر أنطاكية

١ ـ كفرروما قرية من قرى معرة النعمان . معجم البلدان .
٢ ـ الراوندان قلعة حصينة من نواحي حلب . معجم البلدان .

فكسرهم ، وعاد فتبعه الفرنج والتَقَوْا ما بين تُرمانين[1] وتلّ أعذى ، من فرضة لَيْلُون .

ووصل في هذه السَّنة إيلغازي بجمعٍ كثير من التُركمان ، وقطع الفرات في الخامس والعِشرين من صفر ، وتوجّه إلى تلّ باشر ، وأقام أياماً ولم يقاتلها ، ورحل إلى عزاز يريد أخذها ، ولم يمكّن أحداً من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل إلى أنطاكية وأقام عليها يوماً واحداً ، وأقام في أعمال الرّوم أياماً يسيرة .

ثم خرج إلى قنسرين فتشوشّت قلوب التركمان لأنهم أمّلوا من الغنائم مثل السَّنة الخالية ، ولم يُقاتِل بهم حصناً ، ولا غنموا شيئاً ، وباع الأسرى الّذين أسرهم في الوقعة الأولى ، فعادوا إلى بلادهم ، وبالغوا في التشفّي من المسلمين والقتل والسَّبي .

وجَرى مِنْ نجم الدين إساءةٌ إلى بعض التركمان على شيء أنكره عليهم ، فبالغ في هوانِهم وحلَق لحى بعضهم ، وقَطَع أعصابَهم ، فتفرّق عسكره وبقي نفرٌ يسيرٌ متفرّقين في أعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا إلى دانيث ، فوصل طغتكين وعسكرُ دمشق ، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يُقاوم الفرنج ، فساروا إلى الفرنج ، وهم في ألف فارس وراجل كثير ، فدار التّرك حولهم فلم يخرج منهم أحدٌ ، وكرهوا

---

١ ـ ترمانين الآن أحدى قرى منطقة حارم ، محافظة ادلب ، وتبعد عن ادلب مسافة ٧٦ كم .

أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمة ، فساروا نحو معرّة مصرين لا ينفرد منهم فارسٌ ولا راجل .

وأشرف التّرك على أخذهم ، ومَن خرج منهم قُتل ، ومن وقفت دابّته تركها وأخذت ، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك ، وإيلغازي وطغتكين يردّان الناس عنهم بالعصا ، فنزلوا بقرب معرّة مصرين ، وعاد التّرك عنهم إلى حلب ، وعادوا إلى أنطاكية .(١)

وصالحهم إيلغازي إلى آخر سنة أربع عشرة ، على أنَّ لهم المعرّة وكفرطاب والجبل والبارة ، وضِياعاً من جَبَل السُّمّاق برسم هاب ، وضياعاً من ليلون برسم تل أعذى ، وضياعاً من بلد عَزاز برسم عزاز .

وسار نجم الدّين إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر ، وهَدَم إيلغازي زَردنا في شهر ربيع الأوّل ، وكان أهل حلب قد شَكَوْا إليه تجديدَ رسوم جدّدت عليهم في أيّام رِضوان ، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريّين ولا في أيّام أق سنقر ، فأمر بكشفِ مقدارها ، فأخبر أنّها مبلغ اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة ، فَرَسم بحذفها ، وَوَقَّع لهم بذلك ، وكتب لوحاً بذلك ، وسَمَّره على باب الجامع وذلك في هذه السنَّة .

---

١ ـ مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القلانسي ص ٣٢٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص٢٩٤ ، الروايات حول معركة دانيث لسنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م ومعركة دانيث الثانية لسنة ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م التي انتصر فيها الفرنجة حسب رواية وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاّحين الّذين تحت أيديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبُوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الأموال والغلاّت ما تقوَّوا به ، وكانت الضِّياع الّتي في أيدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنوا بالصّلح ، فغدر اللّعين جوسلين ، وَخَرج فأغار على النّقرة والأحصّ ، واحتجّ بأنه أسر له والي منبج أسيراً ، وأنّه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوّال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النّقرة والأحص ؛ ونزل الوادي وعاثَ فيه .

ثم سار إلى تلّ باشر ، ثمَّ عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الأول ، وأخذ في غارته الأولى المشايخ والعجايز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عُراةً ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب إلى بَغدوين في ذلك ، وقال : «إنَّ نجم الدّين لم يترك هذه البلادَ خاليةً من العساكر إلاّ ثقةً بالصلح» فقال : «ما لي على جوسلين يد» . وتتابعت من جوسلين غاراتٌ متعددة .

ثم خرج الفرنج من أنطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شَيزر وأخذوا ما لا يُحصى ، وأسروا جمعاً ، وطلبوا المقاطعة التي جرَت عادتُهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابنُ منقذ ذلك على أن يردّوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، فجعل لهم مالاً حمله ، وصالحهم إلى آخر السَّنة .

وهرب ملكُ العرب دبيس بن صدقة الأسديّ من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل إلى قلعة جَعْبر ، فأكرمه نجم الدَّولة مالك ، وأضافه ، ثمَّ

بسار إلى إيلغازي إلى ماردين ، وتزوَّج ابنَته فاشتدّ به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنّعمة الوافرة ، وحمل إليه إيلغازي ما يفوتُ الإحصاء .

فاشتغل إيلغازي بدبيس عن العبور إلى الشّام ، فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه، وأغار جوسلين إلى صِفِّين[1]، وسبى العربَ والتركمانَ ، ونزل بزاعا وقاتلها ، وأحرق بعضَ جدارها ، وصونع على شيء ودخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، الأثاربَ ، وقتلوا جماعةً وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنّهم في ربيع الآخر من السَّنة ، نزلوا نواز[2] ، وزحفوا إلى الأثارب ثانيةً ، وأحرقوا الدُّور والغلَّة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ؛ وأخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجلّ قدرُه من الماشية ، وأسر نحواً من خمسين أسيراً ، وصاح الصائحُ فخرج نفرٌ يسيرٌ من العسكر فظفروا بالفرنج وخلّصوا المواشي ، وعاد الفرنج إلى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدّولة سليمان بن نجم الدين إيلغازي ، وكان إيلغازي قد وَلّى رئاسةَ حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكي بن

---

١ ـ تتوافق هذه الرواية مع ما أراده باختصار ابن القلانسي ص ٣٢٣ ، لكن ابن الأثير تحدث في ج ٨ ص ٢٨٩ عن نشاط جوسلين في منطقة طبرية ، وصفين هي منطقة أبي هريرة قرب الرقة حالياً .

٢ ـ قرية كبيرة في جبل السماق في بلد حلب . معجم البلدان .

قرناص الحمويّ ، وجعله بين يديه ، فكتب إلى ولده ونوّابه يأمرهم بصُلح الفرنج على ما يريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر ولَيلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النّصف ، حتى أنّهم ناصفوهم في رحى الغربية[١] وعلى أن يهدم تلّ هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب إيلغازي إلى ذلك ، فامتنع مَن كان فيها من التّسليم فبقيت في أيدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بَغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دَيْر خراب قديم ، بالقرب من سرمدا[٢] ، وحصّنه ثمّ أطلقه لصاحب الأثارب سيرألان دمسخين .

وأمر إيلغازي ولده باخراب قلعة الشّريف المجدّدة بحلب وإخراج مَن كان فيها من جُند رضوان ، فأخرجهم شمس الدّولة وابن قرناص بعُذر الإغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولى الرئيس مكيّ بن قرناص خَرَابها في جُمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بإيلغازي بن أُرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار إليه في عالمٍ عظيمٍ ومعه دُبَيْس بن صدقة ، فكسرهم المسلمون ، ودخلوا وراءهم في الدَّرب ، فكرَّ الكرج عليهم في الدَّرب ، فانهزم المسلمون

١ ـ لعلها كانت قرب باب الجنان .

٢ ـ سرمدا قرية تابعة لمنطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٦٤ كم .

وتبعهم الكرج قتلاً وأسراً ، ونُهب لِدُبَيس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين إيلغازي إلى ماردين سالماً[1] .

وأنفذ إيلغازي إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء ، فَقُبّحَ بذلك عنده ، وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج الملوك : سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا إلى قلعة جعبر ، ومدَّ يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل : إن دُبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى الكرج سأل إيلغازي في الطَّريق أن يَهب له حلب وأن يحمل إليه دُبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ إلى ولده سليمان ، وكان خفيفاً ، وقال له : «أظهر أنك قد عصيتَ عليّ حتى يبطل ما بيني وبين دُبيس» . فحمله الجهلُ على أن عصى ونابذ أباه ، ووافقه مكيّ بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنه حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجّاب أبيه فصفعهم وحلق لحاهم ، ومدّ يده إلى أموال النّاس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقرَّبهم سليمان ، فنزلوا زردنا وعمروها لابن صاحبها كليام بن الأبرص .

---

١ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الواقعة عند ابن الأزرق الفارقي انظر الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ص ٥٢٣٠ ـ ٥٢٣٣ .

ثم سار الفرنج إلى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضرَ طَيّء وغيرها ، فخرج إليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخرّبها ، وحمل باب حصنها إلى أنطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون النّقرة والأحصّ ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صِلدع ـ على نهر قُويق ـ وخرج إليه اتزز بن تُرك طالباً منه الصّلح مع سليمان ، فقال : «على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذبّ عنه وأقاتل دونه» ، فقال له : «ما يجوز أن يسلّم ثغراً من ثغور حلب في بدوّ مملكته ، بل التمس غير هذا ممّا يمكن ليوافقك عليه» فقال له : «الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فانّي قد عمرتُ عليها الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنّها اليوم تشبه فرساً لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هُري شعير[1] ، يعلفُها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هُري الشَّعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب» . ثمّ رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيّام ، واتّصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكية .

ولما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل إلى قلعة جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان

١ ـ الهري بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . القاموس .

عن العصيان على أَبيه ، فأنفذ إليه من استحلفه على الصّفح عنه والاحسان إليه وإلى من حَسَّنَ له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكّد الأيمانَ على ذلك .

ودَخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه ، ودخل إلى القصر ، وأحسن إلى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصَرَف الشّحنة الّذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرّئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشقّ لسانه وكحله وأخذ ما وُجد له ، وسلّم أخاه إلى من يعذّبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصِر الحاجب ، فعني به مَنْ تولّى أمره فسلمت إحدى عينيه ، وعرقب طاهر بن الزائِر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوكَ أولاد رضوان من قلعة جعبر إلى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوّج بها ، ودخل بها بحلب ، وولّى رئاسةَ حلب سليمان بن عبد الرزّاق العجلاني البالسي ، وولّى ابن أخيه بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدّة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيّام مملكتهم الأثارب وزردنا .

وسار في محرّم من سنة ستّ عشرة وخمسمائة إلى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيرهُ بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر وولي الوزارة أبو الرجاء بن السرطان .

وعبر إيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفُرات ـ وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن أرتق ، واستدعاه من أعمال الرُّوم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية ـ وصحبتهما عدّة من التُّركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل أبا الرجاء بن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سُعي به إليه عليه .

ونَزلَ إيلغازي زَردنا ، نَزَل عليها في العشرين من جُمادى الأولى ، وحصرها أياماً وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازي الفُرات أنه ينزلها ، فجمع أصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم على مدَّة خمسة عشر يوماً ، وحلف هُو لهم على أن ينجدهم ، ومضى على أن يستجيش ، فان جازتْ هذه المدّة ولم يصلهم فإنّه يبتاعُ دماءهم بكلّ ما يملكه ، وقال لهم : «والله لكم عليّ من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إنْ قبلَه أسلمتُ على يديه لخلاصكم» .

وخرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور إيلغازي وبما بلغه من قصده زَردنا ، فقال : «مذ حلفنا له وحَلَف لنا ما نكثْنا ، وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يَغْدِرُ ، بل ربّما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته إلّا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود إلى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد» . فعاد وكشف الأمر .

وسيّر إلى بغدوين فأعلمه بنزوله إلى زردنا ، فصالح صاحب

طرابلس ، وشرط عليه الوصول إليه . ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زَردنا ، وأخذوا الفصيل الأوّل ، فَوَصل الفرنج بعد أربعة عشر يوماً من مُنازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدَّيْر .

وبلغ الخبر إيلغازي ، فترك زردنا وتوجّه نحوهم ، فنزل نَوَاز ، وطلب أن يخرج الفرنج من المضيق إلى السَّعة فلم يخرجوا ، فرحل إلى تلّ السّلطان ، وأتابك طغتكين في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز وهجموا ربض الأثارب وأُحرقوا البيدر والجدارْ .

ودخل صاحبُها يوسف بن ميرخَان قلعتَها ، ونزلوا أُبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، وأقاموا عليها فلم يصلهم أُحد ، فعادوا إلى بلادهم ، فعاد إيلغازي فنزل زَردنا ، وهجم الحوش الثّاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدَّيْر ، فرحل إيلغازي إلى نواز ، وأقام ثلاثة أيام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون إلى الصَّحراء ، فاتّفق أن أكل إيلغازي لحم قديدٍ كثيراً وجوزاً أُخضر وبطيخاً وفواكهَ ، فانتفخ جوفُه وضاق نَفَسُه ، واشتدَّ به الأمر ، فرحل إلى حلب ، وتزايد به المرض ، فسار طغتكين إلى دمشق وبلك غازي إلى بلاده .

ودخل إيلغازي ليَتداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص من علّته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس إلى نُبل[1] من عمل عزاز ، ومعهم

١ ـ نبل من قرى أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٢ كم .

أمراء منهم دَولت بن قتلمش ، فنهبوا وعادوا ؛ فوقع عليهم عند حربل[1] كليام في أربعين فارساً ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ، ظفر بلك غازي باللّعين جوسلين وابن خالته قلران[2] بالقُرب من سروج ، فأسرهما وأسر ابن أخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة ليلون ، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستّين فارساً .

وطلب جوسلين وقلران أن يسلّما ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلا ، وقالا : «نحنُ والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بعير حُوِّل رحلُه إلى آخر ؛ والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا» . فأخذهما ومضى إلى بلده .

وَوَصَل الفرنج بعد ذلك من تلّ باشر في شعبان ، وكبسوا تلّ قبّاسين[3] فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا ، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأمّا إيلغازي فأقام أياماً ، وصَلح مِنْ مرضه ، وسار إلى ماردين ، ثم خرج منها يريد ميّافارقين ، فاشتدّ مرضُهُ في الطّريق ، وتوفّي بالقرب من ميّافارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر رمضان من سنة ستّ عشرة وخمسمائة .

---

١ ـ حربل من قرى منطقة أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٠ كم .
٢ ـ أو في التفاصيل حول هذا الموضوع في نص السرياني المجهول ، انظر كتابي الحروب الصليبية ص ٤٨٤ ـ ٤٨٩ .
٣ ـ تل قباسين من قرى العواصم من أعمال حلب . معجم البلدان .

وملك ابنُه سليمان ميّافارقين ، وابنُه تمرتاش ماردين ، وابنُ أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبار بن أُرتق حلب ، ولما سمع صاحب أنطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل إليه أهلُ «الباب» من الوادي مالاً وخدموه .

فرحل إلى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرّروا على بالس مع ابن مالك مالاً يحمل إليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقُتِل من الفرنج جماعةٌ من المقدّمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين إلى الوادي وقد وصل [سليمان بن] إيلغازي فحصر البيرة(١) وتسلّم حصنها على أن يؤمّن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة .

وولّى بدر الدَّولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرَّجاء سَعْدالله بن هبةالله بن السَّرطان ، في صَفَر ، بعدما قبضَ عليه إيلغازي ـ كما تقدم ذكره ـ

وجدّد بدرُ الدَّولة المدرسة الّتي بالزجّاجين بحلب ، المعروفة ببني

---

١ ـ البيرة بلدة في تركية الآن ـ اسمها بيرة جك ـ على الفرات قرب سميساط . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٧٦٩ .

العجمي[١] ، بإشارة أبي طالب بن العجمي . وذكر لي أنّه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع ، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطّحّانين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، استقر الصّلح بين بدر الدّولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب أنطاكية ، وعلى أن يسلّم بدر الدولة إليه قلعة الأثارب فتسلموها ، وصارت لصاحبها أولاً سير ألان دمسخين ، وبقيتْ في يده إلى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق ، فعوَّضه بدر الدَّولة عنها شِحنكيّة حلب .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب أنطاكية ليقاتل نور الدَّولة بلك بن بهرام بن أُرتق ، وكان محاصراً قلعة كركر[٢] ، فالتقيا على موضع اسمه «اروش» بالقرب من قنطرة سنجة ، فكسره نور الدَّولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدّميه ونهب [خيمة] ، وفتح [كركر] بعد جُمعة ؛ وكان في دون عدّة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت[٣] مع جوسلين وقلران .

ثمّ إنّ نور الدولة بلك عبر الفُرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل

---

١ ـ تسمى الآن مجامع أبي ذر في محلة الجبيلة . الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ١٩٢ .

٢ ـ كركر أو جرجر : حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) غربي الفرات تولاها الخراب . اللؤلؤ المنثور ص ٥١٨ .

٣ ـ ويعرف أيضاً باسم حصن زياد بأرض أرمينية بين آمد وملطية . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٦ . ومن أجل الأسرى انظر وليم الصوري ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ . مع نص السرياني المجهول .

من قبليِّها ، ثم انتقل إلى بانقوسا[1] وأقام أيّاما ، ورحل إلى أرض النْيرب ، وجبرين[2] وأمر بحرق الغلَّة وأخذ الدّواب .

ومضى قطعة من عسكره إلى حدادين[3] ، فأخذ أحدهم عنزاً ، فرماه بعض فلاَّحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد أن أمتنع أهلها من التسليم ، فدخّنوا على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون .

وخنق في مغارة تلّ عبّود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز[4] وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضاً وأخذ لاهل حلب جشير[5] خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بلك وكان سبباً للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأُولى من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تسلّم مدينة حلب سلّمها إليه مقلّد بن سقويق بالأمان ومفرّج بن الفضل ، ونودي بشعار بلك من عدّة جهات ، وكسر باب أنطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلّم القلعة وجلس بها بعدما نزل بدر الدّولة منها بيوم ؛ وقرر حالها ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيّره إلى حرّان ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفاً منه .

١ ـ بانقوسا : جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال . معجم البلدان .
٢ ـ جبرين : قرية على باب حلب . معجم البلدان .
٣ ـ حدادين من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٦ كم .
٤ ـ عقر بوز من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٦ كم .
٥ ـ الجشير : المواشي على أنواعها .

ثم أنّه سار إلى البارة وهجمها ، وأسر الأسقف الّذي بها وقيّده ، ووكّل به[١] ، ورحل إلى كفرطاب فغفل الموكّل به فهرب إلى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشرة من جمادى الآخرة .

فوصله مَنْ أخبره أن بغدوين الرّويس وجوسلين وقلران وابن اخت طنكريد وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الّذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوماً من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كلّ ما كان لنور الدَّوْلة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد أشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه» . فما سمحتْ نفس بغدوين بترك الحصن والخروج منه[٢] .

فاتّفق رأيهم على خروج جُوسلين ، وحلَّفوه على أنَّه لا يُغيّر ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلّا وقت القربان إلى أن يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلّصهم .

وأما بلك فإنّه سار حتّى نزل على خرتبرت ففتحه بالسَّيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من أصحابه الّذين كفروا نعمته

---

١ ـ قارن واستفد من السرياني المجهول .
٢ ـ مع نص السرياني المجهول انظر وليم الصورى ص ٥٩١ ـ ٥٩٥ .

ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبق سوى بغدوين الملك وقلران وابن أخت بغدوين ، وسيّرهم إلى حرّان وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى إلى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تلّ باشر ، فسمعوا خبر فَتْح خرتبرت بالسَّيف فسار إلى الوادي وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان[1] ثم حلب من ناحية «مشهد الجفّ» من الشمال ؛ وخرّب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد طرود» بالقرب من بستان النقره؛ وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً .

ثمَّ رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونَبَش الضريح الذي بـ«مَشْهد الدكَّة»[2] فلم يجد فيه شيئاً فألقى فيه النـار ، والحلبيّون في كل يوم يقاتلونه أشدّ قتال ، ويخسر معهم في كلّ حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان ، ونزل السعدي[3] ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كلّ إلى بلده ، ووجد في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصاناً موتى ، ونبش النّاس منهم موتى جماعة .

---

١ ـ حيلان : قرية قرب حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء سيقت إلى حلب . معجم البلدان .

٢ ـ اسمه الآن الشيخ مُحَسِّن . الآثار الإسلامية ص ٥٦ ـ ٥٨ .

٣ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٣٧١ ـ ٣٩٩ .

فأمر القاضي ابن الخشّاب بموافقة من مقدّمي حلب أن تهدم محاريب الكنائس الّتي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغيّر أبوابها ، وتتّخذ مساجد : ففُعِل ذلك بكنيستهم العظمى ، وسُمّي مسجد السرّاجين[١] : وهو مدرسة الحلاويين الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين[٢] الآن ؛ وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدّم[٣] . ولم يترك للنّصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي الآن باقية .

هذا كلّه ونور الدّولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إنّ جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان إلى الوادي والنّقرة والأحصّ ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب[٤] ، حتّى لم يبق بحلب من الخيّالة خمسون فارساً لهم خيل ، وأخذ من الدّواب البقر والغنم والجمال ما لا يُحصى ، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر .

وخرج سير ألان في عسكر أنطاكية من الأثارب حتى وصل الحانوتة[٥] وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل في العزيب في الجانب القبليّ ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ؛ وأخذ قافلة كانت واصلةً من شيزر بغلّة .

١ ـ هو الآن المدرسة الحلوية . الآثار الإسلامية ص ٥٢ ـ ٦٢ .
٢ ـ انظر الآثار الإسلامية ص ٢٥٢ .
٣ ـ هي في محلة الجلوم . انظر الآثار الإسلامية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٤ ـ العزيب من الإبل والشاء التي عزب عن أهلها في المرعى ، وإبل عزيب لا تروح على الحي . القاموس .
٥ ـ الحانوتة الآن اسمها تل الحواصيد ، وتبعد عن حلب مسافة ٦٠ كم .

ثم عبر جوسلين من الفُرات إلى شَبخْتان وأغار على تركمان وأكراد، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسَبَى وقتل ، ومَنْ سَلِم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحراميَّة ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الأسارى مرّة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجَبُّول ، وما حولها ، وأخذ دوابّ كثيرة وتوجّه إلى دير حافر ، فخنق أهلها بالدّخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بلك إلى الشّام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وأمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها .

ثم إنّ الأمير نور الدّولة بلك جمع العساكر ، ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقيّ ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، وأخذوا عليها نقوباً إلى أن سهل أمرها ، فتجمّع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرّقوا بعد قتل مَن قُتل وأسر من أُسر .

وعمّر بلك حصن الناعورة بالنّقرة وحصن المغارة ـ على شطّ الفرات ـ وتزوّج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان ، وعَرَّس بها في ثالث وعشرين ذي الحجّة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرّم من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر بلك على رئيس حلب

سليمان العجلاني وجعل عليها رجلاً من أهل حرّان اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الدّعّار وقطّاع الطريق عند قدوم بلك حلب ؛ وأقام الهيبة العظيمة ؛ وتقدّم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً ، وحسم مادّة أرباب الفساد . وقال للحارس : «إنّ عدتُ سمعتُك تصيح ضربتُ عنقَك !» .

ونقل بغدوين ومَنْ كان معه من حبس حرَّان ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوّجه في شهر صفر فرقةٌ من أصحابه الأتراك إلى ناحية عَزاز فوقع بينهم وبين الفرنج وقعةٌ عند مشحلا[1] ، وظَفِر بهم الأتراك ، وقتلوا منهم أربعين رجلاً من الخيَّالة والرجّالة وأخذوا أسلابهم ، ووصل الباقون عَزاز وما فيهم إلاّ من جُرح جراحاً عدَّة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغلّ الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكَّر نور الدولة بلك على حَسَّان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه، فأنفذ قطعةً من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وتقدَّم إليهم أن يمروا على منبج ، ويطلبوا من حَسَّان أن يخرج معهم للإغارة على تلّ باشر فإذا خرج

---

١ ـ مشحلا : قرية من نواحي اعزاز من أعمال حلب . معجم البلدان .

قبضوه ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسُير حسان فحُبس في حصن بالو[1] بعد أن عوقب وعُرّي ، وسحب على الشوك فلم يُسلّمها أخوه .

وكتب عيسى إلى جوسلين : «إن وصلتَني وكشفتَ عني عسكر بلك سَلَّمْتُ إليكَ منبج» . وقيل : إنه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار إليه بلك لمّا قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأوّل ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار .

وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملةً يفتك فيهم ويخرج سالماً ، يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعاد إلى منبج فبات مصلّياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج .

وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول قتل كلّ أسير أسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعاً ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وبيده ترس .

١ ـ بالو : قلعة حصينة وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزن الروم وخلاط . معجم البلدان .

وكان قد عزم على أن يستخلف ابنَ عمه تمرتاش بن إيلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجداً لأهل صور ، فإنَّ الفرنج كانوا في مضايقتها[١]، وفي تلك المضايقة أخذوها، فبينا كان بلك قائماً يأمر وينهى إذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل : إنّه كان من يد عيسى فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال : «هذا قتل المسلمين كلهم» ، ومات لوقته .

وقيل : بقي ساعات وقضى نحبه ـ رحمه الله ـ وحُمل إلى حلب ، ودفن بها قبليّ مقام ابراهيم[٢] ـ عليه السَّلام ـ.

ووصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأوّل ، ودخل القلعة ونصب علمه ، ونادى الناس بشعاره .

وسار سليمان بن إيلغازي من ميّافارقين إلى خرتبرت وحصون بلك ، وهي نيّف وخمسون موضعاً فتسلّمها .

وسار داود بن سكمان ، فأخذ حصن بالو وأطلق حسَّان بن كمشتكين فعاد إلى منبج .

فأمّا تمرتاش فإنّه لمّا ملك حلب ألهاه الصّبى واللعب عن التشمير والجدّ والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر المسلمين بذلك ،

---

١ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
٢ ـ اسمه الآن مقام الصالحين . الآثار الإسلامية ص ٥٢ ـ ٥٣ .

واستوزر أبا محمّد بن الموصول، ثم عزله وصادره في رجب من سنة ثماني عشرة واستوزر أبا الرَّجاء بن السَّرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسيّر إلى حرَّان فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك أسكنه بها ؛ فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلّى منها بحبل وهربَ إلى دارا ، ثم رحل منها إلى حصن[1] كيفا إلى داود بن سكمان .

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار إليه نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه إيلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل أكثر من كان معه من الفرنج ، وعاد غانماً ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه إلى تمرتاش إلى حلب .

وولّاه تمرتاش شحنكية حلب ، وهو المدفون في القُبَّة التي مقابل باب مشهد ابراهيم ـ عليه السلام ـ واسمه مكتوب على جهاتها الأربع .

وولَّى قلعة حلب رجلاً يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الأولى من هذه السنة استقرَّ الأمر بين الملك بغدوين صاحب أنطاكية ـ وكان في سجن بلك بحلب ـ وبين تمرتاش بن إيلغازي على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب ، وعلى تسليم عزاز وثمانين ألف دينار ، وقدَّم منها عشرين ألف دينار .

١ ـ بلدة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧ .

وحلف على ذلك وعلى أن يُخْرِجَ دُبيْس بْنَ صَدَقَة[1] من النَّاس ، وكان قد وصل دبيسٌ منهزماً من المسترشد بعد أن كسره المسترشد ، وقتل خلقاً من عسكره فترك بلاده ، وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ؛ ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب المسترشد والسلطان محموداً في أمره .

وكاتب دُبَيْس قوماً من أهل حلب ؛ وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها إليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي ، فأخذهم وعذّبهم وشنق بعضهم ، وصادر بعضاً ، وأحرق بعضاً .

وكان المتوسّط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسيّر أولاده وأولاد إخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب .

وفكّت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش ، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قبآء ملكياً وقلنسوة ذهب وخفافاً وراناً[2] ؛ وأُعيد عليه الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره ، فركبه ، وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جُمادى ، فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعة رهناً على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من أولاد الفرنج ، وعدّتهم اثنا عشر نفراً ، وحمل العشرين ألف دينار التي عجّلها .

١ ـ لدبيس ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٤٧٨ ـ ٣٤٩٣ .
٢ ـ ما يشد حول الساق .

وقبض صاحبُ شيزر الرَّهائن ، وأطلق بغدوين من سجن شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج ـ لعنة الله ـ وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول : «البطريك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت ، وما الذي استقرّ ، فحين سمع حديثَ عزاز وتسليم حصنها منّي أبى ، وأمرني بالدفع عنها وقال : إنّ خطيئتك تُلزمني ، ولا أقدر على خلافه» . فتردّدت الرُسل بينهما فلم يستقرّ على قاعدة .

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتّفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ؛ وتقدّم دبيس إلى مرج دابق فخرج إليه حسام الدّين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلى ماردين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بنو مُنْقِذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردَّدُ بين تمرتاش وبغدوين إلى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، وبخروج بغدوين إلى أرتاح قاصداً النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كلَّ ما كان

عليه ، ثمّ رحل فنزل على باب حلب ، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأوّل .

وخرج دبيس وجوسلين من تلّ باشر ، وقصدا ناحية الوادي ، وأفسدا القُطْنَ والدُخْن ، وسائر ما كان به وقوّم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل إليهم الملك سُلْطَان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدّم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة . ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان ممايلي جوسلين من الشّرق ؛ وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك .

ونزل يغي سيان بن عبد الجبَّار بن أُرتق صاحب بالس ممايلي دبيس من الشّرْق ، وكانت عدّة الخيم ثلاثمائة : للفرنج مائتا خيمة ، وللمسلمين مائة خيمة .

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعيةً لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : «هذا نبيّكم محمد» وآخر يقول : «هذا عليّكم» وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : «يا مسلم أبصر

كتابكم». وثقبه الفرنجي بيده، وشدَّة بخيطين، وعمله ثفرا[1] لبرذونه؛ فظل البرذون يروثُ عليه، وكلّما أبصر الروث على المصحف صَفَّق بيديه وضحك عجباً وزهواً.

وأقاموا كلّما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين؛ والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك.

وربّما شنق المسلمون بعضهم، ويخرج الغزاة من باب العراق، ويسرقونهم من المخيم، ويقطعون عليهم الطّرق، ويقتلون ويأسرون. ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار: «دبيس، يا نحيس». والرسل تتردد بينهم في الصّلح، ولا يستتب إلى أن ضاق الأمر بالمسلمين جدّاً.

وكان بحلب بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبَّار والحاجب عمر الخاص، ومعهما مقدار خمسمائة فارس، والذي يتولّى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشّاب، وتولّى حفظ المكان وبذل المال والغلال.

فاتفقوا على أن سيَّروا جدّ أبي قاضي حلب القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الأشراف وأبا عبدالله بن الجلي فخرجوا ليلاً، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن إيلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان، وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب.

١ ـ الثفر: الجلدة التي توضع تحت الذيل ويربط بها حلس الدابة.

وكانت الرسلُ مترددةً بينه وبين أق سنقر البرسقيّ صاحب الموصل في اتّفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ؛ فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنّيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيُّون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيَّروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك اللَّيلة وصاحوا إلى أهل حلب : «أين قاضيكم ؟ وأين شريفكم ؟» فأُسْقِط في أيديهم إلى أن وصل منهم كتابٌ بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيّون عند تمرتاش يحثّونه على التَّوجّه إلى حلب ، وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : «نريد منكَ أن تصلَ بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم» .

فضاق الأمر بالحلبيّين إلى حدٍّ أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلَّتِ الأقواتُ ، ونفد ما عندهم ، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنّون لشدّة المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال ، وزحفوا إلى الفرنج وردُّوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدّي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتاباً إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرض ؛ فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال : «انظروا إلى هؤلاء يتجلّدون عليّ ، ويقولون إذا وصلتَ فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغرّرون بي حتى أصل في قلَّة ، وقد

بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة» .

ثمّ أمر بالتّوكيل والتّضيق عليهم ، فشرعوا في إعمال الحيلة والهرب إلى أق سنقر البرسقيّ ، ليستصرخوا به فاحتالوا على الموكّلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا[1] .

وساروا حتى أتو الموصل، فوجدوا البرسقي مريضاً مدنفاً، والناس قد مُنِعوا من الدّخول عليه إلّا الأطبّاء ، والفرُّوج يدقُّ له لشدّة الضعف ، ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أمّلتم نصره ، فكادت أنفس الحلبيّين تزهق .

واسؤذن للحلبيّين على البرسقيّ فأذن لهم ، فدخلوا إليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضرّ ، فأكرمهم ـ رحمه الله ـ وقال لهم : «ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلتُ لله علي نذراً إن عافاني من مرضي هذا لأبذلنّ جهدي في أمركم ، والذبّ عن بلدكم ، وقتال أعدائكم» .

قال القاضي أبو غانم قاضي حلب: فما مضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب .

---

١ ـ مدينة الآن بتركية هي في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .

وبقي أياماً وعمل العسكر أشغاله وخرج ـ رحمه الله ـ في عسكر قويّ ، فوصل إلى الرَّحبة ، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق ، وصمصام الدّين خير خان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل إلى بالس ، وسار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشراً أعلامه البيض إلى الفرنج عند قربه من حلب ، وتحوّلوا إلى جبل جَوْشَن كلّهم ، وخرج الحلبيّون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب والتقَوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن ، وهو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد .

فأرسل الشالشنية[1] ، وأمرهم أن يردّوا العسكر ، فجعل القاضي ابن الخشّاب يقول له : «يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم ، فانهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي تَعْلَم أَنَّ في بلدكم ما يقومُ بكم وبعسكري لو قُدّر علينا ـ والعياذ بالله ـ كسرةٌ ؟» فقال : «لا» . فقال : «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرَّهم وندخل إلى البلد ونقوّيه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم إن شاء الله ، ونخرج إليهم بعد ذلك»[2] .

١ ـ حملة شارات وأعلام كانوا يقومون بوظيفة مراقبة أمن الجيش ونظامه .
٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة آق سنقر البرسقي في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .

ورجع ودخل البلد وتسلَّم قلعتها ، ونظر في مصالح البلد وقوّاه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً .

وكتب لأهل حلب توقيعاً باطلاق المظالم والمكوس ، نسخته موجودة ، بعدما كان الحلبيّون مُنوا به من الظّلم والمصادرة من عبد الكريم والي القلعة ، وعمر الخاص والي البلد ، وتسليطهما الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث أنهم استصفوا أموالهم من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

وأما الفرنج فانهم توجّهوا إلى الأثارب ودخلوا أنطاكية .

وشرع النَّاس في الزّرع ببلد حلب في الثَّاني عشر من شباط وجعلوا يبلّوا الغلّة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلَّة من أجود الغلال وأزكاها .

وأطلق البرسقيّ بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل إلى تلّ السّلطان في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، في أواخر المحرّم ، وأقام به ثلاثة أيام ، ورحل إلى أن وصل إلى شيزر في سابع صفر ، وتسلّم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين ألف دينار حُمِلَتْ إليه .

وأقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتَابك طغتكين ، فرحل في عساكره التي لا تحدّ كثرةً ، ونزل كفرطاب فسلّمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلّمها إلى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد

وصل إليه من حمص والتقاه بتلّ السلطان .

وسار إلى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسر عظيمة ، واستشهد جماعةٌ من المسلمين من السُّوقة والعامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدّمين أحد .

ووصل أق سنقر البرسقي سالماً إلى حلب ، وأقام على قنَّسرين أياماً ، وتفرّقت العساكر إلى بلادهم ، ووصل أمير حاجب صارم الدّين بابك بن طلماس ، فولّاه البرسقي حلب وبلدها ، وعزل عنها سوتكين والياً كان ولّاه .

ووقعت الهدنة بين البرسقيّ والفرنج على أن يناصفهم في جبل السُّماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقيّ إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعلّلون الشحن والمقطعين بالُمحال في مغلّ ما وقعت الهدنة عليه إلى العشرين من شعبان من السّنة .

وسار بغدوين إلى بيت المقدس والرسولُ خلفه يُعلمه بأن الفرنج لا يمكنون أحداً من رفع شيءٍ من الصَّيَافي ؛ وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتـفاع من بعض الأماكن والهدنة على حالها ، فتجمّع الفرنج ونزلوا رفنية .

وخرج شمس الخـواص صاحبها طالباً أق سنقر البرسقيّ مستصرخاً به ، وسَلَّمها إليهم ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة ، وقصدوا بلد حمص فشعّثوه .

فجمع البرسقيّ العساكر وحشد ، وسار نحو الشَّام لحربهم حتى وصل الرّقة في أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار إلى أن نزل بالنّقرة على النَّاعورة في الشهر المذكور ، وأقام به أيّاماً والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضّياع ما بين عزاز وحلب مناصفةً وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقرَّ هذا الأمر .

وكان بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبَّار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجَّها مع جماعة من التركمان إلى المعرّة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلنك ، صاحب بَسَرْفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سيّر البرسقيّ ولده عزّ الدين مسعوداً منجداً لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عزّ الدين إلى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولّاها كافور الخادم إلى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة إلى الأثارب في الثامن مِنْ جمادى الآخرة من سنة عشرين ، وسيّر بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقَّابين إلى حصن الدير المجدّد فوق سرمدا ففتحه سلماً .

وقتل من الخيَّالة بعد ذلك خمسون فارساً ، ونهب العساكرُ الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه ، ورفعوا الغلَّة جميعها إلى حلب ، وزحفوا إلى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل إليه جوسلين ، ونزلوا عِم[1] وأرتاح ، وسيّروا إلى البرسقيّ : «ترحل عن هذا الموضع ، ونتّفق على ما كنّا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنية عليك» ، فتجنَّبَ الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تمَّ على عزاز فصالحهم إلى أن فرّج الخناق عن الأثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا : «ما نصالح إلاّ على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين» . فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد آق سنقر ، ونزل قنسرين ، ورحل إلى سرمين ، وامتدت العساكر إلى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوش معرَّة مصرين ، فأقاموا كذلك إلى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج ، فعادوا إلى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته أتابك طغتكين ، وكان وصل اليه وهو على قنسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض أتابك فعملت له المحفَّات ، وأوصى إلى البرسقي ، وتوجه إلى دمشق ، وسلَّم البرسقي حلب وتدبيرها إلى ولده عزّ الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلّى بفعل الخير .

وسار أبوه إلى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين

---

١ ـ عِمّ : قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية ـ معجم البلدان .

وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلّي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزُّهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو متحفظ منهم ، فسبقوا أصحابه إليه ، فضربوه حتى أثخنوه وحُمل جريحاً فمات من يومه .

وقُتِلَ مَنْ كان وثب عليه من الباطنيَّة غير شاب واحد كان من كفرناصح[1] ـ ضيعة من عمل عزاز ـ فإنَّه سلم ، وكان له أم عجوز فلما سَمِعَتْ بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت أنَّ ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالماً فأحزنها ذلك ، وجَزَّت شعرها وسوَّدت وجهها .

وقيل : إنّ البرسقي قَتَل بيده منهم ثلاثةً، وكان البرسقي ـ رحمه الله ـ قد رأى تلك الليلة في منامه عدّة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديداً ، فقصَّ رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيام ، فقال : «لا أترك الجمعة لشيء أبداً» ، وكان من عادته أن يحضر الجمعة مع العامة ـ رحمه الله ـ وكان وزير البرسقيّ المؤيد بن عبد الخالق ، وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عزّ الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة

١ ـ ما تزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه وهي في منطقة جبل سمعان ـ محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم . انظر بغية الطلب ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ حيث المزيد من التفاصيل .

عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولّى فيها من قِبَلِهِ الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة إلى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشوراً بذلك ، فوصل إلى الموصل وملكها ، ثم نزل إلى الرّحبة قاصداً إلى الشام ؛ وكان يظن أنّ قاتل أبيه قومٌ من أهل حماة ، فأضمر للشّام وأهله شرّاً عظيماً .

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والإقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طغتكين عنه أنّه يقصده ، فتأهّبَ له فلمّا نزل بظاهر الرّحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها أيّاماً فسلمها الوالي إليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل : سقي سماً فمات .

وندم الوالي على تسليم الرّحبة ، وكان قد وصلتْ قطعةٌ من العسكر لتقوية حلب فمنعهم تُومان من الدُّخول إليها ، فوقع الشرّ بينه وبين رئيس حلب فَضَائل بن بديع ، ودَاخَلَهم إلى حلب .

فوصل إلى حلب ختلغ أبه[1] السُّلطانيّ غلام السُّلطان محمود ، ومعه توقيع مسعُود بن البرسقي بحلب ، كَتَبَه قبل وصوله إلى الرّحبة فلم يقبله تُومان والي حلب فعاد ختلغ أبه إلى الرّحبة ، ـ وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود ـ .

فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلّمها من يد تومان ، آخر جُمادى

١ ـ له ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٢١٦ ـ ٣٢١٩ .

الآخرة ، وصعد إلى قلعتها بطالعٍ اختاره له المنجّمون ، فأخذه الطَّمع في أموال النَّاس ، وصادر جماعةً من أهل حلب ، واتّهمهم بودائِع المجنّ الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيّام رضوان .

وقبض على شرف الدّين أبي طالب بن العجمي وعمّه أبي عبدالله ، واعتقلهما بحلب ، وثقب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد فعلُه القبيحُ عليه بالبوار ، وضلّ رأي منجّمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدَّموا عليهم بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبّار ، ونادى أهلُ حلب بشعار بدر الدَّولة ، وساعده على ذلك رئيسُ حلب فضائلُ بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ أبه ، وذلك في الثاني من شوَّال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتّى رحل[1] ؛ وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر ، ودخل إليهم إلى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ؛ ووصل اليهم حسَّان صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ؛ ودام الحصار إلى النّصف من ذي الحجّة .

وكان أتَابك عماد الدّين زنكي بن قسيم الدَّولة أق سنقر قد ملك الموصل بتواقيع السُّلطان محمود ، فَسَيَّر إليه شهاب الدّين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ؛ فسيّر أتابك إليها

١ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١٨ .

عسكراً مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدّين حسن[1] .

ودخل الأميرُ صلاح الدّين فأصلح الحالَ ، وَوَفَّق بينهما على أن استدعيا أتابك زنكي من المَوْصل ، فَتَوَجَّهَ بالجيوش إلى حلب ، وقيل : إنَّ بدر الدَّولة وختلغ سارا إليه .

١ ـ كذا بالأصل وهذه الرواية مشوشة صوابها ما رواه ابن العديم نفسه في بغية الطلب ص ٣٢١٨ ـ ٣٢١٩ : «نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب واتفق الأمر على يسير بدر الدولة وخطلبا إلى باب الموصل إلى المولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر إلى الموصل ، فلمن ولى عاد إلى منصبه ، وأقام بحلب الأمير حسن قراقش مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة والياً من قبله ، ورتب الأمور» .